نماذج بشرية

الدكتور محمد مندور

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

نماذج بشرية

بقلم
الدكتور محمد مندور

الطبعة الرابعة
طبعة مزيدة ومنقحة

دار نهضة مصر للطبع والنشر

إهـــــداء

اعتدت أن أملى على زوجتى ما أكتب أو أقرؤه عليهـا بعد الفراغ منه ، وهى أديبـــة تجيـــد النثر والشعر ، وأنا شديد الثقـــة بذوقها الأدبى الذى أدركتـــه فيهـــا وهى لا تزال طالبـــة بكليـــة الآداب . ولقـــد كان هـــذا الذوق دائما خير عون لى على الرجوع عمـــا قـــد تسوقنى إليه حرارة القلم عندما يتملكنى الموضوع فأندفع فى أعقابه . ولقـــد تناولت هـــذه النماذج بالمراجعـــة قبل جمعهـــا فى الكتـــاب الحـــالى ، فاذا بى أرجع إلى ما كانت قـــد رأته عنـــد الكتـــــابة الأولى فى عـــدد من المواضع . وإن يكن هنـــاك إنسان قـــد أحس بكل ما وضعت فى هـــذا الكتـــاب من تفكيرى وإحساسى ، فهو لا ريب هـــذه الزوجة العزيزة .

ولقـــد حرصت على أن تظهر القراء على ما فى هـــذه النماذج من جهـــد مستور وصنعة خفيـــة فقدمتها إليهم . وتلك ولا ريب ســـنة قـــد تبـــدو جـــديدة ، ولكنهـــا سنة خيرة .

وهأنذا أهـــدى إليهـــا هـــذا الكتـــاب رمزا لمـــا أحمل لهـــا من محبـــة ووفاء .

محمـــد منـــدور

مقدمة

بقلم ملك عبد العزيز

« للكاتب الايطالى المعروف بيرندللو رواية مسرحية هى : (ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود) • وهذا معنى الخلق فى الأدب • ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فاذا هى أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بها تجتاز الأجيال مستقلة الوجود فى مأمن من الفناء • لأنها أعمق فى الحياة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع » (ص ١) •

ذلك ما يبدأ به المؤلف كتابه ، وذلك ما أستعيره لأبدأ به مقدمتى عن ذلك الكتاب • فإذا كان أولئك الكتاب انكبار خالقو تلك النماذج قد وجدوا شخصياتهم مبعثرة غامضة حائرة فى الحياة، فجمعوا أشتاتها ووضحوا معالمها ودعموا حياتها ، فكذلك قد وجد المؤلف تلك الشخصيات مبعثرة حائرة ، ولكن فى كتبهم ، التى صارت أعمق فى الحياة من كل حى وأصدق دلالة من كل واقع فجمع أشتاتها ووضح معالمها ، فكان من ذلك خلق جديد •

وها هو جيتيه يتحدث عن فوست قائلا : « تسألونى أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لى أن أعرفها ؟ ثم أتى لى بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء ! هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى ما زال وهو فى حمأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك — ما ينير الكثير من وقائع حياته ، ولكن هذه ليست الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، ولا فى أى جزء من أجزائها على انفراد •• » (ص ١٩) • ولقد يكون جيتيه حقا لم يقصد إلى فكرة واحدة ، فكرة بذاتها • ولكن هذا لا يمنع أنه قد تكون هناك بالفعل فكرة فى قلب القصيدة • وما له يعى تلك الفكرة ،

والأدب لا يصدر عن وعى كله ؟ بل ما له يحددها فيمليها على قرائه ويزجهم فى طريق واحد مرسوم ؟ ولكنه تركها حائرة مبعثرة ليأتى سواه يبحث عنها ويبرزها للضياء ، فيقول عن فاوست إنه : « عقل طغى على القلب فأشقى صاحبه » (ص ٣٢) • ويقول عن حياته : « إن معنى تلك الحياة والأثر الذى خلفته خطى فاوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا فى سبيل المثل العليا ، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحا أم إخفاقا ، فالجهاد نبل فى ذاته » (ص ٣٥) • وسواء أوافق جيته على ذلك الفهم أم لم يوافق ، فليس له — وما أراد — أن يملى شيئا على قرائه ، فلكل منهم حرية الفهم كيفما يريد •

وهكذا جاء مؤلف « النماذج البشرية » فدرس جملة من عيون الأدب الغربى ثم رسم لنا أوضح شخصياتها كما رسبت بنفسه ، وحدثنا عن أسرارها كما أوحت بها إليه •

« النماذج البشرية » دراسة وخلق •

هى دراسة ، فالمؤلف يحيط بتاريخ الكتاب وبملابسات ما كتبوا وبالآراء المختلفة فى فهم شخصياتهم والحكم عليها • يبرز ذلك حيث لا يثقل ، ويطويه حيث يفضل الطى • هى « كالنور الداخلى » يضىء دون أن يعشى • فلئن كان المؤلف يحرص على إيراد الحقائق التاريخية حول الشخصية وخالقها ، فانه لا يدعها تطغى على الخلق الفنى فتجفف ماءه • بل هو لا يوردها جملة واحدة ، بل يحتال لينثرها هنا وهناك حيث توحى المناسبات • ففى هملت نراه ينطقه فيحدثنا عن نفسه ، مشيرا فيما يسوق من حديث إلى المصدر الذى استقى منه شكسبير قصته • كل ذلك دون أن نحس أن المؤلف قد قصد إلى شىء « ولو أننى بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقمت لوالدى فى غير تردد ، ولكان بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثرا إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيكوس يسوق اسمى بين من يسوق من

ملوك الدنيمركة ، ولعله يذكر ما كان من محاولتى الانتقام لأبى » (ص ٣٦) . ويضيف هملت — وقد أراد المؤلف أن يظهرنا على أن قيمة تلك المسرحية الخالدة ليست فى موضوعها ، بل فى علاج هذا الموضوع : « وكم فى ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن ، وهوى الكثير ، والناس بعد لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ، ولكن شكسبير قد خلقنى خلقا جديدا وأودع روحى من النفاذ مالا أزال اشقى به .. » (ص ٣٦) . وفى موضع آخر من هملت أيضا نرى المؤلف يشير إلى الحالة النفسية التى كتب فيها شكسبير قصته « ونحن لا بد متسائلون عن مبلغ ما حمله خالقه المبقرى من مرارة نفسه ، وقد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما نزال إلى اليوم حائرين فى فهم سرها ومداها ، وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة من شعره الغنائى Sonnets الذى يدور حول ذلك العام ١٦٠٤ » (ص ٣٩) . وفى السبت نراه ينطق موليير بقوله : « وأنا الآن فى أزمة نفسية تكاد تهدد كيانى ، فها هى زوجتى تحتمى وراء المجاملات الاجتماعية فتثير فى نفسى الغيرة تكوينى بنارها كيما » (ص ٤٨) فيستعين بتلك الملابسة التاريخية على تأييد رأيه فى أن شعور موليير كان مع بطله السبت ، إذ لم يجعله موضعا للضحك فى بعض الأحيان إلا ليتقى غضب هيئة اجتماعية تؤمن بالمجاملات وما بها من نفاق ، وفى « أوليس » يصف معارك طروادة ثم يقول : « وكانت معارك تبيض لهولها النواصى إذ كانت كلها فى قسوة ملاحم السنة العاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءا منها » (ص ١٠٣) ليخبرنا أن هوميروس لم يصف فى ملحمته من تلك الحرب سوى جزء من السنة الأخيرة .

ومن وسائله الجميلة فى إيراده الحقائق التاريخية أن تراه يمزج بين النموذج ومؤلفه حين يرى أن المؤلف إنما كان يصور جانبا من نفسه فى أنموذجه ، وفى هذا ما يجسم الشخصية الروائية حتى

لتحسبها ولدت وعاشت واضطربت فى الحياة بالفعل . استمع إليه يقول فى سذاجة تضفى على الكلام خفة وسحرا : « نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفانتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا » (ص ١٤) ، ويتابع المؤلف تجسيمه لنماذجه ليضيف إلى حياتها حياة فيقول « فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية » (ص ٧) . فلو قرأ تلك العبارة من لم يسمع باسم ذلك البطل لما داخله شك فى أنه قد عاش ومهد للثورة بالفعل . وفى تلك السنة كتبت الرواية ، وفى تلك السنة خلق بومارشيه بطله فيجارو . ويمثل تلك السذاجة حدثنا عن دخول كلمة فيجارو فى اللغة الفرنسية اسما لكل حلاق بعد أن ذاع صيت تلك الشخصية الفريدة . « وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاقى الأرض يحملون ، اليوم ذلك الاسم » (ص ٨) . وحدثنا عن الروايات التى ظهر فيها ذلك البطل « ولقيه المؤلف بومارشيه وقد سئم مهنته ، ومن ذلك اليوم أحبه ، فصاحب خطاه فى الحياة ، وقص علينا نبأه فى مسرحيات ثلاث : حلاق أشبيليه ، وزواج فيجارو ، والأم الجانية » (ص ٨) .

ورغم أن المؤلف إنما قصد إلى إحياء « النماذج البشرية » إلا أنه لم يغفل أن يسوق شيئا من النقد لفن الكاتب أو لطبيعة العمل الفنى ، ولكنه يسوق ذلك كعادته سوقا محكما فى السياق بحيث لا تحس له نفرة أو إقحاما . ففى « إبراهيم الكاتب » يقول : « وأنا بعد لا أستطيع أن أتتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا لأننى لا أعرف قصته ، وإنما أعرف منها مرحلة قصيرة ، تذكرنى بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمات الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقا لطبائعها . ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كان لابراهيم الكاتب دراما صيغت قصة » (ص ٧٧) . ويصف أدب الكاتب بقوله :

« إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج جميل من الشعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد لهما بحق جورج ديهامل سر نبوغ الكتاب » (ص ٧٧) • وكذلك نراه يحكم على قصة بتلان بأن « أجزاءها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة .. » (ص ٩٢) ، ثم يفسر ذلك ويوضحه • ولكم من مرة نقف أمام أدب الكاتب من أولئك الكتاب الكبار نعجب به ونتمنى لو يظهرنا المؤلف على ما فيه من أصالة وجمال ، ولكن موضوع « النماذج » يضيق عن ذلك ، فلعلى إذ أقول اليوم هذا ، أنتزع من المؤلف وعدا بأن يعود إلى فن أولئك الكتاب يتحدث عنه •

والنماذج خلق ، بنفث فيها المؤلف الحياة بما يصطنع من سذاجة ، وبما يحملها على التحدث به عن نفسها كما حملت ، وبما يترجمه من أقوالها الأصلية ينطقها به بعد أن يكون قد مهد الجو وأحكم الملابسات • هو مخلص لنماذجه يتابعها جزءا وجزئين كفاوست ، وقصة واثنتين كفيجارو ، بل ينتقل معها قرونا كأوليس ، يعاصر هوميروس فى القرن التاسع ق•م • ثم سوفوكل فى الخامس ق•م• ثم تنيسون وجويس فى العصور الحديثة ، فهو عالم بها ملم بأطوارها • استمع إليه يتحدث عن أوليس « ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأودسا ، ثم ينتهى بخبث فيلوكتيت ، وأن نجده فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن الذى أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله ، يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد المدنية » (ص ١٠٤) وفى الحق إن الرجل ما عاش إلا فى القرن الثانى عشر ق•م• فى عصر البداوة الأولى ولكن خالقيه من الكتاب هم الذين نقلوه معهم إلى أزمانهم حين صوروه بالصورة الخاصة التى أرادوا • ولولا نفاذ نظر المؤلف لما استطاع أن يرى تطور صورته فى رءوس

كتابه المختلفين . ولما استطاع أن يجد في كل مرحلة بذور المرحلة التي تليها رغم إختلاف أولئك الكتاب ، ثم أن يحكم من ذلك ، لا أنموذجا لشخص واحد في الحياة فحسب ، بل أنموذجا للشعب اليوناني كله في عصوره المتعاقبة ، وأنموذجا لكافة الحضارات « حين تسير من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد المدنية » .

والمؤلف يتسلل إلى نفوس نماذجه من خلال أنفسها ومن خلال خالقيها ، ويعرض مختلف الآراء فيها لينفذ إلى ما يراه الحق وليصورها في الصورة التي أوحت بها إليه . استمع إليه يتحدث عن دون كيشوت « فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خبله أنه موكل بآثام البشر يحاول لها إصلاحا فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب في غير مضرب ، ومن قائل إن هو إلا مثالي عنيد لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب ، الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها . ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ ! » (ص ١٣ ، ١٤) أو إلى قوله عن هملت : « هذه مأساة هملت ، ولكم كثرت من حوله الأقاويل ، فمن قائل إنها مأساة جنون ومن قائل إن هي إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفي الحق إنهم لمخطئون . ليست مأساة هملت شيئا من هذا وإنما هي مأساة رجال الفكر أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شيء فنفذت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأي فتحطمت بين أيديهم حياتهم التي اتخذوها موضعا للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانبا واحدا فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الكبيرة في كل أمر ألف جانب وجانب فما تزال أحيانا حائرة مترددة حتى تقف في مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم » (ص ٤٧)

ولا شبك فى أن ذلك رأى أصيل أيده ودعمه بما بثه من وقائع الرواية وأحاديثها .

ثم هى خلق بما فيها من تأمل شخصى وملاحظات إنسانية ، وتفكير عميق غذتها ثقافة واسعة واضطراب مباشر فى مناخى الحياة . استمع إليه يقول فى جفروش : « فأشد انفعالات النفس واعمقها غورا واصدقها رنينا هو ما يعقد اللسان » (ص ١) أو إلى قوله عن دون كيشوت « فاستحالت آلامه سخرية من آماله التى طوحت به فى كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس فى نفسه بتلك الحقيقة الانسانية اللاذعة ، وهى اننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ونرفق بها كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا » (ص ٣) من منا يقرأ ذلك ثم لا يحس بصدقه وإنسانيته ؟ ومن منا يقرأ قوله « هذا هو جفروش كما تعرفه باريس فى أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ولكنهم يصدرون عنها هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء فى النفس وحرارة فى القلب ولمعان فى الحياة تنشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود » (ص ٥) من يقرأ هذا ثم لا يحس أنه قد فسر لنا حياة أولئك الصعاليك الذين نحبهم ونعجب بهم وإن كنا قد نتردد فى انتهاج سبلهم فى الحياة — ومن منا لا يحس أنه قد جعل جفروش نموذجا حقا لهم بحيث لا نملك أنفسنا حين نقرؤه ، وهو الطفل الباريسى ، من أن نذكر الشاعر العربى عروة بن الورد ، عروة الصعاليك الذى كان يجمعهم ويؤويهم ويطعمهم مما يستلب فى غاراته ، ثم لا يفكر قوله الجميل النبيل :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى
بوجهى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

ثم انظر كيف صور الدور الذى تلعبه السخرية فى الحياة بقوله فى فيجارو : « ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلا إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك • وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ؟ وهل يحد من حياتنا غير الهموم التى لا نعرف كيف نسخر منها ؟ » (ص ٧) واستمع إلى تلك الحقيقة الاجتماعية الصادقة فى العبيط « فنحن فى الحق اكثر استعبادا للعرف منا للخلق وذلك لأمر بين هو أننا جميعا — إلا من عصم ربى — أشد حرصا على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا » (ص ٢٢) ثم احكم هل عدا الحق فى قوله ! ثم أى تفكير أصيل دقيق فى وصفه للمكر فى « الأستاذ بتلان » : المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة • والمكر إحساس باطنى بالنسب ، إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها حتى يقودها إلى ما يريده وكأنه لا يعى ما يفعل والمكر أخيرا قدرة على تصريف القول وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ ، وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا للنفوس الغير وتذليل تلك النفوس ، وإذن فالمكر ليس شرا فى ذاته وإنما يصبح شرا إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود » (ص ٨٧) •

ولكم من مرة تراه يلخص فلسفة بأسرها فى جملة تأتى فى موضعها من السياق ، دون أن تحص فيها جفاف العلم وإن ظلت محتفظة بجلال الفكرة ، مما يجعل تلك النماذج دسامة تغذى العقول وتفتح أمامها أبوابا من التفكير ، كما رأيناها من قبل ترهف من أحاسيس النفوس • فهاهو يجمع فلسفة الضحك عند برجسون فى قوله : « إن فى تصرفات آلست ما يحرج وما يضحك ولكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ، وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزاء

نقوم بـــه ما يخرج فى حياتنـــا عمـــا يجب أن تطرد عليـــه فى عرف المجتمع ؟ » (ص ٥٤) .

وأخيرا هى خلق ، لمـــا فيهـــا من صياغة محكمـــة أصيلة وأسلوب حار يضمنان لهـــا الخلود كعمل فنى . وفى الحق إننـــا لنستطيع أن نرى فى ذلك مرحـــلة أخيرة من مراحـــل الأسلوب العربى فى العصر الحـــديث ، فلقـــد كان فى البـــدء سجعا وتكلفـــا وزخرفة لفظيـــه ثم مال — كرد فعل — إلى البسط والتبسيط بحيث تكشف لك الكتابه عن كل ما تحمـــل للقراءة الأولى دون أن تترك لك ما تفـــكر فيـــه وتتأمله . ولكن أسلوب هـــذا الكتاب قـــد خلا من سوءات الصنعة المتكلفـــة ونـــأى عن البسط المسرف ، فجاء أسلوبا مركزا موحيـــا غنيـــا بمـــا يرقـــد تحتـــه من إيحاءات ، فلا تملك إلا أن تقف بين الحين والحين لدى الجمـــلة تمضغها وتجترها لتستخرج كل ما يكمن فى قلبهـــا من معنى . وهو إلى هـــذا قـــد خـــلا من ثقل المحـــاجة المنطقية وجفاف الأسلوب التعليمى ، بل نراه يلقى ما يريد فى خفـــة تشـــبه خفـــة الاغريق الذين كانوا « يفكرون بخيـــالهم » ويحلون مشكلات الوجود بالأساطير .

فى جوليـــان سوريل تجـــده يقول بعد أن صور ما قـــد يلاقيـــه بعض المتنازين من اضطهاد فى المجتمع يدفعهم إلى ارتكاب الآثام : « وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من سوريل طيورا جارحة » (ص ٦٩) أنظر كيف اهتـــدى المؤلف إلى الوصف الدقيق النـــاقل للاحساس يلقيـــه فى خفـــة عابرة فيصيب موقعه من النفس ، فهو لم يقل « وحوشـــا ضوارى » مثـــلا لأنه يريد أن يحتفظ فى نفسك ببعض العطف على أولئـــك الذين « جعلتهم الجمـــاعة » بظلمها لهم يصلون إلى تلك الحال . وكذلك وصفه للتشابه بين فتاتين صغيرتين بقوله « شبيه قطرات الندى بعضها لبعض » (ص ٣) فهو لم يشبههما بزهرتين مثلا ، بل اختـــار أدق ما يحمل ما فى النفس من إحساس بالصفـــاء والطهر والرقة ، وهل أدق من قطرات النـــدى فى نقـــل ذلك الاحساس ؟

وإنك لتلمح مثل هذا التوفيق فى التعبير فى قوله « فلئن كان ألسست « ضميرا ينطق » بمكنونه صادقا صريحا فسليمين « أكذوبة اجتماعية » تتحرك ، ومن عجب أن يحبها ألسست حبا صادقا عميقا » (ص ٥٠) وانظر أى وصف كان يكون أكثر انطباقا على امرأة كسليمين « فى حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما فى ألوان وجهها وأصباغ شعرها » (ص ٥٠) وأى وصف كان يكون أبلغ عن رجل كألسست ، لا يكتفى « بأن يقول إلا ما يؤمن به ، بل وأن يقول كل ما يؤمن به ولو كان فى ذلك شقاؤه ، ولو أصبح به موضع سخرية الناس أجمعين » — من أنه ضمير ينطق (٤٨) ثم انظر كيف ثبت الكاتب العجب فى نفوسنا من حبه لسليمين حين جمع فى دقة بين « الضمير » و « الأكذوبة » .

واقرأ معى تلك اللحظة يفسر بها كيف أن رأس المحكوم عليه بالاعدام فى اللحظات السابقة للتنفيذ ، تحظى بحياة غنية تتدافع فيها الأفكار غزيرة متتابعة « أو ما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى بحق اليأس أشبه » ثم جزنى ألم يرقك هذا التفسير الانسانى بما فيه من دقة وتركيز يدعوان إلى التأمل ؟

واستمع إلى قوله : وهكذا تتضور النفوس الممتازة وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الادارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقا حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » (ص ٦٨) ثم انظر إلى قوة الصورة ودلالتها وأصالتها فى قوله : « تحنى أصلابها وتتصبب عرقا » . إننى لأتصور أمامى الآن رجلا رث الثياب يخرج من فوهة منجم ، وقد حمل فوق ظهره حملا ثقيلا انحنى عوده تحت وقره ، ونفرت عروقه وتصبب منه العرق ! وانظر إلى تلك الجمل الاعتراضية

التى قطعت الأسلوب : عقبات تقف فى طريقك كلما حاولت الانطلاق ، مما يشعرك بالجهد ، جهد أولئك الممتازين الذين وضع المجتمع فى سبيلهم العقبات ، « حتى تستطيع — وقد لا تستطيع بعد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » . ولكن الجملة الأخيرة تطول قليلا ، إذ فيها راحة الوصول فأى مطابقة فى الأسلوب بين الفكرة وما يساوقها من عاطفة ، وبين الموسيقى اللفظية ! وما دمنا بصدد الموسيقى فلتقرأ معى تلك الفقرة : « ولكم قطعت أسلحة رولان فى مفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع بربا روس الرعب على صفحات المياه ، فما له لا يغامر كما غامروا ؟ وما له لا يلتمس المجد بحد السيف كما التمسه من قبل أبطال ؟ » (ص ١٢) . واستمع كيف « قعقعت » الأسلحة فى « مفاوز » الجبال ، وكيف « نشرت » ، لابعثت « قلاع » بربا روس « الرعب على صفحات المياه » ، لاسفن بربا روس ، الخوف على صفحات الماء . ثم احكم أى توفيق قد صاحب الكاتب فى اختياره للألفاظ المميزة بمعناها وموسيقاها . ورولان هو ذلك البطل الشهير الذى زعموا أنه حاول رد العرب عن إسبانيا ، فأوهى بأول ملحمة فى الشعر الفرنسى ، وبربا روس هو ذلك القرصان الرومانى المرعب الذى دوخ رواد البحر .

« تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة ، تحسبه بالداخل بينما هو فى الخارج ؟ أليس هو فيجارو مضرب المثل فى الخفة والمهارة ؟ أليس هو فيجارو .. » (ص ٩) .

نعم إنه فيجارو مضرب المثل فى الخفة والمهارة ، إذن فليتابع المؤلف خفته فى حركة الأسلوب ، فى تلك الجمل المنفصلة المتلاحقة ، وفى ذلك التساؤل المتكرر الذى يتبعها .

وبعد فليس الحديث عن السيل الموسيقى فى الأسلوب والدقة فى اختيار الأصوات المعبرة بالأمر الهين . ذلك لأنها ليست من البساطة والوضوح بحيث تمسك بها وتدرجها فى رقم أو أرقام

كذلك الذى كانوا يعلموننا فى المدارس من أدب هـذا الكاتب أو ذلك « سجع قصير الفقرات ، ومقـابلة أو طبـاق ، وبـدء بالتمهيدات الخ الخ .. » . إنهـا ليست موسيقى رقص ، محـددة مقسـمة متقـابلة ، ولكنهـا فيض نفس ، نفس حارة غنيـة ، موسيقى سيالة تعلو وتهبط وتتكسر وتتراخى وتتدافع حسب الاحساس أو وثبـات الفكر ، فاذا أردت أن تدرك خصائصهـا ، فعليـك أن تقف إزاء كل جملة ، وإزاء كل فقرة ، تتأمل السر فى إحكام ما بهـا من نغم .

« وإذا كان المؤلف قـد اسـتعان بتجسيم شخصياته على إيراد الحقائق التاريخيـة ، فانه قـد استعان بذلك أيضا على استحضارها أمام القراء ، حين تكون أبلغ تأثيرا فى نفوسهم « ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظـلام الليـل ، وها هو فيجارو وحيـدا مجهـدا يقص علينـا آلامه ويشكو ظلم الحيـاة بعـد أن نفـذ صبره وأصابت السهام شغاف قلبـه ، ها هو فيجاروا يصيح غيرة على عروسه التى يحب ... » (ص ١٠) . ثم إذا بـه يعقب بعـد أن انتهى فيجارو من إلقـاء مونولوجه بقوله : « وحزن الحاضرون لحزن فيجارو » . وفى الحق لم يكن ثمـة حاضرون سوى انتظارة فى المسرح ، ولكنـه أحالهم « حاضرين » معه حتى يوهمنـا بالواقع فيكون أفعل تأثيرا فى نفوسنا .

وبعـد فاذا كان المؤلف يملك تركيز الفـكر ودقـة اللفظ وقوة إيحـائه ، ثم دلالة الصور وموسـيقى الأسلوب ، وإذا كان يعرف اصطناع المذاجة وإحيـاء الشخصيات ، فانه يملك هبـة لا تقـل خطرا عن كل هؤلاء ، يملك حرارة القلب ، يملك قوة الشعر ، ومثالية التصوف . استمع إلى قوله : « دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعـل فى النفس من تلك الأحلام ؟ قـد تذهب أحداث الحيـاة بتلك الآمال العـذاب التى يقوم عليهـا صبانا كمـا كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعـابد الآلهة يمسكن ضرامهـا عن أن يخمد ، ولقـد تتقطع أوتار القيثـارة فلا تعود تملأ نفوسنا

بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رمادا مقدسا ، ولا بد للآلهة من رجع فى النفس تحن إليه كلما عادت بها الذكرى من ثنايا الماضى الجميل » إننى لأشفق أن أمس تلك الفقرة الرائعة بالتحليل فألقى ظلا على ما بها من شعر وتصوف ، ولكن عليك أن تعيدها على سمعك فتحس بكل ما فيها من جمال وجلال .

ثم هو إذا كان يملك الشعر فانه ليعرف السخرية . استمع إلى قوله فى « العبيط » : ولكن الرجل عبيط ، عبيط ما فى ذلك ريب ، فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسية من يخاطبه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ، وهو أخيرا لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فما ينبغى أن يقال لكل إنسان وما إلى ذلك من حكمنا الثمينة ! قد تقول هذا وخيرا من كل هذا ، أما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هى الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا نفاقا متصلا ، واتخذت من هذا النفاق قانونا صارما يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى (ص ٣٦ ، ٣٧) فأى سخرية أبلغ منها فى قوله « عبيط عبيط ما فى ذلك ريب » ووصفه لتلك الحجج بأنها « حكمنا الثمينة » ثم استخفافه بها فى قوله « قد تقول هذا ، وخيرا من كل هذا » . ثم إننى أرجو أن تقف عندما فى هذه الفقرة من سخط على التواء حياتنا الاجتماعية ونفاقها وما بها من دعوة لتحطيم تلك القسوة التى خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . ولكنها دعوة لا تأتى من الخارج ، لا تأتى من أنه « ينبغى » لنا أن نحث على الفضيلة وأن نجعل الأدب منابر وعظ ، لا تأتى عن قصد وتعمل — فذلك ما يميت الأدب ولا يجيى الأخلاق — وما يؤمن الكاتب بشىء من هذا ، بل إنه ليؤمن بأن الفن غاية نبيلة فى ذاتها ، ولكن تلك الدعوة وأمثالها إنما تصدر لديه عن فيض نفسى ، عن

شعور شخصي وإيمان عميق ، ولذلك تحتفظ بقوتها على التأثير ، فتسلم لها النفوس ، بدلا من الوعظ المفتعل المرسوم .

ولكي يستجيب إلى ذلك الشعور الذي يختلج في نفسه من حبه للمثل العليا نراه يقف في تصويره لبعض الشخصيات عند مرحلة بعينها حين يراها تفقد دلالتها الأولى كمثل ممتاز « ولهذا نقف في تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه في ذهن القارىء مثلا حيا لبلغ ما يستطيع أن يصل إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة » . (ص ١١) .

وفي الحق إن في « النماذج » لخير غذاء للجيل الجديد ، تراه يدعو إلى المثل وإن كان ينصح بملابسة الحياة « وهكذا نحن في الحياة لا بد لمن يريد أن يظفر منها بما يسقيه جمهرة البشر نجاحا وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم وأن يلابس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم فمثلهم لنسر الطالع كمثل أنتيه وقد رفع إلى الفضاء ما تلبث السيوف أن تذهب برؤسهم » (ص ١٢) ففي هذه الفقرة نراه يصور ضرورة ملابسة الواقع فلا يهيم الشباب في واد سحيق من الأحلام لا يفضي إلى شيء ، وإن كان لا يزال يحتفظ بحبه للمثل في قوله « أن يظفر بما يسقيه جمهرة الناس نجاحا وقوة » وفي قوله « لنسر الطالع » .

وهو يدعو إلى الجهاد ، الجهاد ، الذي لا يعرف اليأس مهما لاقى من إخفاق « وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى ... » ثم هو يرفع من قوى النفس الخلقية « ولكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم أو رفعهم حمق البشر فوق ما كان يجب أن يبقيهم اتضاع نفوسهم » .

ولقد نجد تفاوتا في الحرارة بين النماذج المختلفة ، فما ننتظر أن يتحمس المحتال « بتلان » وإن كان قد يتحمس ضد

أوليس بعد أن ينحدر • إنه يفهم محنة هاملت ويعطف على فيليسيتيه ويرثى لجوليان سوريل ويخشى على رستنياك ويحب جفروش ، ولكن حماسته تبلغ أقصاها حين يتصل النموذج بمعنى عام شديد المساس بحياتنا قريب من آلامنا وآمالنا • استمع إلى قوله عن فيجارو « أنموذج بشرى خالد لأبناء الشعب الذين لا يطامن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح فان لم يكن العنف فلتكن السخرية ••• فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التى لا تدفع ، فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذى لا يريد أن يستجدى أحدا وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوما ، ذلك الشعب الذى يشكو من نظام فاسد لا بد من أن يقيم على أنقاضه نظاما أصلح » (ص ١١) وفى هذا الكلام من حرارة القلب وقوة الايمان ما يشحذ القوى ويحيى النفوس •

وبعد ، فلعلى أطلت عليك أيها القارىء الكريم ، ولعلك تتساءل وما بالها تكتب كل هذا الكلام عن صاحب الكتاب ؟ ولكنه لو لم يكن زوجى لكان لى الحق فى أن أكتبه كمحبة للأدب ، فكل ما طرأ هو أنه قد أفسح لى الكتاب لأقول ما أريد •

« ملك عبد العزيز »

جفـروش
Gavroche

للكاتب الايطالى المعروف بيراندللو Pirandello رواية مسرحية هى « ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود » ، وهـذا هو معنى الخلق فى الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة ، حتى يتـاح لهـا مؤلف يجمع أشتاتهـا ويوضح معالمهـا ويدعم حياتهـا ، فاذا هى أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بهـا تجتـاز الأجيال مستقلة الوجود فى مأمن من الفنـاء ، لأنهـا أعمق فى الحيـاة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع .

ولقـد يبـدو غريبـا أن نترك النماذج المشهورة كدون كيشوت وهاملت وفوست مثلا ، لنبـدأ بجفروش . وجفروش طفل فى الثالثة عشرة من عمره يظهر ويختفى بعد أن تبـدأ رواية « البؤساء » لهيجو وقبل أن تنتهى ، فـلا هو بطل الرواية ولا هو بمدارها ، ولكنى رغم ذلك أحب هـذا الطفل وأفضله على الرجال ، حتى لقـد أتعبـنى المرض أياما فلم أجـد جليسـا تستريح إليـه النفس خيرا منـه . ولقد سئمت منطق البشر وأصبحت أرثى لذلك الفيلسوف الجليل (١) الذى غـذى شبابى بمـا فى الخير والحق من جمـال . وما أدرى أضل رجلنـا عنـدما زعم أن النفوس لا يمكن إلا أن تعشق الخير والحق إن بصرت بهما ، أم يخادع النـاس أنفسهم ويخادعون الغير عنـدما يتحـدثون عن الخير والحق ؟ ومن يدرينـا ؟ قـد لا يكون هـذا ولا ذاك ، وإنمـا هو عبث بالألفـاظ وإخراج للغة عما خلقت له من حمل معـانى النفوس ونفثات القلوب . ولكم من مرة حدثتنى النفس أن اختراع اللغـة هو أقسى ما نزل بالبشر من كوارث .

---

(١) أفلاطون .

فأشد انفعالات النفس وأعمقها غورا وأصدقها رنينا هو ما يعقد اللسان ، وأكمل الرجال شهامة أقلهم حديثا عن الخير والشر ، وتلك ألفاظ ما كان جفروش يعرف لها معنى ولو أنه علم أن للأخلاق قواعد تواضع عليها الناس لفسدت حياته ، لأنه نشأ على السخرية من مواضعاتهم والعبث بقوانينهم ، وحتى وخزات الضمير ما كان يعرف لها ألما ، وما كان قوام حياته إلا معنى عميقا للشهامة وفطنة إلى مواضع التهلكة أكسبته إياها تجارب عاجلته بها الحياة صغيرا . نعم لقد كانت تجاربه محدودة ، ولكنها كانت غنية لشدة ما قاسى من آلام حتى ما كان يدهشه شيء وهو بعد في العاشرة من عمره .

« وكان جفروش يرتدي بنطلونا لم يأخذه من أبيه وقميصا لم يأخذه من أمه ، وإنما كساه بتلك الأسمال قوم محسنون ، ومع ذلك فقد كان له أب وقد كانت له أم ، ولكنه لم يكن موضع تفكير أبيه ولا أمه ، لقد كان من أولئك الأطفال الذين لهم أم وأب ومع ذلك فهم أيتام » .

« وكان شعوره بالسعادة أتم ما يكون عندما يجد نفسه في الشارع ، إذ أن حجارته كانت عليه أقل صلابة من قلب ذويه ، وقد ألقوه إلى الحياة بركلة قدم . فطار إليها راضي النفس . لقد كان طفلا صاخبا شاحبا خفيفا يقظا ساخرا حي الملامح مريضها ، فكنت تراه رائما غاديا معنيا لاعبا يحفر القنوات . ويسرق أحيانا ولكن في مرح كما تسرق القطط أو العصافير ، وكان يضحك لمن يسميه عفريتا ، ويغضب ممن يسميه لصا . لقد حرم المأوى والخبز والنار والحب ، ولكنه كان مرحا لأنه حر » .

هذا هو طفل باريس ، وهو منها بمنزلة العصفور من الغابة .

« وبباريس أطفال لا يجدون عشاء كل يوم ، ولكنهم قد يذهبون إلى المسرح كل مساء لا قميص على جسدهم ، ولا حذاء بأرجلهم ، ولا سقف فوق رؤوسهم ، فهم كذباب السماء لا يملكون من كل ذلك

شـيئا . يعيشون أسرابا . يذرعون الطرقات ، ويسكنون الفضاء ، ويرتدون بطولتنا قديمـا يخلعـه عليهم أبوهم فينزل إلى ما دون أعقابهم ، وقبعـة لأب آخر تغطى آذانهم ، وجمالة ذات فرع واحـد يعلقونها بأكتافهم . يغدون ويتربصون ، ويضيعون وقتهم ، ويدخنون ، ويقسمون أغلظ الايمـان ، ويعشون الحـانات ويعرفون اللصوص ، وما فى قلوبهم من الشر أثر لأن بهـا نؤلؤة هى النظر ، والملائى لا تذوب فى الأوحال .

« وهم يصيحون ويسبخرون ويصخبون ويتضاربون ، وعليهم خرق كالشحاذين ، وأسمال كالفلاسفة . يصيدون فى المجارى ، ويطاردون فى القمامة ، ويستخرجون المرح من الأوحال . يصرون بأضراسهم ، ويعضون بالانيـاب . يصفرون ويغنون ، يحيون ويسبون . يجدون بغير بحث ، يعرفون ما يجهلون ، هم إسبرطيون إلى حد اللصوصية ، ومجانين إلى حـد العقل ، وشـعراء إلى حـد الاسفاف ، يرقدون فوق الأولمب ، ويندسون فى الروث ويخـرجون منـه مرصعين بالنجـوم » .

ولنتبع جفروش قليـلا فى أزقة باريس وهو يبحث عن عشـائه : ها هى حديقـة يتدلى منهـا التفاح (وقـد أودت بآدم تفـاحة ، فلم لا تنجى أخرى جفروش من الموت جوعا ؟ !) ، ودون التفـاح سياج يعبره جفروش ، فاذا بـه على مقربة من زارع الحديقـة ، وزارعهـا شيخ فان . يبترق جفروش السمع إلى حواره مع زوجه العجـوز ، فاذا بهمـا فى ضيق شـديد ، وإذا بالمـالك ينذرهمـا بالطرد ، وإذا بهـذا الحـديث يذهب بمـا بقى من ألم الجوع فيتفقـد إلى جوار السياج مضجعا يأوى إليـه .

ومن خلال ذلك السياج لمح طفلتـا شبحين يتبع أحدهما الآخر ، أولهما شبح شيخ وقور ومن خلفـه شبح فتى خليع يتربص بـه ، وما هى إلا أن وثب الفتى بالشيخ فسقط إلى الأرض ، وهم جفروش ليرى ما حـدث ، فاذا بالشـيخ قـد أرغم أنف الفتى ، وانتظر

جفروش ليرى بقيـة المغـامرة ، فاذا بالشيخ ينهض الفتى آخـذا بتلابيبـه كمـا يفعل قط بفـأر ، وإذا به يعظه وعظـا طويلا يفهم منه جفروش أنه لا تستقيم الحيـاة بغير جهـد وإلا انتهت بغياهب السجون أو دماء المقاصل ، ثم يدفع الشيخ محفظة نقوده إلى اللص ويخلى سـبيله .

لم يرق جفروش ما رأى ، وإذا به يتسلل فى الظلام خلف اللص حتى يأتيـه ، واللص لا يشعر بوجوده ، ثم يضع يـده فى الجيب الذى به المحفظة ويعود بهـا حتى يقترب من موضع مضيفه الشيخ خلف السياج ، فيرمى بالمحفظة إلى الحديقـة ويعدو ملء أرجـله ، وقـد نسى جوعه ونسى مخدعه ، ولكنـه فرح معتبط بتلك البطولة الساذجة ، لأن مزاجه مزاج فنـان وما يعنيـه من بعد ذلك شىء ، وما يريد أن يعرف شـيئا من أحكام البشر . هل ما آتاه يعتبر خيرا أم شرا ؟ هـذا ما لا يعنيـه ، وما أظنـه قـد ساءل نفسـه يوما سؤالا كهـذا ، لأنه كمـا قلنـا لا يعرف للشر أو للخير معنى ، ولا يأتى أيهما عن حساب أو تقدير ، وإنمـا هى طبيعته تسوقه إلى ما يفعل وفى فعله هـذا جمـال لا شك فيـه .

لقـد يلقى فى الطرقات طفلين مشردين أصغر منـه سنا وأضعف قوى ، فيبسط عليهمـا حمايتـه ، ويقودهما إلى حيث يجـد لهمـا قليلا من الخبز ، أو يمهـد لهما مضجعا إلى ساق تمثـال نابليون ، مستعينا بمـا يسرق من أخشاب سياج حديقـة النباتات ، حتى إذا أويا إلى مضجعيهما خف فى ظلام الليـل ليساعد مجرما على الهرب من السجن ، والمجرم أبوه والطفلان أخواه ، ولكنـه لا يعـلم عن ذلك شـيئا ، ولو أنه علم لمـا تغير موقفـه ، لأنه يأتى ما يأتى لجمـال ما يفعل فى ذاته ، وما للخير أو الشر عنـده أى اعتبـار .

ويعود طفلنـا عنـد الصباح ليوقظ طفليـه اللذين يعتبر نفسـه قوامها عليهما ، ويعتزم أن يبصرهما بالحياة ، وأن يقوم على تنشئتهما ، فيقتادهما معـه وسط الطرقات ، ولكنـه يفقدهما فى ازدحام يلقاه ،

فيأسف أشد الأسف ، ولا يجد عزاء عما فقد إلا أغنية ساذجة يردد مقاطعها خلال الأرقة المظلمة .

كل تلك المغامرات قصيرة الباع ، لا تظهر ما بنفس هذا الطفل الخيرة من غنى ، وأما اليوم الذى تجلت فيه ثروته الروحية فكان يوم ثورة سنة ١٨٣٢ .

فى ذلك اليوم كان جفروش عائدا من إحدى ضواحى باريس وبيده غصن مكلل بالأزهار ، وإذا بروح الثورة تهب وإذا به من رجالها فيلقى الطفل بغصنه من يده ، ويسرع إلى مخزن أسلحة يختطف منه طبنجة واعدا بردها ، ويعدو إلى قلب باريس ، ولكنه يلاحظ أن الطبنجة بغير زناد ، فليكن ، وليعد طفلنا وسط الجموع صاخبا مهللا ، وليتغن بالمرسييز مع المتغنين ، وليخطب من حوله : « لا عليكم ! إن برجلى اليسرى ألما شديدا ، ولقد قسا بى الروماتيزم ، ولكنى مسرور أيها المواطنون ، وما على الأعيان إلا أن يستوثقوا من مواضع أقدامهم . من هم أفراد الشعب ؟ كلاب ! ليكن ، ولكن ليحترموا تلك الكلاب . آه ! ليت هنا زنادا . لقد أتيت من ظاهر المدينة حيث النار تضرم والقلوب تغلى . آه ! لقد حان الحين لنقطف زبد القدر » .

وفيما هو سائر لا يلقى رجلا إلا حثه على السير إلى القتال وإن يكن الحزن قد تسرب إلى نفسه دقيقة عندما نظر إلى سلاحه قائلا : « سأنطلق إلى المعركة وإن لم تنطلق منك رصاصة » .

وفيما هو كذلك إذا بجموع الطلبة الثائرين يمرون وعلى رأسهم زعيمهم « أنجولراس Enjolras » ، فينضم إليهم ، لأنهم يعلمون إلى أين يسيرون . خف فى مقدمتهم وسلاحه الخرب بيده ، والأغانى لا تفارق شفتيه ، حتى وصلوا إلى حانة ، قرروا أن يتخذوا منها مقرهم ، وأن يقيموا أمامها حواجزهم ويأخذ جفروش على نفسه إنجاز تلك الحواجز .

« ها هو يغدو ويروح خفيفا مرحا . ها هو يصعد وينزل ويصيح ، ويرغى ويزبد ، حتى لكأنه خلق ليبث الشجاعة فى نفوس

الجميع . عجبا ! أى باعث كان يحفزه ؟ وأى أجنحة كانت تطير به ؟ لقد كان باعثه ما عانى من بؤس ، وكانت أجنحته ما يفيض به قلبه من مرح . لقد كنت تراه بغير انقطاع « وكنت تسمع صوته فى كل لحظة . لقد كان وجوده يملأ الفضاء حتى لكأنه فى كل مكان . كنت تراه يأعلى الحواجز يدفع المتسكعين ، ويحث المتكاسلين ، ويبعث النشاط فى المتعبين ، ويقلق المتأملين . يثير فى البعض النشوة ، وفى البعض الغضب ، وفى الآخرين الجهاد ، كما يدعو الجميع إلى النشاط . يخز طالبا ، ويحض عاملا ، يقف ويسير ، ويستأنف السير متنقلا بين هؤلاء وأولئك ، يتمتم حينا . ويطن أخرى » ثم لا يقف جهده عند ذلك الحد ، بل يحاول أن يشترك فى المعركة ، فيهمى سلاحه الخرب إلى الأرض ، ويأخذ بندقية أثقل منه وزنا ، ويقدح الزناد . فإذا بالبندقية فارغة ، وإذا بوجهه يتقلب امتعاضا . ولعل هيجو لم يشأ أن يجعل منه سفاكا للدماء . ويرسله أحد الثوار بخطاب إلى فتاة ، فيطيع ، وينتهزها فرصة ليحطم بالحجارة ما يلقى من مصابيح ، وهو فى أثناء ذلك يغنى بصوته المرتفع وسط الشوارع المظلمة ، ويعثر فى أثناء سيره بعربة يد يدفعها حمال ثمل ، فيأخذها منه ويسوقها أمامه فوق الحجارة فى ضجة تسترعى انتباه رجال البوليس . فيسرعون إليه فيدفعها فى أرجلهم ، ويولى الأدبار كديكان تبدد ، ويعود إلى الحواجز ليحض المعركة الحاسمة ، فإذا بالاخوان الثوار قد نفدت ذخائرهم . يرى ذلك فيأخذ لساعته سلة يعبر بها الحواجز إلى حيث تتمدد جثث الموتى من الجند يفرغ جعبهم ، وما يزال ينسل من جثة إلى جثة ، والجند يصوبون إليه رصاصهم دون أن يصيبه أذى ، وهو يحاورهم ويداورهم ، مختفيا وراء جثة ، محتميا بمصراع باب ، وكلما رفت رصاصة بجوار أذنه غاظ من أطلقها بحك إصبعه على أنفه ، والحواجز تهتز ، وصوته لا يسكت عن الغناء ، حتى حم القضاء وأصابته رصاصة أقعدته وأندم يسيل فوق وجهه ، فرفع ذراعيه إلى السماء ، وأدار وجهه إلى

الجهة التى أنتــه منهــا الرصاصة وهو يغنى : « لقــد سقطت إلى الأرض وتلك غلطة فولتير . لقــد سقطت بالقنــاة وتلك غلطة .. » .

ولم يتم أغنيتــه ، إذ أنتــه رصاصة أخرى خر منهــا صريعــا ، وجهــه على الأرض ولا جراك بــه .

وهكذا قضت روح ذلك الطفل الكبير ، وقــد اجتمعت بنفسه قوة الثورة على الظلم إلى جوار المرح والسخرية من آلام الحيــاة .

هــذا هو جفروش كمــا تعرفــه باريس فى أطفالهــا الذين قــد لا يعرفون للأخلاق قواعــد ، ولكنهم يصدرون عمــا هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء فى النفس ، وحرارة فى القلب وإيمان فى الحياة ينشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود .

هــذا هو جفروش كمــا يعرفــه كل الفرنســيين وكل من يتكلم الفرنسية ، حيث خلدت اللغــة هــذه الشخصية الأصيلة الجذابة ، بأن أدخلتهــا بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة ، وهم يدعون الرجل « جفروش C'est un gavroche » ، كما يصفونه بتلك الروح التى صورنا « il a l'esprit gavroche » . وليس بعد ذلك دليــل على خلود هــذا الأنموذج البشرى بين ما خلق الأدب من نمــاذج .

ولكم يذكرنى جفروش هــذا بهيجو خالقــه وقــد ظــل طفــلا حتى آخر عهــده بالحيــاة ، ولكم يذكرنى برينــان الذى قال عنــه أحــد النقاد فأصاب القول : « إنه كان يفكر كرجل ويحس كامرأة ، ويتصرف كطفــل » . وهكذا شــأن كل من تميز بين البشر ، فمما يجــوز أن نخضعهم لأحكامنا الوضعية المتواضعة . ولحياتهم منطق لا يفهمــه إلا من يضارعهم . وأما نحن فلنخضع لمــا تملى علينــا الجمــاعات التى ننتمى إليهــا ، وإن كان لنــا أن نحــذر أحــدا فليكن ذلك الحــذر ممن يتشدقون بكلمــات الخير والحق ونفوسهم أصغر من أن تحوى معــانى تلك الألفــاظ الجميــلة .

فيجـــارو
Figaro

لست أدرى إلى أى حـد يصح ذلك الرأى السائد عند المفكرين من اعتبـار السخرية قفزات من الذكاء لا تمت إلى القلب بصـلة ، ولكم من مرة لا يجـد المرء سـبيلا إلى الانتقـام من آلام الحياة غير ابتسـامة ساخرة أو حكم ضاحك ، ولكم من مرة اهتزت النفس انفعالا من حركة لـ « تشبلن » أو قهقهـة منـه ! ومن عجب أن يضحك المرء ويحزن ! ومن عجب أن يفتر الفـم وينقبض القـلب ! وفيجارو كتشبلن من أولئك الذين تحمل ضحكاتهم فيضا من الأسى يكاد يلهب منـا القلوب .

فيجارو من رجال سـنة ١٧٨٠ الذين مهـدوا للثورة الفرنسية ، وقـد خلقه مؤلفـه فى زمن كان الفلاسـفة قـد أيقظوا فى الشعب ذلك الاحساس بالبؤس الذى حررهم من كل ظلم ، وأخـذت الثورة تضطرم فى قلوب الرجال ، وكان لا بـد لهـا من متنفس . وكيف السـبيل والبستيل لهم بالمرصـاد ، والفرنسى رجـل حامى الطبع لا يطيق صبرا على ضيم ، وهو من يقظة النفس بحيث لا يستطيع أن يمسك لسـانه من الحكم على ما يرى من فسـاد ، ويرجو من خير ، وإذا فلتكن السخرية سـبيله ، ينفث فيهـا مكنون نفسـه ، فينـال ما يريد دون أن يتعرض لهـلاك محقق .

سخرية فيجارو إذا ليست دليل جفاف فى نفسـه ، وإنمـا هى انتقـام هو من نظـام بلغ من فسـاده أن كان الشعب يسعى إلى هـدمه دون أن يفكر فيمـا يريد أن يقيم على أنقـاضه من نظام ، وعنـدما يلجم الظلم ألسنة الرجال لا يجـد ذوو الإباء منهم سبيلا غير تلك السـخرية التى لا تعرف سـلاحا أمضى منهـا بين أيدى الشخصيات القوية .

وفيجارو شخصية نادرة المثال فى إيائها • ولنستمع له وهو الخادم يخاطب سيده :

السيد — أيها الكسول المخبول •

فيجارو — سيدى ! دعنا نحصى الفضائل التى تطلب من خادم ولننظر بعد ذلك • ألا يعرف سيدى أسيادا كثيرين جديرين بأن يكونوا خدما •

هذا هو فيجارو يرتدى ملابس الخدم ونفسه أعز من نفس الأسياد • وما ولد فيجارو خادما ، ولقد ثقلت به أحداث الحياة ، ولو أنه أراد لوصل إلى ما وصل إليه جيل بلاس «Gil Blas» (١) من قبل ، ولكنه أبى النفس ، يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم ، أو رفعهم حمقى البشر فوق ما كان يجب أن يبقيهم اتضاع نفوسهم •

ولد فيجارو ابنا طبيبيا لطبيب وخادمته ، وتخلى عنه آباؤه وسط أمواج الحياة « فزاول الطفل كل المهن احتيالا على الحياة الغشوم ، وبخاصة مهنة « الحلاقة » وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاقى الأرض يحطون اليوم ذلك الاسم • ولقيه المؤلف بومارشيه (Beaumarchais) وقد سئم مهنته ، وهنئ ذلك اليوم أحبه فصاحب خطاه فى الحياة وقص عليه نبأه فى روايات مسرحية ثلاث : « حلاق اشبيليه » و « زواج فيجارو » و « الأم الجانية » • وقد مثلت الروايات الثلاث تباعا فى سنى ١٧٧٥ و ١٧٨٤ و ١٧٩٠ ، ومرت السنون وفيجارو يجالد الحياة ، وهو هو ذلك المرح الصاخب الذى يلتمس فى كل ألم جانبه المضحك • وانصرمت الأيام وكل ما فيها من ألم لا يستطيع أن يخلف فى نفسه غير ابتسامة هادئة • وأما الغد فما كان يعنى بأمره • وما له من

---

(١) بطل رواية من تأليف لوساج Lesage وصل الى السلطة بمرونته بل بوضاعته بادئا من العدم •

سلاح غير تلك السخرية يرسلها سهاما لن يمسه بسوء فيبلغ ما يريد من خصمه دون أن يترك جراحا ظاهرة .

ها هو « حلاق أشبيليه » يقفز إلى المسرح وكأنما يغلو منبرا ، وها نحن نراه أول ما يبدو في أحد شوارع أشبيليه وقد علق في ظهره قيثارته بشريط عريض من الحرير . وها هو يوهم نفسه أنه قادر على كتابة أغنية يشيد فيها بالخمر والكسل اللذين يقتسمان قلبه ، وها هو يعثر مصادفة بالكونت المافيفا أحد زبائنه القدماء فيقص عليه ما كان له من أحداث كصبي بصيدلية ، وكممثل مسرحي ، فيسأله الكونت : لماذا ترك مدريد ؟

فيجارو : هو طالعي السعيد — يا مولاي — قادني إلى حيث ألقاك ، لقد رأيت في مدريد جمهور الأدباء ، وقد أصبح بعضهم لبعض ذئبا ضاريا ، فسئمت الكتابة ، وملت نفسي وضقت ذرعا بالآخرين ، وقد ثقلت ديوني وخف جيبي فاستقر رأيي على أن دخل « الموسى » أجدى علي من مجد باطل أصيبه بقلمي . وتركت مدريد لأجوب متأملا قشتالة والمانش والأندلس ، يرحب بي قوم ويزج بي في السجن آخرون ، ونفسي أينما حللت تحلق فوق أحداث الحياة ، يلومني قوم ويمتدحني قوم ، أنعم بما أصيب من خير وأصبر على ما ينزل بي من محن ، ساخرا من الحمقى مناضلا الأشرار ، أضحك من بؤسي وأقص ذقن كل من ألقى ، حتى استقر رأيي على المسير إلى اشبيليه ، حيث أنا الآن على أتم أهبة لأن أخدم مولاي فيما يسره أن يأمرني به .

الكونت — ومن أين لك بتلك الفلسفة الباسمة ؟

فيجارو — من مصاحبة البؤس يا مولاي . تراني أسارع إلى الضحك من كل شيء خشية أن تساقط مني الدموع .

واستعان الكونت بمواهب فيجارو ليصل إلى ما يريد من الزواج « بروزين » ، وكانت روزين بنتا جميلة تبناها شيخ فان ، وكان الشيخ يغار عليها كما يغار من ملابسه . وفيجارو « حلاق

صحة » أشبيليه ، فالسبيل أمامه ممهدة ليحمل إلى روزين رسائل الكونت ، وفيجارو واسع الحيلة يستطيع أن يسخر من الشيخ ومن الخدم ، وأن يحضر المأذون ويعقد الزواج ، وقد أصبح الكل العوبة في يده يسخر منهم ويضحك الحاضرين ما اتسعت أشداقهم لضحك ، وهو في كل ذلك كنسمات الريح تحس بها ولكن لا تستطيع لها لمسا . وإنه لأهون ، على من يريد ، أن يمسك بنغمة من قيثارة فيجارو من أن يمسك بالرجل ، وما لشخصه من وجود محس أكثر مما لأغانيه التي تشيع في الفضاء . تراه في المنزل وما تدري من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة — تحسبه بالداخل بينما هو في الخارج . أليس هو فيجارو مضرب المثل في الخفة والمهارة ! أليس هو فيجارو الذي يعرف كيف يستفيد لا من أغلاطه هو فحسب بل ومن أغلاط الآخرين ؟ وهل يضيف من نفوسنا غير الألم ، وهل يحد من حيلتنا غير الهموم التي لا نعرف كيف نسخر منها ؟ !

وجازى الكونت فيجارو على ما أسدى إليه من يد ، فأخذه خادما له . ويعود بطلنا إلى الظهور على المسرح في « زواج فيجارو » ، وقد صمم على الزواج من « سوزان » خادمة الكونت ، وكانت الوقاحة في ذلك الحين قد بلغت بالأشراف مبلغا ما كان فيجارو ليستطيع معه صبرا . كانوا يدعون لأنفسهم حق قضاء أول ليلة مع عرائس أتباعهم ، ومن يريدون من خدمهم ، وكانت سوزان من الجمال بحيث أغرت الكونت باستعمال هذا الحق . وجن جنون فيجارو ، فلاقى وقاحة الكونت بوقاحة ، وثار كل ما في نفسه من جرارة ، وأخص بالطعنة توجه إلى صميم قلبه وقد اكتملت قواه بمرور الأيام ، فما له لا يستخدم السخرية التي لم تخنه يوما ما ؟

وتحركت بنفس زوجة الكونت تلك القوة الهائلة ، قوة الغيرة التي تكسب النساء جرأة ما لها من دافع ، واتفقت الزوجة مع

خادمتهـا على أن تتنكرا ، كل فى زى الأخرى ، وأن تذهب الزوجة فى زى سـوزان للقـاء الكونت فى المكان والزمن المتفق عليهمـا ، وفيجارو فى أثناء ذلك لا ينى عن السخرية والضحك وتدبير الخطط ، حتى يوقظ شكوك الكونت .

الكونت — لمـاذا يلوح على كل ما تفعل شىء من الالتواء ؟

فيجارو — لأن من يلتمس عيوبا عنـد الغير يستطيع دائمـا أن يجـد ما يريد .

الكونت — وسمعتك التى لا تساوى شيئا ؟

فيجارو — ولكنى أساوى أكثر من سمعتى ؟ وهل يعرف مولاى كثيرين من الأشراف ممن يستطيعون أن يدعوا ما أدعى الآن ؟

الكونت — كثيرا ما رأيتك تسير نحو النجاح فى الحيـاة ، ولكنـك لا تسير أبدا فى طريق مستقيم !

فيجارو — وما ذنبى ، والطرق دائمـا مكتظة ؟ ! هـذا يعـدو ، وذاك يدفع ، يسقط من يسقط ويصل من يصل ، إننى لفى غنى عن هـذا الزحـام .

الـكونت — بشىء من الذكاء والخلق تستطيـع أن « تترقى فى الدواوين » .

فيجارو — شىء من الذكاء لأترقى ؟ لا شك يا مولاى أنك تسخر بكلامك هـذا من ذكائى . إنمـا الترقى بالغباوة والزحف !

وهكذا يظل فيجارو يحاور الكونت ويداوره ، كمـا يحاور ويداور كل من يلقى حتى يكون يوم زواجـه ، ويخيل إليـه وقتـا ما أن عروسه قـد ذهبت للقـاء الكونت ، فتختفى الابتسامة من شـفتيه ويتقطب جبينـه ، وقلوب الحـاضرين تحوطه جميعـا بحرارتهـا وعطفهـا .

ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظلام الليـل ، وها هو فيجارو وحيـدا مجهـدا ، يقص علينـا آلامه ويشكو ظلم الحيـاة بعـد أن نفـد صبره ، وأصابت السهام شـغاف قلبـه ، ها هو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التى يحب .

« لا . لا يا سيدى الكونت . لأنك سيد كبير تحسب أنك عبقرية فذة ؟ المولد والثراء والوجاهة الاجتماعية — كل هذا يعرى بالخبرياء . ولكن ماذا فعلت لتنال كل تلك الخيرات ؟ لقد قاسيت آلام الولادة ! أليس ذلك كل ما فعلت ؟ وأما أنا فياويل القضاء فيما فعل بى ! ولدت لأب لا أعرفه ، واختطفنى لصوص ، نشأت على ما ألقوا من خلق حتى سئمت الحياة معهم ، وحاولت ان أجد لى مهنة شريفة ، وطرقت كل باب ، وكل الأبواب موصدة امامى . لم يستطع الناس احتقار الذكاء ، فانتقموا بعجزهم بالاساءة إلى من وهب ذلك الذكاء .... وزج بى فى السجن حتى منوا إطعام رجل مغمور مثلى ، فالقوا بى إلى الشارع وكاد اليأس يأتى على . ثم وجدت مركزا خاليا ، كأن المطلوب كاتب حسابات فتقدمت إليه ، ولكنهم أعطوه لرقاص . فلم يبق لى إلا أن أسرق ، ولكن كيف السبيل وكل من حولى يسرق ما استطاع ؟ ولكنهم يطلبون إلى أن أكون أمينا ، وإذا فليس لى إلا أن أموت جوعا ... وأخيرا أخذت حقيبتى ومواسى ، وخلفت الدخان ورائى يتغذى به الحمقى ، وأما الخجل فقد طرحته فى منتصف الطريق ، لأنه أثقل من أن يحمله من يمشى على قدميه ، وسرت أحلق من بلد إلى بلد ، وقد استطعت أخيرا أن أتخلص من هموم الحياة المادية ؛

« لقد دفعت إلى الحياة بغير علم منى ، وسأغادرها دون أن أريد ، ولكنى نثرت على جوانب ما سلكت من سبلها الوعرة كل ما استطاع مرحى من أزهار » .

وحزن الحاضرون لحزن فيجارو ، ولكن الموقف لا يليث أن ينجلى ، فاذا زوجة الكونت هى التى ذهبت لتقاء زوجها . وأما سوزان عروس فيجارو فتخف إلى زوجها ، والكل مغتبط بانتقام ذكاء فيجارو من وقاحة الكونت .

وتصفو النفوس ، ويظل فيجارو فى خدمة الكونت هو وسوزان ، وتتقدم بفيجارو السن ، ويخلص لعائلة سيده

فى « الأم الجانية » وينجى تلك العائلة من العار . ولكنه لم يعد فيجارو كما عهدناه ، لم يعد رمز ذلك الشعب الأبى الذى ثار على الظلم وأبى أن يستسلم لوقاحة أولئك الأشراف المجرمين ، لم يعد ذلك الشجاع الساخر الذى يجالد الألم ويصمد لكل بؤس ، لم يعد بعد مونتسكيو ورسو وديديدرو وفولتير وغيرهم ممن قوضوا بالسخرية النزعة نظاما كان لا بد من زواله ، ليستطيع من وهبهم الله حيرة فى قلوبهم ، وذكاء فى رؤوسهم من أبناء الشعب ، أن يعيشوا فى جو حر أبى لا تستقيم الحياة بدونه .

ولهذا نقف من تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه فى ذهن القارىء مثلا حيا لبلغ ما يستطيع أن يسمو إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة التى حكم القضاء أن يعيش فيها .

فيجارو أنموذج بشرى خالد لأبناء الشعب الذين لا يطامن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح ، فان لم يكن العنف فلتكن السخرية .

فيجارو رمز ثورة مجيدة ، حررت البشر من قيوده ، وفتحت أمامهم آفاقا من الحرية واحترام الانسان لأخيه الانسان ، لا نزال إلى اليوم نلمح فى جوانبها أجمل الأحلام .

لقد فعل فيجارو فى الثورة الفرنسية ما لم يفعله الحديد والنار ، وتلك أسلحة الأيدى أما فيجارو فكان ولا يزال سلاح النفوس .

فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التى لا تدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذى لا يريد أن يستجدى أحدا ، وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوما ما ، ذلك الشعب الذى يشكو من نظام فاسد لا بد أن يقيم على أنقاضه نظاما أصلح .

دون كيشوت
Don Quichote

يحكى أنه كان ببلاد اليونان عملاق جبار اسمه « أنتيه » لم يستطع بطل من الأبطال أن يثبت له فى نزال ، حتى ضجت الانسانية من بطشه ، وحتى ضرع أنبطل المشهور هرقل إلى أبيه زيس كبير الآلهة أن يدله على وسيلة يقهر بها ذلك المارد المخيف ، واستجاب زيس لضراعة ولده ، فكشف له عن مصدر قوة « أنتيه » ، قال : « أى ولدى هرقل ، إن أنتيه ابن لـ « جيبة » (الأرض) ، فما دامت قدماه مستوثقتين منها ، فلن يقهره أحد ، لأنها تمده بقوتها فما عليك إن أردت قتله إلا أن ترفعه عن الأرض ثم تجهز عليه » • ورفع هرقل « أنتيه » بيده ، وأطاح برأسه باليد الأخرى ، فتخلصت الانسانية من شروره ، وهكذا نحن فى الحياة ، لا بد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحا وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم وأن يلابس الواقع عن قرب • وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم ، فمثلهم لنكد الطالع كمثل انتيه وقد رفع إلى الفضاء ، ما تلبث السيوف أن تذهب برءوسهم •

عن مغزى تلك الأسطورة القاسية تمخضت حياة سرفنتيس الكاتب الأسبانى الذائع الصيت ، خالق دون كيشوت (١٥٤٦ — ١٦١٦) • فقد امتلأ خياله منذ طفولته ، كما امتلأ خيال دون كيشوت بكل ما قرأ فى قصص الفروسية ، حتى لم تعد أحلامه إلا سحرا ومعارك ، وتحديا وقتالا ، وجروحا وصيحات غرام وعذاب ، وما إلى ذلك من خوارق الأمور ، وتمكنت تلك الأحلام من نفسه حتى نزلت منها منزلة الحقائق الثابتة ، وحتى لم يعد تاريخ العالم فى نظره سوى

سلسلة من تلك المغامرات • ولكم قعقعت أسلحة « رولان » بمفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع « بربروس » الرعب على صفحات المياه ! فما له لا يغامر كما غامروا وما له لا يلتمس المجد بحد السيف كما التمسه من قبل أبطال ؟

وشاءت الأقدار أن يفشل سرفنتيس فى كل مراحل حياته • حارب فى البر والبحر من أجل أسبانيا ومن أجل المسيحية • حارب بايطاليا وتونس والبرتغال • وفى سنة ١٥٧١ شهد تلك المعركة الدامية التى شهدها المسيحيون ضد الأتراك فى « ليبانت » بمضيق كورنثا بأرض اليونان وخرج من القتال وبصدره طعنتان داميتان ، وذراعه اليسرى مشدودة إلى عنقه ، وأقعدته الحمى سبعة أشهر بصقلية ، حتى إذا أبل من مرضه ، واستقل سفينة ليعود إلى وطنه ، سقط بين أيدى قراصنة البحر يقودونه إلى الجزائر حيث يظل أسيرا أربعة أعوام • واخيرا ساقت إليه الأقدار من بنى وطنه من افتداه بثمن غال • وعاد إلى أسبانيا ، ولكن البؤس لم يفارقه ، فكم من محاكمة ! وكم من أيام قضاها بالسجن لذنب ولغير ذنب ! وحتى مجد القلم لم يستطع أن يناله ، فرواياته التمثيلية لم تصب ما أمل من نجاح ، وشعره الغنائى لم يلق آذانا مصغية •

لقد كان من حق سرفنتيس أن يتنكر للحياة ، وأن يعود من أحلام صباه ليستوثق من الأرض بقدم ، وقد ألقت محن الأيام فى نفسه بذور الشك ، فاستحالت آلامه سخرية من آماله التى طوحت به فى كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة • ومن منا لا يحس فى نفسه بتلك الحقيقة الانسانية اللاذعة ، وهى أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ، ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ، ونرفق بها ، كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا •

دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعل فى النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك

الآمال العذاب التى يقوم عليها صبانا كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها على ان يخمد . ولقد تنقطع أوتار القيثارة ، فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رمادا مقدسا ، ولا بد للإلحان من رجع في النفس تحن إليه كلما عدت بها الذكرى من ثنايا الماضى الجميل .

وهل أدل على نبل أحلام الشباب وسحر جمالها من ان تتحطم فى نفس صاحبها فيسخر منها ، وإذا بتلك السخرية الرفيقة الحزينة تأتى بأروع تحقيق لتلك الأحلام ؟ لقد كان سرفنتيس يبغى المجد بحد السيف أو بسنان القلم . فخانته الأقدار وخيل إليه أن تلك الآمال لم تكن إلا نزقا مضحكا ، فاتخذ من دون كيشوت رمزا لشبابه ، وقص له ما كان له من مغامرات جنونية ، فأصاب دون كيشوت الخلود ، وأصبح اسم سرفنتيس على ألسنة الانسانية أنى ذهبت : يقرؤه الأطفال فيلهون بما فيه من قصص ممتع ، ويقرؤه الرجال فتفتر شفاههم وتنقبض قلوبهم لما خلف هذا العبث الظاهر من مآس ، وحتى الشيوخ تراهم يجمعون الأطفال من حولهم ليقصوا عليهم نبأ ذلك الفارس الجوال الذى لم يفرغ البشر من فهمه وتخريج أفعاله وأقواله كل مخرج . وقد بلغ من غنى تلك الشخصية أن أصبح دون كيشوت رمزا لكل معنى : فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خبله أنه موكل بالآم البشر يحاول لها إصلاحا ، فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب فى غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه وعنى وجهه فهم الشباب الذين يحسون بفيض من الحياة : أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه ، لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها ، ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ وأما

سرفنتيس فيكفيه مجدا آلا يرى اليوم طفل أو شاب أو شيخ حضانا هزيلا محطما إلا صاح : آه ! روسنانت • وروسنانت حصان دون كيشوت الذى رفعه بطلنا من مرتبة خيل الفلاحة إلى درجة جياد الفرسان عندما انعقد عزمه — أو جنونه إن أردت — على أن يجوب بقاع الأرض ليصلح ما بها من شرور •

وذلك أن دون كيشوت لم يكن فى بادىء حياته ذلك الفارس الجوال الذى خلقه سرفنتيس فى عقولنا • لقد نشأ سرفنتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا • نشأ فلاحا متواضعا إلى أن حفزته قراءة قصص الفروسية إلى أن يحيى عهد هؤلاء الأبطال • ولقد كانت للفروسية إذ ذاك مواضعاتها • فلا بد للفارس من أساحة ، ولا بد له من جواد كريم ، حتى إذا اجتمعا له طلب إلى أحد الفرسان القدماء ان يقيمه فارسا فى حفل سنقص مراحله عما قريب ، والفارس لا يحيا لنفسه ، ولا يجد ما يحفزه على البطولة خيرا من فتاة يجعلها مستقر حماسته ومعبد أفكاره • فكيف السبيل إلى كل ذلك ؟ الأمر هين : بحث دون كيشوت فى زوايا منزله المتواضع ، فعثر لحسن الطالع على أسلحة قديمة بمخزن غلاله ، فاستلها منه ، وأصلح ما بها من عيوب ، وآزال ما علاها من صدأ • وأما الجواد فأمره أهون ، وقد بلغت حكمة هذا الفارس المجنون أن فطنت إلى أن حقيقة الأشياء كثيرا ما تقف عند مسمياتها وإذا فليعط حصانه اسما جميلا نبيلا ، فاذا به « روسنانت » الجواد الكريم ، وأى جواد حمل اسما أجمل من هذا ؟ روسنانت ؟ وهب أن الاسم لا يلاقى المسمى ، فما على دون كيشوت من ذلك وأغلب قيم الحياة مواضعات لانفهم من حقائقها شيئا ! وأما الفتاة وما يجب أن يتوفر لها من نبل فى المحتد وسحر فى الجمال فالأمر عنده لا يعدو مجرد إيمان من يحب بما تخيل إليه نفسه المعطوف من قيم بمحبوبته ، وإذا فليتخذ دون كيشوت له فتاة ريفية ساذجة لم يرها فى حياته

قط ، وليعطها اسما من أسماء الأميرات ، وليشد بجمالها وبذلها أينما حل . لتكن فتاته « دولسينيه دى توبوزو » . ولاح أن فى هذا الاسم من جمال الجرس وندرة الوقع وجلال المعنى ما يتفق مع اسمه هو « دون كيشوت فارس المانش » ،

ها هو دون كيشوت مسلحا على ظهر روسنانت جواده الكريم ، وها هو ما يستانف شنوطه فى الحياة « ولتكن اولى مغامراته حفل تنصيبه فارسا . سار فى يومه الأول حتى انتهى إلى فندق بالريف ، خيل إليه أنه قصر منيف ، فاتجه إلى صاحبه ، وأخذ يخاطبه كشريف يخاطب شريفا ، وكان صاحب الفندق من الخبث — رغم بلادة حسه — بحيث قبل منه أن يقيمه فارسا ، وأدخله إلى فناء فندقه ، حيث أمضى المسكين دون كيشوت ليله قائما إلى جوار أسلحته التى عقدها فى حزمة إلى حافة بئر هنالك ، حتى إذا أتى الصباح أتاه صاحب الفندق ، وبيده « دفتر حساباته » ، وتظاهر بأنه يقرأ فيه صيغة الفروسية ، ثم ضربه بمسطح سيفه ، وصاح به أن اذهب فأنت فارس .

خرج دون كيشوت من الفندق فارسا أصيلا ، وبقلبه إيمان ثابت بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو إصلاح ما فى العالم من شرور . ولم يكد يخطو خطوات حتى رأى فلاحا قد شد خادمه إلى شجرة ، وأخذ يوجعه ضربا لأنه طالب بأجره . أثار هذا المنظر شهامة دون كيشوت ، فخف إلى الرجل وأرغمه على أن يفك وثاق الخادم ، وأخذ عليه عهدا ألا يعود إلى ما ارتكب من ظلم ، ولكنه لم يكد يمتطى « روسنانت » ويواصل سيره حتى عاد الفلاح فشد وثاق الخادم وعاد الظلم إلى مجراه . وهذا مثل مما أوهم به دون كيشوت نفسه من إمكان رفع الظلم عن المظلومين .

وباليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولم يمتد الأذى إلى شخص دون كيشوت نفسه ، فلكم جرت عليه أعماله شرا مستطيرا . لقد كان من واجبه — على الأقل فى نظره هو — أن

يدافع عن فتـــاته ، وأن يحمل كل من يلقى من فرسان على الاقرار بأنهـــا أجمل وأنبـــل من تقـــل الأرض ، وإلا فكيف يقبل أن يكون فى الوجود فتـــاة خيرا من فتـــاته ؟ وفعلا لم يلبث أن لقى جمـــاعة من التجار فى طريقـــه ومن خلفهم خدمهم ، فحسبهم لجنونه فرسانا جوالين مثـــله ، فاستوقفهم ، وتحداهم ان يدلوه على فتـــاة أجمل من « دولسينيه » . فقـــال أحدهم : « أيهـــا الفارس الكريم ؟ لسنا نعرف دولسينيه فتـــاتك تلك . أرنا إياها فان وجدناها على ما تزعم من جمال حكمنا لك بما تريد » . فأجاب دون كيشوت : « وأى فضل يكون لكم ، وكل ما ستفطونه عنـــدئذ سيكون الاعتراف بالحقيقـــة الراهنـــة ؟ إنمـــا المهم هو أن تشهدوا بهـــذه الحقيقة دون رؤيتها وأن تعلنوا تلك الحقيقه ، وأن تقسموا بإيمانكم بهـــا ، وأن تدافعوا عنها ضـــد كل إنسان » . هكذا أراد دون كيشوت ولكنه لم يستطع حمـــل هؤلاء الرجـــال على ما أراد ، فهجم عليهم « بروسنانت » ، وزلت قـــدم الجواد فسقط الفـــارس على الأرض ، وأشبعه أحـــد الخـــدم ضربا ، وبقى دون كيشوت على الأرض متعثرا بأســـلحته لا يقوى على النهوض ، حتى خف إليه أحـــد الفلاحين من معارفه ، فأنهضه وقـــاده فى حالة يرثى لهـــا إلى منزله ، حيث لزم الفراش أياما يداوى جراحه .

رأته مربيتـــه وبنت أخته وأصدقاؤه القسيس والحلاق على هـــذه الحـــالة ، فقرروا لساعتهم أنه لا بـــد من إحراق قصص الفروسية الموجودة بمكتبـــة دون كيشوت ، لأنهـــا هى التى أضلت عقـــله وأصابتـــه بهـــذا المرض العضال ، وهم يظنون أنهم بعملهم هـــذا سيشفون دون كيشوت من هـــذا الداء شفاء لا نكسة بعـــده ، ولكن أنى لهم بأن يلزموا هـــذا الفارس الجامح حيـــاة مغلقـــة الآفاق مبتذلة الأحداث ؟ لا . لا بـــد لدون كيشوت من الرحيل من جديد ، ولكنـــه سيحتاط للأمر هـــذه المرة فيأخـــذ معـــه مالا وتابعا يسير وراءه أينمـــا يذهب . واختـــار دون كيشوت تابعـــا له فـــلاحا من

جبرانه لا يقل عن البطل شهرة ، ومن يجهل « سانكوبانشا » ؟ وقبل سانكو أن يصاحب فارسنا لصداقته له ولأنه كان رجلا طلعة بطبعه ، ثم لأن دون كيشوت وعده بأن يعطيه جزيرة ليحكمها بمجرد أن يكون الامبراطورية التى يأمل أن يخضعها لسلطانه .

واستأنف دون كيشوت السير ومن خلفه سانكو ، وبين الرجلين من التناقض ما بين الجنون والعقل فى عرفنا . فعندما يغرق دون كيشوت فى أحلامه ، نرى سانكو يملأ بطنه أو يربط حلقه ، وبينما يسهر دون كيشوت الليل الطويل يناجى دولسينيه ، نسمع سانكو يغط ما استطاع غطيطا ، ولكنه لا يخلو الأمر ، إذا ما سقط دون كيشوت عن ظهر روسنانت وأشبع ضربا ، من أن تصيب سانكو بعض لكزات ، إذ أن محاولاته الفرار لم تكن دائما منتجة ، فكثيرا ما كان يلحق به ، وربما تخلف عن سيده قليلا فسقط بين أيدى من لا يرحم له موجعة .

ولكم كان بودى لو استطعت أن أقص على القارىء شيئا من حوارهما ، ليستبين موضع الحكمة من كلام هذا المجنون ، وموضع الجنون من كلام هذا العاقل ، أو العكس ، ولكن أنى لى بذلك ! وأى جدوى من سرد مآس تضحك منها الشفاه وفى القلوب أسى عميق ؟ ثم من منا لا يذكر طواحين الهواء التى حسبها دون كيشوت عمالقة فانقض عليها بجواده فألقته أذرعها إلى الأرض محطم الأضلاع . ألا يرى معى القارىء كيف بلغ من بؤس هذه النفس الخيرة أن أخذت تضرب فى غير مضرب ؟ وكم يكون أسف القارىء لو أخبرته أنه اتفق يوما لدون كيشوت أن قابل دون مسجونين حتى أطلق أيديهم من الأغلال ، ثم طلب إليهم أن يذهبوا — إلى « دولسينيه » ليقدموا إليها « واجبات الاحترام » ، فرفضوا ، بل وضربوا دون كيشوت ضربا مبرحا .

حدث كل هذا لدون كيشوت وأمر منه ، فكم عجز عن رفع ظلم لفساد نفوس البشر ، وكم لاقى عن شهامته أسوأ الجزاء ،

بين دم أفضل أقضاء ضربانه فضاعت عبثا — حدث كل هذا مما لا أريد ان أحزن به القارىء ، ولكني لا أملك أن أمسك القلم عن ذكر ما كان من نزول دون كيشوت وسانكو بأحد الأشراف الحقيقيين ، وكيف ان هذا الشريف أعطى سانكو بالفعل ضيعة من ضياعه ليحكمها هو هما إياه انها الجزيرة التي وعده بها سيده . ويودي لو امعن القارىء في النصائح الثمينة التي زود بها دون كيشوت إذ ذاك سانكو ، فقد أوصاه قائلا :

« اي بني ، اوصيك بتقوى الله ، فتقواه رأس الحكمة ومادمت حكيما يصحبك التوفيق في كل امر . ثم اذكر دائما نشأتك الأولى لكي تفهم نفسك على حقيقتها ، وهذا الفهم هو أشق وأنبل ما يجب ان تتطلع إليه . احذر نزوات نفسك ، ولتحرك فيك دموع الضعفاء رحمة لا تقل عما تحرك شكوى الأقوياء من عدل . حاول أن تعثر على الحقيقة في ثنايا ما يعدك به الأغنياء من وعود ، وما يقدمون لك من عطايا ، قدر حرصك على التماسها في زفرات الفقراء وإلحاحهم الممل .

« اذكر دائما أن طبيعة البشر فاسدة ، وأن الكثير من آثامهم إنما مرده هذا الفساد الأصيل . فعندئذ لن تقسو على مجرم » .

يا له من جنون ذلك العقل الذي يفوه بتلك الحكم !

وأما « سانكو » فلم يطل حكمه . وكيف له — وهو الرجل الواقعي العاقل — أن يزج بنفسه فيما لم تهيئه له الأقدار ؟ لطالما طلب إلى دون كيشوت أن يحد من طموحه ، وأن يتخلى عن أوهامه ، فكيف له الآن أن يقيم نفسه — وهو الفلاح البسيط — حاكما على العباد ؟ أليس من الخير أن يقنع بما خلق له . أليس من العقل أن يتخلى عن جزيرته الموهومة ليعود إلى جوار سيده ؟ أليس سانكو على النقيض من دون كيشوت ؟ أليس هو العقل نفسه إن صح أن دون كيشوت هو الجنون المطبق ؟ وبالفعل تخلى سانكو عن جزيرته الموهومة ليعود إلى مصاحبة دون كيشوت . ومن عجب أن يحرص العقل على مصاحبة الجنون كل هذا الحرص !

واستعر دون كيشوت فى مغامراته . وكل فشل يغريه بمغامرة جديدة ، وعزمه ثابت لا ينال منه شىء ، حتى كان يوم انهزم فيه بمعركة دارت بينه وبين فارس اخر . وعز عليه أن يهزم كرجل ضد رجل ، ونالت الاحزان من نفسه فخر مريضا ، ولازمته الحمى عاما كملا ، خرج منه وقد عاد إليه عقله . وبودنا لو امتدت به الحياة ليقص علينا ما هداه إليه جنونه من دروس . ولكن الموت لم يلبث ان واتاه ، وكانه قد ناء بحمل عقله ، او كانه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسى : « نحن امواج إن تستريح تمت » .

مات دون كيشوت بعد كفاح تعزى بنبل غايته عن كل المآسى ، وذنى به لم يستطع عزاء عن تلك الأحلام الجميلة التى تهدمت بتهدمها حياته . مات فتلقى الموت كما يتلقى محب ابتسام حبيبته او شهيد وجه ربه . مات بعد أن علم أن القتال لخير البشر قتال مع طواحين هواء . مات بعد ان فشلت جهوده ولم تعد لديه القدرة على استئناف حياة بليدة رتيبة كالتى يحياها ملايين البشر من الخاملين .

مات هذا المجنون . ولعله « كالسست » موليير و « مغفل » دوستيوفسكى من أولئك الذين لا نضحك منهم ولا نرميهم بالجنون إلا لقصور فى عقولنا وفساد فى طبائعنا . وهذا العالم الجميل الذى صبت إليه تلك النفوس النادرة ، لعله العالم الحقيقى ، العالم الذى يجب أن يحيا فيه البشر إن أرادوا رفع قلوبهم إلى المثل الأعلى .

مات دون كيشوت فى كتاب سرفنتيس ، ولكنه بقى فى عقول جميع الأجيال التى عبرت الحياة ، أو التى ستعبرها رمزا لما فى نفوس الشباب الخيرة من التماس الخير والفناء فى سبيله ، رمزا لما قد تقود حماسة القلوب إليه ، مما يسميه الحمقى جنونا . مات وظلت حياته درسا خالدا لما فى الجهاد فى سبيل المثل الأعلى من نبل يكتفى به عن كل النتائج .

فوست
Faust

(١)

« تسألوننى : أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لى أن أعرفها ؟ ثم أنى لى بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء ! هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن فى فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى ما زال وهو فى حمأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك — ما يثير الكثير من وقائع حياته ، ولكن هذه ليست الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، بل ولا فى أى جزء من أجزائها تأخذه على انفراد . أى نجاح كنت أصيب لو أننى حاولت أن تنتظم تلك الحياة الغنية النزعات المتنوعة الأحداث فكرة واحدة كما يجتمع العقد إلى نظامه ! ولكنه ليس لى كشاعر أن أجسم فكرة مجردة . لقد أودعت نفسى كل ما تلقيت من احساسات ، إحساسات عديدة حية متنوعة ، وأتانى بها خيال دائم اليقظة ، فتناولتها كشاعر بالصياغة والصقل ، ثم أسلمتها القارىء صورا نابضة الألوان أرجو أن تثير فيه ما أحسست » .

هكذا يحدث جيته صديقه إيكرمان عن فوست ، وعلى ضوء هذا الحديث نستطيع أن ننفذ بعض الشىء إلى أسرار تلك الشخصية العجيبة التى رافقت جيته خمسين عاما من حياته ، يصور بعض نواحيها حينا ، ثم يتركها ليعاودها بعد زمن ، وهو فى كل يوم يفيد جديدا يضفيه على رجله الذى اتخذ منه رمزا لمأساة النفس البشرية ، تجالد الحياة لتنتزع منها سرها الكامن ، فتطمئن إلى يقين وتفلت من حيرة أبدية .

على أن جيتـه لـم يخلـق هـوست من العـدم ، فقـد ألفت القـرون الوسطى تلك الشخصية : شخصيـة الرجـل يهب إبليس روحـه على أن يـكشف له عمـا يجهـل من سر وأن يمكنه ممـا تصبو إليـه نفسـه من لذة ، فينـال من الحياة ما يعـز على عامة النـاس ، ولـكم آمن رجال ذاك العهـد بالسحـرة وعصيهـم وحيلهم مما تغص به آدابهـم ، بل لقـد عاش بالفعل فى القـرن السادس عشر « دكتـور » اسمه « فوست » اجتمعت إليـه كـل خصـائص السحرة التى تحدثنا عنهـا آداب القـرون الوسطى • ونحن بعـد لا نـدرى أكان هـذا الرجـل نصـابا أم كان ممن يصـدرون عن فيض إلهى ، ولـكنا نعلم أنه أنفـق عمـره ضاربا فى بقـاع الأرض يحتال على الحيـاة بخـداع سذج العقـول ، ولـكم سمـا صيته بين طلبـة الجامعات بألمـانيا ، ولم لا ؟ ألم يكن مثلهم ضليعا فى الآداب اليونانيـة واللاتينيـة القـديمة ؟ ثم ألم يبلغ من مهـارته يـوما أن بعث من قبرها أمام أبصـارهم الذاهلة تلك الحسناء الفاتنة « هيلانه » التى جعـل هوميروس من سـحر جمالهـا سببـا لحرب ضروس بين الشرق والغـرب ؟ لقـد كان دكتورنا بلا ريب على صلة وثيقة بابليس — بهـذا ذهبت الأسطورة وهو حى ؛ فما بالك بعـد موته ! • تناولها خيـال الشعب بالتنمية حتى كان مسيحى متـدين لعله قسيس ، اتخـذ من تلك الحيـاة العجيبة موضعـا للعبرة وعرضهـا فى كتاب — (كتاب الشعب) — يصـور فيـه فوست رجلا حبته الطبيعة بمواهب فذة ، ولم تستطع المسيحية التى نشأ بين أحضانهـا أن تمسكه عن الغـرور ، فهـوى فى الخطيئة • تطاولت نفسـه إلى معـرفة كل سر ، والتمتع بـكل لذة ، ولم يجد سبيلا إلى تحقيـق هـذا الحلم غير الاتفاق مـع الشيطان على أن يهبـه روحـه عنـد المـوت ، وعلى الشيطان أن يرسل إليـه أحـد رجاله (إبليس) يقـوده خلال ما يبغى من لذة محرمة أو معرفة منعت عنا — نعـم إن الدكتـور لم يفقد إيمانه ، وكانت نفسـه لا تزال تحن إلى رحمـة اللـه • ولكم منـاه ذلك

الايمان أن يخادع يوما إبليس فيفلت من قبضته ، وقد فاز منه بما يريد • ولكنه لم يستطع ، فقد نصب له إبليس من أشراك الرذيلة ما تعثرت به خطاه وعز معه الخلاص •

وتناول الكتاب تلك الحياة دون أن يغير أحد من فكرتها كما صاغها « كتاب الشعب » ، ومثلت تلك الحياة على مسرح العرائس ، حيث كان الممثلون شخوصا من الخشب على نحو ما نرى فى « الأرجوز » حتى جاء الكاتب الانجليزى الممتاز Marlowe مارلو » معاصر شكسبير ونده الفذ ، فجعل من فوست ثائرا على ربه ، ثائرا على قضائه ، ثائرا يكسب عطف من يستمع إليه ، وحسب الناس أن مارلو قد خلع على فوست وجودا لم يفلت منه أبد الدهر • وما علموا أن جيته سيتناول هذا الشبح فينفخ فيه روحا جديدة ، روحا تجعل من الشبح رمزا لكل عبقرى يضيق بما فى بطون الكتب من معرفة زائفة فتصبو نفسه إلى الحياة ، وإلى المعرفة المباشرة ، يستقيها من قلوب البشر ، أو من حفيف الأشجار ، وإن يكن فى نزعته هذه ما يباعد بينه وبين البشر ، فتثقله وحدة النفس ، ويعقد به ضعفا البشرى عما يريد فيتعاقد مع الشيطان كما تعاقد أسلافه • ولكنه اليوم لم يعد كما تصوره خيال الشعب : ذلك الرجل الذى يهوى مع إبليس إلى نار جهنم ، فقد جعل منه « لسنج » رمزا للمعرفة الكاملة ، وقد ارتفع به جيته إلى سمو الرجل الممتاز الذى يسعى بكل قواه وراء المعرفة والحياة ، وقد اتخذ منه شاعرنا مستقرا تجتمع إليه مسرات البشر وأحزانهم •

وفى الحق أن فوست ليس نفسا مبتذلة ، وإلا لما كان موضع نزاع بين إبليس والله (تعالى عن ذلك) • وهل يختلف احد على توافه الناس أو الأشياء ؟ وفطن إبليس إلى أن نفس فوست بها من قوة الحياة ما يدفعها إلى التماس كل سر والتمتع بكل لذة ، فأحس فيه فريسة لشره ، وود لو فاز به ، ولكن كيف

السبيل والله مستقر بضمير فوست ؟ وهل النفوس الخيرة مهما أسفت إلا ملائكة هوت ، فما تزال تذكر السماء ، ولكم تردت نفوس في الخطايا ثم أثار بها الندم سبيل الخلاص ! اللهم إن هذا حق آمن به فوست واطمأن إليه ، فتعاقد مع إبليس بمداد من دمه على ان يهبه روحه يذهب بها أينما شاء ، إن رصيد نفسه الرضاء كله بما يمكنه منه إبليس من لذات .

ها هو فوست في غرفة درسه يحاور نفسه الثائرة : او ما يسميه الناس « دكتورا » ! أو ليس يعلم اكثر مما يعلم الغير ؟ ولكنه قد انتهى إلى حدود المعرفة ، ونظر فوجد معرفته جوفاء لا تورث يقينا ولا تجعله خيرا مما كان . ومتى كانت المعرفة ، متاعا يسمو شخص إلى شخص حتى نستطيع أن نلتمسها في بطون الكتب ؟ وكيف لروح قوية كروح فوست أن تغنى بين جدران حجرة ضيقة وهي أوسع من أن يحتويها عالم الأرض على رحابته ؟ وكيف لحواسه أن تهدأ وقد خلقت حادة قوية لا يشبعها غير الاحساس المباشر يرسله خلالها ندى الصباح وبريق نجوم الليل ؟ وهبه أصاب معرفة ما ، أليس في ملابساتها ما يذهب بما لها من سلطان مطلق ؟ وهبه خطا نحو ما تألف من سعادة خطوة ، أليس من خلف خطوته هذه هوة سحيقة يتردى فيها فيبتلع الزمن ما لم يكد ينعم به ؟ وهبه أصاب لذة ما ، أليس من ورائها ندم لاذع يذيقنا مر العذاب ؟ وإذا فيلتمس فوست من إبليس عونا على ان يصل إلى معرفة أسرار الحياة والوجود معرفة مباشرة كلية مطلقة ، وأن يصيب من اللذات ما يترك في النفس رضى أبديا ونشوة لا تزول . هذا ما يبغي فوست ، ولكن ترى أيستطيع إبليس أن يقدم إلى فوست ما يريد ؟

إبليس هو روح الشك والنكران — روح هدامة — روح الشر ، فكيف له أن يهدى فوست إلى يقين أو أن يدله على لذة تدوم ولا تورث ندما ؟ إبليس هو وحي غرائزنا الوضيعة ، يكمن في أنحاء

نفوسنا المظلمة ينير ما استقر فيها من عناصر الشر ويلتمس لها أهدافا يغرينا بها . ها هو يتقدم إلى فوست وقد ارتدى ثوبا أحمر يطرزه الذهب ، وفوق كتفيه معطف من الحرير الثقيل ، وبقبعته ريشة ديك . وسيفه الحاد السنان معلق بخاصرته ، وها هو ينصح إلى فوست ان يرتدى رداء كردائه ، وان يترك غرفته مخلفا بها تلك الوساوس التى آتلفت عليه أيامه ليدنف إلى الوجود ملتمسا أسرار الحياة .

« واى ثوب يستطيع أن يغير من شعورى بضيق الحياة وقد جاوزت سن المرح دون أن أبلغ سن اليأس من الغدات وماذا يستطيع العالم ان يمنحنى ، ودقات الزمن نصيح باذاننا صيحات أبدية بح بها صوت الوجود فى أغنية لا تنقطع ان « تنح ، تنح ، تنح » ؟ استيقظ مع الصباح فتغلى نفسى غيظا . وألقى ضوء النهار بدموع مريرة لعلمى أن اى نهار من يحقق شيئا مما أملت ، بل إنه ليفسد على ما اتوقع من سرور ، وفى ضوئه تتناولنى الأنسنة بالنقد اللاذع المرير ، فتشل فى نفسى كل توثب للخلق بما تأتينى به من أحزان الحياة البغيضة ، ثم إذا جن الليل ذهبت إلى فراشى وفى النفس لوعة مقضة ، هنالك لا أنعم براحة ، وفى أضغاث الأحلام ما يملؤنى رعبا . ترى الاله الذى يسكن عقلى لا يمسك عن إثارة ما استقر باعماق نفسى ، وقد بسط سلطانه على كل ما أملك من قوى ، بينما هو أعجز من أن يثير شيئا من هذا العالم الخارجى . شيئا اتبع به ما يثير فى نفسى ، ولهذا كانت الحياة عبئا يثقلنى ، وكان الموت أحب إلى نفسى من هذه الحياة البغيضة » .

ولكن إبليس لم ييأس من فوست . لعلمه انه بشر يتناوبه اليأس والأمل طورا بعد طور ، وهو بعد على ثقة من انه يستطيع ان يغير من لون نفسه ما انتزع نلك النفس من وحدتها وصرفها عن التفكير فى حقيقتها ، ولقد نجح إبليس فيما أراد . وقبل

فوست أن يصاحب إبليس « على أن يسلمه روحه إن استطاع أن يسلمه إبليس إلى الدعة يركن إليها ، فيطمئن ويرضى عن نفسه بما يخادعه به من لذات ويتملق عنده من غرائز » . وفى الحق إنه لا تفاق عجيب ما يزال الناس حتى اليوم يستوضحون معناه . ترى أموضع النزاع هو : إلى من ستصير روح فوست ؟ إلى خالقها تسمو إليه ما تعلقت بأشمه المثل العليا ، ام إلى جهنم يقوده إليها بليس بخطا خبيثة ملتوية ؟ أم هو مصير الانسانية قاطبة تتنازعها قوى الخير والشر أم هو لا هذا ولا ذاك ؛ بل نزاع بين ملكات النفس المختلفة — ملكات تسمو بنا إلى أعلى ، وأخرى تهبط بنا إلى أسفل . ومن يدرينا ؟ قد يكون الأمر مجرد جونة — كما يقول جيته نفسه — يحمل الشاعر فوست عليها بين الأرض والسماء ليرى ماذا تخلف خطاه من أثر ، وقد انعقد عزمه على أن يجوب خلال الطبيعة التى خلقنا بين أحضانها وفى حناياها كل سر دفين . « ألست ترى إلى الأشياء كيف تفكر خلالنا وكيف نفكر خلالها ، وإن تكن وحدة تفكيرها أدق من أن تكون قضايا وأكثر ما تكون نغما أو لونا » وقد انعقد عزمه على أن يجوب خلال النفوس البشرية ، ولكم أودعها الله من سر لا تسلمه إلا لما يشابهها من نفوس ! ولكم تجرى أصدق الحقائق على أبسط النفوس ! ولكم يفيض النبل من أشد القلوب سذاجة ! ولسوف نرى كيف أن لذات الحياة المادية لم تورث فوست غير ندم سما بنفسه ، ولسوف نرى نشوة الخيال لا تدوم إلا إلى حين ، ثم تولى تاركة فى النفس فراغا مؤلما ، ولسوف نرى أن العمل نفسه قد تخدعنا ضوضاؤه وإن لم يخلف أثرا يبقى ، ولسوف تتجلى مأساة فوست عن سبيل النجاة ، وما سبيلها إلا أن نحيا بقلوبنا ، وأن نضع لعقولنا حدودا تلزمها دائرة لا تعدوها .

وما لنا نستوضح هذا السر ، وفى خطوات فوست وإبليس ما هو أوضح دلالة من كل تفكير ؟ أليس من الخير أن نصاحبهما

لنرى ما هما منتهيان إليه ، ثم نحكم بعد ذلك على ما تعاقدا عليه ؟ .

ها هو فوست وإبليس يبدآن رحلتهما الطويلة الشاقة بزيارة لحانة بليبزج . حاول إبليس أن يغرى فوست بالتماس اللذات وسط جماعة الطلبة وهم يلهون فى صخب وضيح ، وكؤوسهم بين أيديهم يعبونها عبا ، وحناجرهم تردد أقبح الغناء وأنتنه : « نحن وحوش اللذة ... نحن خنازير الورى » وسمع فوست هذا الهراء فصدفت نفسه ولم يجد ما يقول إلا رجاءه إبليس أن ينصرف به عن هذا المكان ، وكيف لنفس حامية كنفس فوست أن تستريح للذات الحانات الحقيرة ؟

وحسب إبليس أن فوست لم يسترح إلى تلك اللذات لأنه قد جاوز السن التى كان يستطيع أن يلهو فيها مع الطلبة ، فقاده إلى ساحرة أعطته شرابا يرده إلى بدء الشباب ويوقظ فى نفسه لذات الحواس ، ولئن صدفت نفسه عن لذات الشراب وصخب الشباب فليعد له إبليس هذه المرة أشراكا أحكم حلقات ، وليغره بما هو أعلق بكل نفس ، ليدفعه إلى الحب . وفيما هو فى الطريق مرت بهما فتاة جميلة طاهرة النفس تطلعت إليها رغبة فوست الظمأى إلى الجمال ، واحتال إبليس حتى أوصله إليها ، وحسب أنه قد نجح فى الهوى بنفس فوست إلى ما اراد من سقوط ، ولكنه لم يفطن إلى أن جمال تلك الفتاة ونبل نفسها خليقان بأن يسموا بفوست عن كل إسفاف . ولم لا ، وقد خبر جيته نفسه تلك التجربة الرائعة عند ما أحب — وهو فى الرابعة عشرة من عمره بفرنكفورت — فتاة تشبه مرجريت هذه شبه قطرات الندى بعضها لبعض ؟ ودخل فوست إلى غرفة مرجريت ، وكان الوقت أصيل الغروب ، فارتفع قلبه إلى المثل الأعلى ، وانطلق لسانه بأجمل الشعر : « مرحبا بك أيها الشفق العذب ؟ أيها الضياء البليل يرسل أشعته الذهبية تنير هذا المعبد المقدس !

وأنت أيها الغرام المبرح ! دونك قلبى أمسكه بعذابك العذب عن أن يأتى عليه الفناء وسط ندى الآمال ! يا له من هدوء وديع ! يا له من استقرار رائب ! يا له من رضى نفسى جميل ، ذلك الذى يعمر تلك الدار ! أى غنى يملأ هذا الفقر البادى ؟ وأى سعادة تملأ هذا السجن المظلم ؟ » .

ووجدت نفس فوست راحة من حيرتها الأبدية ، وأحست نفس فوست برضى لم تستشعره أبد السنين ، وكاد رجلنا يفلت من أيدى إبليس ، وكاد رجلنا يطمئن إلى الحياة مخلفا وراءه عهدا مظلما لم يعرف فيه غير القلق وشقاء النفس . أليست مرجريت بطهارة نفسها ، وجمال روحها ، وفتنة وجهها — خيرا من فوست بعلمه الذى أنزل بنفسه الخراب وساقها إلى تطلع أبدى لن يلقى من ورائه خيرا ! ولكن إبليس له بالمرصاد ، ما يزال يغريه بالشر حتى يقع ما لا بد منه . حملت مرجريت ، وسقت أمها السم على غير علم منها ، وهى تحسب أنه منوم بسيط سيمكنها من أن تخلو بحبيبها كما أوهمها إبليس . وظهر حملها وثارت ثائرة أخيها لهذا العار الأبدى ، فأغرى إبليس فوست بقتله فى نزال دبره ذلك اللعين . ووضعت مرجريت حملها ، وضعفت نفسها عن مجابهة الناس بعارها ، فألقت بولدها إلى اليم . وحزن فوست حزنا عميقا ، وقد آخذ الندم يخز فى نفسه حزا ، وإبليس لا يمهله لحظة ، دائب الوسوسة فى أذنيه . ولكم ود لو يعينه إبليس على أن يقوض ما بقى من أركانها ليفلت من هذا الشقاء المقيم : شقاء النفس الخيرة تساق إلى الشر سوقا فلا تعود منه إلا بأمر الآلام .

وألقى بمرجريت إلى ظلام السجن ، وثارت ثائرة فوست ، وود لو تسحق قدرة الله إبليس اللعين . وحاول إبليس أن يمد من غواية فوست بمعسول القول فلم يستطع ، ولهذا لم ير بدا من أن يأخذه إلى قمة جبل بروكن حيث تعقد الجن عيدها

المنوى ، وهناك أغرى به فتاة حسناء ، لعله ينسيه ألم الندم الذى أوشك أن يطهر نفسه من كل شر ، ولعله يعود به إلى السقوط ، ولكن هيهات فها هى مرجريت تلوح وسط هذا الصخب فيما يشبه أحلام اليقظة ، فيغادر فوست العيد عائدا ملء أرجله إلى حيث تقيم مرجريت وسط غياهب السجن • وأرغم فوست إبليس على أن يقوده إلى حيث هى • ووصل فوست إلى مرجريت ، وحاول عبثا أن ينجو بها من السجن • ولكن إلى أين تذهب وقد أصبح العالم لها سجنا أضيق من سجنها ؟ لا ! لقد فات الوقت ، وصاح إبليس معتبطا : لقد كتب لها الهلاك • وصاحت أصوات من السماء : بل كتبت لها النجاة • وقاد إبليس فوست إلى خارج السجن ومن جوفه صوت يصيح متهافتا : هنرى ! هنرى ! وخرج هنرى فوست إلى فضاء الأرض وقد ضاق به الفضاء بما رحب ، وأخذ منه الأعياء كل مأخذ ، فألقى بنفسه على حشائش الأرض ينتظر قضاء الله فيه • ترى ماذا ستفعل به رحمة الله ؟

أراد فوست أن يمس الحياة عن قرب • فلم يجد فى الحياة غير مرارة الندم • أراد فوست أن يلتمس من الطبيعة أسرارها ، فضاق به فضاء الأرض • ولكن أليست هناك رحمة الله تملأ الوجود ، وقد حلت بكل شىء ، ونفذت إلى كل نفس ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الله غافر لهذا العبد النادم ما أتى من سيئات لم يقصد إليها ، ولعله ملهمه نسيان ما كان • ولئن كانت لذات الحياة المحصة لم تعقب خيرا ، فلعل فى نشوة الخيال ما يغنى • ولئن ضاقت بفوست الأرض ، فهناك ما خلف الأرض ، هناك لا شك عوالم غير عالمنا • ليحاول فوست أن ينفذ إليها ، ولننظر ما هو مصيب منها • لقد عافت نفسه اللذات الحقيرة ، وشقيت نفسه بحب حسى • فليطلب إذا لذة المجد ، وليصرف قلبه إلى مثال الجمال يحبه بروحه • ليصرفه إلى هيلانه رمز الجمال ، وليسخر إبليس فى بعثها إلى الحياة ، ولننظر بعد ذلك ما سوف يكون من أمره •

(٢)

تركنا فوست وقد جره إبليس إلى مغامرة غرام ، خرج منها ونفسه يحطمها الندم . ومن عجب أن تكون نجاته على يد ضحيته ؟ ومن عجب أن تلاقى نفس مرجريت السيئة بالحسنة ولكنها نفس خيرة — هى من معدن نفس فوست — نعم من معدنها ، وإن تكن تفضلها بما احتفظت به من سذاجة وطهر ، ولئن سقطت مرجريت فما كان ذلك لشر فى طبعها ، ولا لاسراف فى غرائزها . وهل كانت مرجريت إلا زهرة تفتحت لندى الحب عن طيبة قلب ، وحسبته خيرا صراحا ؟ وهل أدل على نبلها من أن تخف إلى فوست وهو بين الجن والسحرة . وقد أوشك أن يهوى هويا لا نهوض بعده فتدعوه بحزنها البادى ونفسها الكسيرة إلى أن يخف إلى السجن يتلقى عنها قبل أن تحتضر ، درسا لن ينساه أبد السنين ؟ ماتت مرجريت وتركت فوست طريحا على الحشائش بين أحضان الطبيعة التى طالما حن إليها ، ولكن أنى له أن ينعم من الطبيعة بسلام وقد تملكه الندم يهمس فى أذنيه : « إن من أتملكه لا يحس للعالم بوجود — تتراكم من حوله الظلمات — للشمس أن تشرق أو أن تغيب ، ولحواسه أن تظل يقظة مفتحة الأبواب ، وأما نفسه فهيهات أن يتبدد منها ما يملؤها من ظلام — تحوطه كنوز الأرض ، وهو عاجز عن أن يفيد منها شيئا . تشقيه السعادة قدر ما يشقيه البؤس . يتضور جوعا ومن حوله خيرات الأرض جميعا ، يرجىء إلى غد كل لذة وكل ألم ، وأنى له أن ينعم بشىء وقد علقت حياته بانتظار المستقبل الذى لا يأتى ؟ إن هم بأمر لم يدر أيتابع السير فيه أم يعود أدراجه ، يخونه العزم وهو فى منتصف الطريق ، فيتردد ويتعثر فى خطاه ، تزل به القدم شيئا فشيئا وتختلط أمام بصره الأشياء ، هو حمل على نفسه وحمل على الآخرين — لا هو بالحى ولا هو بالميت ، وقد عز عليه حتى اليأس أو الاستسلام ، فهو دائم الحيرة ، متراخى

العزم ، ينتابه كسل مؤلم ونفور من كل نشاط ، نومه هيج ، وصحوه عذاب ، وقلبه نهب للرق والأسر ، وهو فى كل ذلك ملصق بالأرض ينتظر أن تنشق أفواه جهنم لتبتلعه » .

ولكن أليس هذا الندم شفيعا له لدى رحمة الله ؟ أليس دليلا على أنه لا يزال هناك بريق من ضوء الله ينير حطام نفسه ؟ أليس دليلا على انه لا تزال هناك شرارة مقدسة تلمع وسط هذا الرماد الفانى ؟ نعم لقد فشلت حياته التى عاشها حتى اليوم ، ولكن ما أصاب من لذة أو شقاء لم يعدم أن يثير مكنون ضميره ، كما تثير الرياح المتضادة أمواج البحار ، وما دامت روح الشر لم تتملك روحه ، فلا شك أن سبيل الخلاص لا يزال مفتوحا أمامه .

وأنتشه أرواح الطبيعة ترنحه حتى نام ، ثم وسدته أكاليل الورود وحملته إلى نهر النسيان ، حيث عادت الحياة إلى جسمه المحطم ، ثم فتحت عينيه على ضوء النهار المقدس . ولكنه لم يكد يعود إلى الوجود حتى وجد إبليس أمامه . وهل روح أشد عنادا من روح الشر ؟ وهل إبليس من الغفلة بحيث لا يفطن إلى أن الفوز بنفس ممتازة كنفس فوست لا يعدله فوز ؟ ليكن لابليس ما يريد من ملازمة فوست . وأما بطلنا فهيهات أن يعود إلى تلك الغواية التى لا تزال ترتعد لها فرائصه . لقد التمس اللذة الحسية فلم يجد غير المرارة ، وفيم هذا العناء ؟ ألسنا نستطيع أن نحيا بالخيال ما تنطلق إليه رغباتنا ؟ أو ما ترى إلى الناس يذهبون إلى المسرح فيخيل إليهم أنهم قد عاشوا فيما يرون من أحداث وهمية ، وبذلك يدخرون من طاقتهم الفعلية ويضيفون إلى حياتهم ألوانا أخرى من الحياة ! أو ما يذكر بعضنا كيف أن رغبات النفس قد تبلغ من القوة حدا إذا تحققت معه ، لا ندرى عندئذ أحلما نرى أم ماضيا نذكر ؟ ثم أليست السعادة والشقاء معانى ذهنية أكثر منها حقائق واقعة ؟ وإذا فليلتمس فوست

لذات الخيال بعد أن خدعته ذات الواقع ، وليستخر إبليس فيما يريد وليأذن أول ما يريد مجد الشهرة والغنى .

وقاده إبليس إلى بلاط الأمبراطور ، فاذا بالأمبراطورية فاسدة ، وإذا بالأمبراطور عاجز عن إصلاحها . واتفق أن كان مضجك الأمبراطور فى شبه موت من شدة السكر ، فقبل الأمبراطور إبليس ليحل محله ، وأصبح فوست ساحر القصر الأمبراطورى ، وهنا تقع مهزلة ملأى بالعبر — رأى المضحك الجديد أن موضع الداء بالأمبراطورية هو نضوب المال ، فأكد للأمبراطور أن جوف أرضه ملىء بالكنوز الدفينة ، وأنه ليس من الضرورى أن ينقب عنها ، بل يكفيه أن يحمل الشعب على الاقتناع بوجودها ، وفى إيمان الشعب ثروة لا يجف لها معين ، وتحققت تلك الأضحوكة ، وانتهز إبليس فرصة انهماك الامبراطور ذات مساء فى لجب اللذات فحمله على التوقيع على ورقة بنكوت يضمنها ما فى جوف الأرض من كنوز ، وطبع من تلك الورقة عددا لا حصر له وجرت تلك الأوراق فى التداول ، والكل مؤمن بقوة ضمانتها ، فاغتنى الأمبراطور واغتنت الامبراطورية ، ولكم من أناس يبنون مجدهم فوق أكذوبة كهذه ، ولكم من أناس يجمعون المال ، والفضل كله لحمق البشر !

وتساقطت عن الأمبراطور همومه ، وتكاثرت من حوله الخيرات ، وكان على إبليس وفوست أن يفتنا فى طرق تسليته وإدخال السرور على نفسه ، فأخذ فوست مفتاحه السحرى ينظم بفضله عيدا من أعياد الأدب ، وهل أمتع للأدباء من أن يبعثوا إلى الوجود هيلانة وباريس ؟ وسر فوست بما أتى ، ولكنه لم يكد يرى هيلانة حتى هاله جمالها النادر ، وأحس نحوها بحب قوى ، وبلغ هذا الحب المثالى من نفسه مبلغا أخذ بكل حواسه . فجعله يستشعر نحو باريس غيرة شديدة أنسته الدور الذى يلعبه كساحر ، فأدار مفتاحه نحو هذا الراعى الجميل ، وما هى إلا حركة بسيطة حتى اختفى الكل ، وبقى فوست يتحرق لوعة على هذا الجمال الذى

لم يستطع أن ينعم به ، وإن ترت فى نفسه أثرا لن يمحى • ألم يصح عند رؤيتها ، « أو ما تزال عيناى تبصران ؟ أليست نبع الجمال فياضا يتدفق فى أعماق نفسى ؟ ما أحلاك جزاء لما بذلت من جهد ! وهل كان العالم قبل أن أراك إلا عدما أو لغزا معمى ؟ وأما اليوم فقد أعطاه جمالك معنى ترغبه النفس وتطمئن إليه الحواس واثقة من بقائه ؟ ألا فلتغادرنى أنفاس الحياة إن ثبتت ان أحيا بدونك • أنت الحافز على كل نشاط ، أنت الباعث لكل عاطفة قويه ، إليك كل ما أملك من عطف وحب وعبادة وجنون » •

إذا لقد وجد فوست غاية فى الحياة • وأى غاية أنبل من هيلانة ، مثال الجمال المطلق ؟ وعلى إبليس ان يبلغه ما يريد • سيعيد الحياة إلى هيلانة أليس فى ذلك ما يذكر جيته بتلك ولكنه لن يقنع هذه المرة من هيلانة بذلك الشبح الذى لا يكاد يرنو إليه البصر حتى يختفى كضباب الصباح تبدده أول أشعة النهار • إنه يريد هيلانة الحقيقية — هيلانة أسبرطة وطروادة — هيلانة فى زهرة الشباب — هيلانة ابتسامة تسحر وجمال يسبى • نعم هذا ما يريده فوست ، وقد جعلت منه لمحة الجمال رمزا لخيار البشر يلتمسون الحق والجمال بالعلم والحب ، وما تهدأ لهم ثائرة حتى يصلوا إلى ما يريدون وهنا تتسع عبقرية جيته حتى تشمل كل ما فى الوجود ، بل وما خلف الوجود و حتى إن إبليس نفسه ليخشى أن تسوق فوست قدماه « إلى ذلك الفراغ اللانهائى الذى لن يرى فيه شيئا ، ولن يسمع حتى وقع أقدامه ، ولن يجد ما يركن إليه طلبا للراحة » • وتختلط على القارىء السبل ويحار فى أمره ، ولكن ما دام فوست يريد من إبليس أن يأتيه بهيلانة الاغريقية ، أليس من الطبيعى أن ينقلنا الشاعر إلى تلك البلاد ، بل إلى اسبرطة نفسها موطن تلك الحسناء ! وما دام إبليس سيعيد الحياة إلى هيلانة أليس فى ذلك ما يذكر جيته بتلك المعضلة التى لازمت تفكيره طول حياته ، معضلة أصل الحياة ؟ ولم لا يستعرض إذا ما وصل إليه العلم فى عصره من فروض ؟ ولم لا يقص علينا ذلك النبأ العجيب نبأ فجئر تلميذ فوست

الأمين . وقد خلق إنسانا صغيرا فى أنبوبة اختبار بفضل ما يعلم من قوانين الكيمياء . وها نحن نرى أبطالنا الثلاثة يسيرون معا إلى بلاد اليونان : الانسان الصغير باحثا عن مصدر الحياة ، وفوست جريا وراء هيلانة ، وإبليس مترصدا لتلك النفس الكبيرة التى يريد كسبها ، وجيته يطفو فوق الجميع بتلك العبقرية الفذة التى أحاطت بكل شىء ، فانطلقت الهة الأساطير وأنصاف الآلهة وأرواح البحر والبر والسماء .

ولقى فوست فى طريقه « شيرون » الحكيم فأخبره أنه يبحث عن هيلانة ، وانه لن يستطيع الحياة بدونها ، فظنه شيرون لأول وهلة مجنونا ، وأخذته به رحمة ، فأراد أن يلتمس لجنونه علاجا ، ولكن فوست يرفض هذا العلاج بإباء ، ويخبره أنه يريد أن يحيا حياة مبتذلة كما يحيا غيره من الناس ، وإلا كان جديرا بكل احتقار . ويقوده شيرون إلى « مانتو » بنت إله الطب إسكيلاب ، وعند مانتو كل علم بأسرار النفوس . ودار بين مانتو وفوست حوار أحست خلاله تلك الإلهة الخبيرة بأن فوست ليس مجنونا ، وإنما هو رجل ألهب المثل الأعلى قلبه ، واستحوذ على مشاعره ، حتى ليحسبه الحمقى معتوها وما هو بمعتوه ، وسكتت مانتو من جاشه بتلك الكلمة الرائعة : « إننى أحب من يطلب المستحيل » وقادته إلى « برسيفون » إلهة العالم الآخر ، ورقت له تلك الأخيرة ، فردت إليه هيلانة مشرقة الجمال .

وأقام إبليس لهيلانة وفوست قصرا رائعا بأعلى جبال البلبونيز يا ، حيث عاش فوست مع هيلانة أروع أحلام حياته ، إلا أن حبهما لم يكن حبا مبتذلا ، بل كان مغامرة لا مثيل لأصالتها . وكادت تتم لفوست السعادة لولا أن ولدهما « إفريدن » — رمز الشعر — ذلك العنصر النارى الذى لا تهدأ له حركة ، لم يستقر له قرار ، فأخذ يجوب الآفاق حتى سقط فى مخالب الفناء داعيا أمه إلى اللحاق به . ولحقت هيلانة بولدها فى العالم الآخر ، وبقى فوست

وحيـدا وفى نفسه حسرة ما لهـا انقضاء ، فيا عجبـا ! حتى هـذه الحياة الشعرية لا تسكن إلى بقاء ! أهكذا كتب على البشر ألا تطمئن بهم حال حتى ولو كانت من نسج الخيـال ؟

والآن ترى ماذا يفعل فوست بنفسه وقـد خانتـه لذات الخيال كمـا خانته لذات الحواس • وقـد أورثه الحب مرارة الندم كمـا أفلت الجمـال من بين يديه ؟ لم يعـد له إلا أن يصرف نشاطه إلى ميـدان العمل يأتى فيـه بما لم يأت بمثله أحـد من قبل ، فينـال إعجاب النـاس به ورضى نفسه عما وفق إليـه • وأى دواء لنفس حائرة كنفسـه خير من أن يشـغل ملكاته عن التفـكير فى نفسـه وفى الحيـاة •

ونظر فوست فرأى البحر يغمر الأرض فيشل إنتاجهـا ، وحدثته نفسـه عن مبلغ ما يضيف من مجـد لو أنه استطاع أن يرد البحر عن شواطئـه ، وأن ينتزع منـه بقاعا يخصبها بالأشجار الدانيـة القطوف والأزهار الباسمة الألوان والرجال الناعمين بالحياة • وأى عمل أعظم من أن يضع للبحر حـدودا لا يعدوها ؟ بذا جرت الأحلام فى نفس فوست ، فاتجه إلى إبليس يطلب إليه تحقيق تلك الأحلام ، وخدع إبليس بالأمر وهو على ثقـة من أن فوست سيرضى بمجـد باطل يفقـد معـه رهانه • واتفق عنـدئذ أن كانت الأمبراطورية فى ثورة ضد الأمبراطور ، وقـد نصب أحـد الأعداء نفسه امبراطورا جـديدا ، فأعـد إبليس لفوست من أسباب سحره ما استطاع معه أن يقهر الأمبراطور الجـديد ويثبت الأمبراطور القديم فى عرشه • وشـاء عرفان الجميل أن يحمل هـذا الأخير على أن يكافىء فوست بمنحه الأراضى المجاورة لساحل البحر ، وبذا أصبحت أحلام فوست سهلة التحقيق • أليس فى استطاعة إبليس أن يأتى فوست بقوى غير مرئية تدفع البحر عن شاطئه وتقيم أمامه حواجز متينـة ترد أمواج الميـاه ؟ وزرعت الأرض المنتزعة من الميـاه • ونمـا زرعها وانتشرت بينـه مساكن الزراع • والآن — ترى أرضيت نفس فوست ؟ كلا •

فهناك شيخان لا يثقان بما أتاه فوست من معجزات ، والشيخين (رجل وزوجة) منزل بأعلى الشاطىء ، وهما هما يرفضان النزول عنه والسكن بالأرض الوطيئة التى انتزعها فوست من اليم . وبقى منزلهما قائما يسخر من فوست . وبنفسه رغبة فى شراء هذا المنزل ليضيفه إلى قصره الذى بناه ، والشيخان يصران على التمسك به فكيف السبيل ؟ وأحس إبليس بما يدور فى نفس فوست ، ومن أدرى منه برغبات النفوس ؟ فأخذ يحرك غرائزه ويهيج من كبريائه حتى استفحل الأمر ونفذ الصبر ، فتقدم له عندئذ راجيا أن يكل إليه أمر مفاوضتهما بالحسنى ، على أن يكون له الحق فى استعمال ما يرى من وسائل الاكراه إن فشلت المفاوضة . وأبى الشيخان الاستماع إلى حديثه ، فأمر إبليس رجاله باحراق المنزل ، وأكلت النار المنزل كما أكلت الشيخين بداخله .

فنى الشيخان ، وما إلى هذا قصد فوست ، ولكن ما فعله إبليس لم يكن إلا استجابة لرغبات نفسه الدفينة ، ولهذا نراه يلعن إبليس ويستنكف فعلته . ولكنه يحس فى أعماق ضميره أنه مسئول عن هذا الجرم ، ولذلك يعقد العزم على أن يفارق إبليس ، وأن يحيا حياة بشرية عادية دون الاستعانة بوسائل الشيطان ، ولكن أنى له ، وقد جاوز الخمسين فى صحبة إبليس ، أن ينهض بأعباء حياته التى أنفقها بعيدا عن حياة البشر وسط عالم مسحور حتى أصبح عاجزا عن فهم الواقع ، وامتلأ وجوده بالأشباح ؟ ! ومع ذلك فما تزال إرادته قوية كما كانت ، وما يزال نشاطه موفورا . وإذن فليحاول حياة البشر :

« لقد أنفقت حياتى أجوب خلال الأرض ، أقتنص ما تصبو إليه نفسى وأطرح ما لا يرضينى ، مواليا ظهرى لما يفلت من بين يدى . لكم تحركت بنفسى رغبات ، ولكم أشبعت تلك الرغبات ، ولكنى ما أكاد أفرغ من واحدة حتى تثور بنفسى أخرى . وهكذا

واصلت شوطي في الحيـاة بقوة لا تدفع وبخطى بدأتهـا حثيثـة ، ثم ها هي اليوم تهدأ وتعتدل . لقـد أحطت بآفاق الأرض علمـا ، وأما ما خلف تلك الآفاق فدونه حجب مسدلة . ما أحمق من يرفع إلى السماء بصر يعشيـه ضياؤها ، وقـد خيلت إليـه أوهامه ان وراء السحب أحيـاء تتأكله ! لقـد خلق الانسـان فوق تلك الأرض ، فليكتف إذن بالنظر إلى ما حوله ، وإن فيـه لعبرة لذوى الالباب . ثم فيم الضرب خلال الأبدية ؟ أو ما يكفينـا أن نمسك بمـا نعلم ؟ أو ما يكفينـا أن نسير على ضوء الحيـاة ؟ وإذا لاحت لنـا بعرض الطريق أشباح فلندعهـا وشانهـا ، وإن أصبنا سـعادة أو شـقاء فلنقبـله ، ولنواصل السير دون أن يطمئن بنـا أبدا رضاء » .

على هـذا وطد فوست العزم وقـد أعلن أنه سـيقبل الحيـاة كمـا هي دون أن يرضى عنهـا . فهل تراه بذلك مفلتـا من قبضـة إبليس ؟ كلا . فإبليس لـه بالمرصاد ، وما دامت الحيرة قـد عادت إلى نفس فوست ، وما دام القلق قـد تملك نفسـه البشرية يقلق راحتهـا ، فقـد عادت الهموم تغزوه من جـديد ، وتعمى بصره ، وها هو إبليس ينتهز فرصـة عماه ليخدعه من جـديد ، وقـد أمر فوست رجاله أن يبكروا في الصباح إلى حمل معـاولهم ومهاجمـة البحـر يردونه عن الأرض دفعـة اخرى . وأثار إبليس من هـول فوست — بوسائله السحرية — ضجيجا يشبه ضجيج الفعلة ، وحسب فوست أن الأمور تسير على هـواه وأنه مستطيع بوسـائل البشر ما لم يكن يستطيع من قبل بغير وسـاطة الشـياطين ، وما علم أن ما حوله من ضجيج لم يكن إلا خـداعا من شـياطين إبليس ، وأن المعـاول لم تكن تعمل لترد البحر ، بل لتهيىء له قبره الأخير . وبلغ من بؤس الرجل أن صاح برضاه عمـا أتى ، ففقـد رهانه ، وسقط بين يدى إبليس يقوده إلى جهنم وفرق شفتيه ابتسامة الرضى .

« ها هي ذى جنـان الأرض تشرق ! للبحر أن تزخر أمواجه وأن تأكل ميـاهه ما أقمنـا من حـواجز ، فنحن البشر له بالمرصـاد ،

ما نلبث أن نرد عـدوانه ، ونقيم حاجزا مقـام حاجز ، على هـذا كرست حياتى • وأى حكمة يمكن أن تتمخض عنهـا الحياة خير من تلك الحكمة التى تسوقنـا إلى وقف حياتنـا على هزيمة البحر كل يوم ، فنستحق بذلك الحيـاة ونستحق الحـرية ؟ وهـكذا ينصرم الشباب كما تنصرم الكهولة وتنصرم الشيخوخة وسط صراع مستمر يحكم حلقاتهـا • آه ! لكم وددت أن أرى من حولى من بشر فوق أرض حـرة بين قوم أحـرار ، إذن لصحت بالزمن أن قف جريانك لأنعم بتلك اللحظة السعيدة • ولو أنى استطعت ذلك ، لخلفت حياتى على أديم هـذه الأرض إثرا لن تمحوه أبدية السنـين • إن نفسى لتحس بتلك السعادة الفياضة ، وإنه ليحلو لى فى هـذه اللحظة أن أتمتع بمـا أنا فيـه من نعيم » •

وهل بعـد هـذا من رضى ؟ وهل بعد هـذا يستطيع فوست أن يفلت من إبليس ؟ ولكن هـل سعادة فوست هـذه إلا وهم باطل ؟ وهل رضاه إلا خدعة من عمل الشيطان ؟ يا للعجب حتى ثمار جهدنا تتلقـاه منـا الأحضان فإذا هـواء ؟ وحتى راحة النفس نلتمسها فى الدأب المتواصل فلا يورث الدأب إلا خداعا !

وهوت روح فوست مع إبليس ، ولكنهـا روح خيرة فمـا لرحمـة اللـه أن تتخلى عنهـا ، وإلا كانت الهـزيمة ! وما إلى مثـل هـذا يستطيع جيتـه أن يطمئن ، وإنه لمهيىء لبطله سبيل الخلاص ، ولمعلمه عنـدئذ كيف يستطيع أن يعـالج الحيـاة •

(٣)

هوى فوست بين يدى إبليس إذ أعلن رضاه عما خيل له هذا اللعين من مجد باطل ، ولكن كم كانت دهشة إبليس عندما نظر فوجد روح فوست ما تزال مستقرة بالجثة تأبى أن تغادرها أو تتفكك ذرات ، فاحتاط للأمر وطلب إلى رجاله أن يقصوا أجنحتها حتى لا تغافله فتصعد إلى خالقها . ولو أنها استطاعت لتفتحت لها أبواب السماء ، أما وقد عجزت فهاهى ملائكة الرحمة تأتيها منشدة : « نحن رسل الرحمة نحمل الحياة إلى البؤساء الذين ما تزال قلوبهم تتجه بالدعاء إلى رحمة الله . هيا .. هيا نمس بأجنحتنا هذا الطين البارد ، فتدب فيه الحياة ، هيا نملأ الفضاء بحماسة قلوبنا ، هيا نسكب رحمة الله فى قلوب البشر » .

وسمع إبليس نداءهم ، فهزه الخوف من أن تنفذ تلك الملائكة فوست . ولكن متى كان للملائكة أن ترهب إبليس ومن خلفها قدرة الله ؟ ها هى تساقط الورود فوق جثة فوست كما يتساقط الندى على رقيق الحشائش . وأمر إبليس رجاله أن ينفثوا على الملائكة والورود لهبا يبدد شملها ويذهب بنضرتها ، وعادت الملائكة تحمل الحب والضوء ، وضاعف إبليس من ناره ، ولكنه باء بالهزيمة . وقد مسه الحب الذى نثرته الملائكة فى الفضاء ، بلهب كوى منه الأديم .

واختطفت الملائكة فوست تسمو به إلى رحاب الله . وما زالت تقوده فى مقامات الجنة حتى لقى مرجريت ، فقادته ابتسامتها إلى العذراء تسألها أن تمكنه من لقاء وجه ربه ، وبدا انتهت حياة فوست كما ابتدأت بابتسامة من مرجريت ، فيا عجبا ! ضحية تشفع لمن كانت فريسته ؟ . وكنه الحب سبيل نجاتنا ، الحب بأعم معانيه : حب البشر وحب الله . ولنذكر قول أحد القديسين :

« ولو أننى نطقت بكل لغـات البشر بل حتى بلغات الملائكة ، وكان قولى خاليـا من الحب لكنت كطبل يدوى أو نحاس يطن ، ولو أننى تملكت أسرار الغيب وتفقت إلى كل معنى خفى ، وأحطت علمـا بكل شىء ، بل لو ان قلبى عمر بإيمـان ينقل الجبـال ، وركت بغير حب لمـا كنت شيئا . ولو أننى وهبت كل ما أملك طعـاما للفقراء ، ولو أننى اسلمت جسمى وقودا للنـار وكنت بغير حب لمـا أفدت شيئا . إلحب صبر ودعـة وإحسان . الحب لا يعرف الحقـد ، لا تسمع له صخبـا و لا عجلة ، ليس للكبرياء أن تغل من سلطانه ، وهو تواضع لا يعرف التعـالى لا يسعى إلى نفع ، ولا يحس بمرارة » :

هـذا الحب الذى تستطيع النفس أن تطمئن إليـه فتجد الراحة ، هو ما كان ينقص فوست ، إذ أن عقله كان قـد امتـد إلى كل شىء ، ووسع كل معرفة ، وكان قـد أنفق حيـاته بين الجدران منحنيا فوق صحائف الكتب دون أن يورثه ذلك يقينـا أو يجعله خيرا ممـا كان ، فأحس بفراغ ثم يدر كيف يملؤه .

فوست غـل طغى على القلب فاشقى صاحبه ، فحاول أن يقيم اتزان نفسه ، وقـد فقـدت تلك النفس بفقدان اتزانها كل سيطرة على اتجاهاتها ، فأخـذ يضرب فى كـل مكان يلتمس غـذاء لهـذا القلب ، منـدفعا فى كـل ناحيـة اندفاعا لا يتبـين معـه مواقع أقدامه ، وعاد من شوطه البعيد منتعلا دمه ، فغادر عالمنا إلى العالم الآخـر على أجنحة من الخيـال لم تلبث أن هبضت ، فسقطت إلى الأرض حيث الحـيرة الأبدية والجهـل الذى لا حـدود له ، وود لو انصرف عن نفسه إلى عمل مجيد يستغرق قـواه ، ولكنه فى تلك المرحلة أيضا لم يستبن الوهم من الحقيقة التى اختلطت أمام ناظره بالأحلام فـكيف له إذا أن يسـتقر أو أن تهـدأ له نفس ؟ ومن يدرى ! لعل إرادة اللـه قـد قضت على البشر أن يظلوا فى حيرة أبدية وقلق لا انقضاء له « ولعـل فى ذلك ما يتميز به الإنسـان . ألا ترى الأمهـات لا يلدن إلا وسط الآلام ؟ فـكيف العقـل بشرى

أن يدرك سرا أو يكشف الغطاء عن لغز إذا لم تهزه المحن فتتحذ من قواه .

ولكنا نعود فنتساءل : وكيف استطاع إذا فوست أن ينجو ؟ وكيف تفتحت له ابواب السماء ، رغم ما كان فى حياته من إسراف لا شك فيه ! ويقيننا أن سر نجاته يرجع إلى ما تمخض عنه ذلك الاسراف من دروس . لقد علم فوست أن علما يبذر الشكوك فى النفس علم لا خير فيه ، وأدرك أن الاحساس قد يكون لنا فى الحياة دليلا أهدى من عقل دائم التعثر فى خطاه . ألا ترى إلى مرجريت على سذاجتها وضيق أفقها العقلى كيف سبقت فوست إلى رحمة الله تمهد له سبل السماء ؟ أليس ذلك لأنها امنت بحبها فغفر الله خطيئتها ؟ وهل أتت فوست ملائكة الرحمة إلا لأن حب مرجريت له لم يعدم أن يمس نفسه فيطهرها من شرورها ويقربها من الله ؟

ولقد علم فوست أنه إن لم نستطع أن نحيا بنفوسنا تلك الحياة الأرضية التى قضى علينا أن نحياها ، فإنه لا ينبغى لنا أن نستعين بعناصر الشر وأوهام السحر ، وإلا تراخت قوانا وفقدت المقدرة على الاعتماد على نفسها . وإنه لخير لنا ان نشبع ما يثور فى نفوسنا من رغبات بما منحتنا الطبيعة من قوى ، وأن نعرض عما لا نستطيع له تحقيقا ، إذ انه من الأسهل أن نغير من انفسنا لنلائم العالم الخارجى عن أن نحاول تغيير ذلك العالم لكى نخضعه لرغباتنا . وسعادتنا منوطة بذلك ، وهل استثمرت نفس راحة إلا إذا استطاعت راضيه أو ضارعة أن تلائم بينها وبين ما يحيط بها من أناس وأشياء ؟

ولقد علم فوست أن المرء ضعيف بنفسه قوى بربه ، وسيان بعد ذلك أكان ذلك الرب ما يعبده المسلم أو المسيحى او اليهودى . أو كان تلك الروح الشاملة التى تحل فى الوجود كما كان يعتقد جيته . ولقد حدثت مرجريت فوست يوما عن الايمان . فسألته :

أمؤمن هو بدين المسيح ! فلم يخر جوابا ، وإن أخذ يصف لهنا حبه فى ألفاظ ترتعد إيمانا . فأحست مرجريت — كامرأة تدرك بفطرتها أسرار النفوس — أن قلب فوست عامر بالايمان ، وإن لم يكن ذلك الايمان وفق كتاب مقدس ، أو عقيدة مقررة .

ولقد تنطق عناصر الوجود أمام فوست فيحس فيها دبيبا من روح الله ، ولقد تنطلق نفس فوست من سجنها إلى رحاب الطبيعة ، فتحس كأنها تسبح فى معبد أقيم لعبادة الله . هذا الايمان الشائع فى قلب فوست قدر شيوعه فى الوجود كله ، هو سر نجاته ، ولكم تساقطت نفسه حطاما ثم عادت إلى النهوض بفضل ذلك البريق من الايمان الذى لازم الحطام . أليس الايمان بهذا المعنى الانسانى الشامل هو ما يمسك النفوس وقد علقت بين الأرض والسماء ؟

ولقد علم فوست أنه من الخير أن نضع لعقلنا حدودا لا يعدوها . وإنه لتحضرنى الآن كلمة لعميد كلية الطب بباريس قال فيها : « إن من إمارات ضعف عقلنا البشرى ألا يستطيع الوقوف عندما هو فى متناوله ، وأن يتطلع إلى معرفة ما خلف عالمنا المحسوس ، وإن فى منبسط الأرض وحقائق الطبيعة ما يكفى لأن يشغل أكبر العقول ، فما لنا نتطاول إلى ما دون ذلك من أصل الوجود ومصدر الحياة وكنه الله ؟ » وهل فى هذا التطاول إلا بذر للشك فى النفوس وبلبلة للايمان ؟ بهذا اقتنع فوست قبل أن يسقط بين يدى إبليس بحقائق معدودات ، إذ فطن إلى أنه من الخير أن نصرف جهدنا فى عمل منتج ، يعود علينا وعلى الانسانية بالنفع . وإنه لأجدى على فوست وعلى البشر أن يقاتلوا البحر دون أرزاقهم من أن تتبدد نفوسهم فى فضاء الأبدية .

ولقد علم فوست أن المرأة باب من أبواب الجنة ، وإليها تسكن النفوس ، فهى مصدر الرضى ، ولكم دعاها من قبل شعراء لتضع يدها المقدسة على قلوبهم الجريحة . ولقد قادت « بياتريس »

من قبل « دانت » فى مجاج الجنة ، ولقد قادت ابتسامة مرجريت فوست إلى جوار ربه • والمرأة عند فوست أو عند جيته رمز لقوتين كبيرتين : الحب والجمال • وقديما قال أفلاطون : « لو أن الحقيقة صيغت امرأة لأحبها جميع الناس » وهل أدل على ذلك من أن تكون خاتمة فوست تلك الكلمات الرائعة : « ها هو ذا عنصر النساء الأبدى يفتح أمامنا أبواب السماء » •

والآن قد نتساءل : هل تتمخض حياة فوست عن يأس أم عن رجاء ؟ ولقد نعود لنستعرض تلك الحياة ، فنجد أنها قد دارت حول ذلك الثالوث الذى طالما تغنى به أفلاطون : ثالوث الحق والجمال والخير ، ثم ننظر فنجد أنه لم يصل لأى منها • ألم يضق نفسا بتلك المعرفة الزائفة التى نجدها فى بطون الكتب ، فاستنجد بروح الأرض — روح الطبيعة — أن تكشف له الغطاء عما تصبو إليه نفسه من أسرار الحياة والوجود • وخشى ضعفنا البشرى يواجه به قوى الطبيعة ، فاستعان بالشيطان ، وجال خلال الأرض كما جال خلال النفوس ، بحثا عن اليقين ، فلم يعد بغير الندم والخسران ؟ ولقد هفت نفسه إلى مثال الجمال يلتمسه فى هيلانة ، فلم يكد يظفر به حتى دلف من بين أصابعه كنسيم رقيق ، فكيف لنا إذا أن نسعى وراء الجمال وقد عجز الخيال نفسه عن أن يقيم هياكله ؟ ولقد اندفعت نفسه نحو الخير ، فأنقذ الأمبراطور من محنته ، وانتزع من البحر أرضا ود لو درت الخير على العباد ، وإذا بثروة الأمبراطور وهم ، وإذا بمجالدة البحر رجس من عمل الشيطان ، فكيف لنا إذا أن نسعى وراء الخير ، وما الخير من وجود فى غير أوهام البشر ؟

إن فى كل ذلك ما يدعو إلى اليأس ، فهل للانسانية إذا أن تولى ظهرها نحو ما ألفت من مثل عليا ؟ هل لها أن تهجر الحق والخير

والجمال ؟ ذلك ما لا نؤمن به ، وما لا يمكن أن يكون الدرس النهائى الذى انجلت عنه حياة فوست . ودليلنا على ذلك أن حياته لم تضع هدراً ، وقد ارتفعت نفسه إلى جنات ربه . وما ذلك إلا لأنه قد آمن بالحق والخير والجمال . فجاهد فى سبيلها ، وكان فى جهاده هذا خلاصه . نعم إن معنى تلك الحياة والأثر الذى خلفته خطى فوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا فى سبيل المثل العليا ، وسيان بعد ذلك أصبنا نجاحا أم إخفاقا ، فالجهاد نبل فى ذاته .

هاملت
Hamlet

(١)

هملت كصورة لفنان كبير تلاحقك نظراتها أينما اتجهت وكأنها تسائلك : أتستطيع أن تفهم من أنا ؟ حدثني عما تظن • و لايهولك ما لطخت به يدى من دماء • وكلنا لا شك قد بلا من أحداث الحياة ما يعرف معه أن النفوس الخيرة ، قد تحمل على الشر ، وما أنا إلا مثل لطغيان الروح على الارادة • ولو أننى بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقمت لوالدى فى غير تردد ، ولكان بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثرا إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus يسوق اسمى بينما من يسوق من ملوك الدانمركة • ولعله يذكر ما كان من محاولتى الانتقام لأبى • وكم فى ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن ، وهوى الكثير ، والناس بعد لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ، ولكن شكسبير قد خلقنى خلقا جديداً وأودع روحى من النفاذ ما أزال أشقى به • ألا ترانى أسلط العقل على ما يجيش فى نفسى ، أتناوله بالتحليل فلا أعود من ذلك إلا بعزم مفلول ، فأثور على محاولة الفهم والاسراف فى القول ؟ وكل تحليل تحطيم ، وكل عزم لا بد متراخ ما أرسلناه ألفاظا » •

هذه مأساتى • ولئن كانت النفوس الفطرية تشقى بأوهامها فتصعب فى كل شجرة إلها يرغب ويرهب ، وفى كل نسمة روحا تحمل الخراب أو العمران ، لأنها لا تستطيع أن تدرك حقائق الأشياء فتتحرر من الوهم ، فاننى لست دونها شقاء ، وقد نفذت روحى إلى كل شىء ، بل نفذت إلى حقيقتها : نفس خيرة ناطت بها الأقدار إراقة الدماء انتقاما لأب كريم ؛ فكيف السبيل ؟ لقد

صحت يوما عندما كشف لى شبح والدى عن الجريمة صيحة يأس : « لقد خرج الزمن عن مجراه ، وإنها لمحنة قاسية أن يكون على رده إلى ذلك المجرى » فحسبت نفوس كبيرة كجيته Goete « إن نفسى أصغر مما نيط بها ، ورأتنى كزهرية — لا شك ثمينة — ولكنها أضيق من أن تحتوى جذور شجرة عاتية ، وما أعدت إلا لرقيق الزهور • ونعت الشجرة فحطمت الاناء » • وأضاف جيته إننى نفس لا شك جميلة خيرة ، ولكنها أضعف من أن تستقل بحمل كهذا ، بل أضعف من أن تستطيع طرحه عنها ، وأننى قد كلفت المستحيل ، لا المستحيل فى ذاته ، بل المستحيل على طبعى • ورأى فيما كان من حيرتى وترددى بين الاقدام والاحجام مأساة نفس لا تزال تائهة حتى تضل عن قصدها ، وكلما ذكرته ذكرت حقيقتها ، فطغت هذه على ذاك ، وأخفت معالمه حتى يصير القصد سرابا ، وما استراحت النفس ولا هدأ الفؤاد ، إلى أن ساقتنى أحداث الحياة سوقا إلى النهوض بما ندبت له •

ولكنى مسائل نفسى : أضعف أن أتردد فى سفك الدماء قبل أن أستوثق من جريمة الجناة ؟ أضعف أن أتردد فى قتل رجل أتيته فاذا به يعبد الله ؟ وهاك تفصيل ما كان :

عدت من فيتنبرج Wittenberg التى تلقيت العلم بجامعتها سنين طويلة إلى السينور Elsinore حيث علمت أن أبى قد مات منذ شهرين ، وتخرت فوجدت أن عمى كلوديوس Claudius قد خلفه على العرش وأنه قد تزوج من والدتى جرترود Gertude • ورأيت فى مرح عمى ووالدتى وتكالبهما على الحياة وعدم ذكرهما لوالدى أو الحزن لوفاته ما نغص على عيشى وألقى الاضطراب فى نفسى ، فاستشعرت وحشة غريبة ، وكان أسرارا غامضة تحوطنى أينما اتجهت • حتى كان يوم ظهر لى وسط ظلام الليل ، وأنا بصحبة أحد الأصدقاء ونفر من الحرس — شبح والدى فكدت أصعق • وقد أخبرنى الشبح بما وافق إحساسى

الغامض • أخبرنى أن عمى قد سكب السم لوالدى وهو نائم بالحديقة ، وأن والدتى قد قبلت الأمر الواقع واستبدلت راضية رجلا برجل ، ثم طلب إلى أن أثأر له بقتل كلوديوس ، وأما والدتى فقد حذرنى من أن أمد إليها يدا بسوء •

صدعت بالأمر وعقدت العزم على الثأر ، ولكن كيف السبيل ؟ ومن حولى رقباء أيقاظ لم أر منهم بدا من أن اتصنع الجنون • وأوجس الملك خيفة من جنونى هذا ، فأخذ يعمل بكل ما يملك من حيلة لينفذ إلى أسرار نفسى ، وقد اتخذت من الجنون ستارا أنثر من خلفه كل حقيقة مرة • ودس المجرم على عيونه يتسقطون نجوى فؤادى أو يحتالون لانطاق مكنون نفسى • وكم قاسيت من أن تكون أوفيليا Ophilia الحبيبة بنت بولونيوس Polonius كبير أمناء الملك — من بين تلك العيون • وفطنت إلى تلك الدسائس فأتلفت على الرقباء مكرهم ، وسخرت من حيلهم • وما ضقت بهم فى شىء ، وإنما أتأنى الضيق من نفسى ، وما أنا بالرجل الساذج الغفل ، حتى أركن إلى شبح رأيته ، وماذا كنت أترك لبسطاء النفوس لو أن الشك لم يتسرب إلى عقلى فيحملنى على أن أضع حديث الشبح موضع النظر والتجربة • وقلبت وجوه الرأى فلم أر خيرا من أن آتى بممثلين يمثلون أمام الملك والملكة رواية جريمتهم لأرى أثر ذلك على وجوههم • وكان ما توقعت فلم يطق الملك صبرا على رؤية جريمته ، وأسرع إلى الانسحاب والرعب يملأ نفسه ، وتبعته الملكة التى أرسلت فى طلبى ، وكان بينى وبينها حوار عنيف لم يؤلمنى منه إلا أنه كان بين ولد وامه •

« دار الحوار بينى وبين أمى فى حجرة تغلق أحد جوانبها ستارة ضافية ، وبلغ من عنف الحديث أن اشتد بى الغيظ حتى لم أعد أملك نفسى ، وقد تحققت من الجريمة ولم يعد للشك مجال • وانسل إلى سمعى حفيف الستارة وأحسست أن من خلفها شخصا يتلقط الحديث ، فهجمت عليه بسيفى هذا ظانا أنه الملك ،

وكم كان أسفى عندما نظرت إليه مضرجا بدمائه فإذا به بولونيوس ، وعلم الله كم كان حزنى لقتل هذا الرجل لا لأنه فى نفسه جدير بأى محبة أو تقدير وهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابى ، ولكن لأنه والد ذلك الملاك الطاهر ، والد أوفيليا التى أحبها قلبى كما أحبتنى .

أسقط فى يد الملك وزادت مخاوفه ، وقد أحس بالموت يرفرف فوق رأسه ، ولما كان يعلم مبلغ محبة الشعب لى وقوة الشبهة التى تلابسه ، كما كان يحرص على رضاء أمى ، لم ير خيرا من أن يحتال على قتلى ، فأرسلنى برسالة إلى ملك انجلترا مع رجلين من رجال البلاط ، وبالرسالة أمر لذلك الملك أن يقتلنى بمجرد وصولى ، فان لم يفعل فالويل له ، وكان رفيقا رحلتى يعلمان ذلك ، وأما أنا فقد أوهمنى الغادر أنه يرسلنى إلى إنجلترا حرصا على حياتى بعد أن قتلت كبير أمنائه ، وكان من حسن طالعى أن توقعت غدره ، فغافلت رفيقى الخائنين وفضضت الرسالة لأمحو اسمى وأضع إسميهما محله ، وكان أن وقعت سفينتنا بين أيدى قراصنة نجوت معهم بنفسى لأعود إلى الدنمارکة ، وأما الرجلان فقد وصلا إلى ملك انجلترا حيث لقيا حتفهما .

عدت ولكن لأرى وأسمع ما ينفطر له الفؤاد ، فقد جئت أوفيليا لقتل أبيها على يد حبيبها وفيما هى تجمع الزهور إلى حافة النهر تردت فيه فماتت غرقا ، وفيما أنا عائد وسط المقابر حيث كان لى حديث حزين عن مصائر البشر مع الحفارين رأيت حفلا مهيبا لم ألبث أن علمت أنه جنازة أوفيليا ، ورأيت أخاها لا يرتس Laerta وقد ثارت ثورته وانعقد عزمه على أن ينتقم منى لأبيه ولأخته ، ورآها الملك فرصة سانحة ليستوثق من هلاكى ، فدبر نزالا بينى وبين لايرتس على أن تكون حربة خصمى مسمومة السنان بزيادة فى الحيطة أعد كأسا دس فيه السم لأشرب منها فيما لو أخطأتنى ضربات الخصم . وكان القتال ، ولضايقنى لايرتس

بضربة قـوية ، ولـكنى تمالكت نفسى وهويت عليـه بكل جسمى فسقطت حـرابنا ، وتنـاولت مسرعا حربة كانت حربتـه وطعنته بهـا أشـد من طعنتـه ، وأسرعت الملـكة إلى شرب نخب ولدها فسقطت صريعة ، وسقطت ، وسقط لا يرتس ، ولـكن منازلى النبيل لم يكد يصارحنى بحقيقـة المؤامرة ، وقـد صفت نفوسـنا على قبر أوفيليا أمام الموت والدماء المراقة ، حتى عادت إلى قواى فنهضت وبذراعى المتخاذلة مـوتا ضربت الملك ضربة يأس أتت على حيـاته لساعته ، ثم أسلمت أنفاسى . وآل ملك الدنمركة إلى ملك السويد الغـازى » .

نعم ذلك ما كان من هملت ، وقـد ساقتـه الأقـدار إلى إراقـة دماء أراقهـا بالفعل سميه فى القرن الثـانى عشر ، أو كان يستطيع إراقتهـا بقلب ثابت غفـل وضمير صامت لا يعـرف النـدم . أما هـو وقد أعاد شكسبير خلقـه من جـديد فى عصر البعث العلمى ، وقـد تبـدل الزمن فأرسلت المسيحية نور الايمـان فى القلوب ، وهـزت أوتار الضمائر ، وجاءت الجامعة فـزادت بمهدها الطويل نفسـه لينـا ، ومـدت من آفاق تفـكيره ، فـكيف له ألا يتردد ويناقش نفسه الحساب مرة ومرة ؟ إنه لمن الطبيعى أن تحجم نفس مهذبة كنفسه ، فى عصر النـور ، عن ارتـكاب جرائم ارتكبها سلفه أيام الظلمـات . وإنه لمن الطبيعى أن يتخـذ شـكسبير من هـذا التعارض بين حقيقة نفسه وشناعة جرمه موضوعا لأكبر ما تصورت العقول من مآس ، ونحن لا بـدمتسائلون عن مبلغ ما حمله خالقه العبقرى من مرارة نفسه ، وقـد استوت ملـكاته وسط أزمة نفسية ما نزال إلى اليـوم حائرين فى فهـم سرها ومـداها ، وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة من شـعره الغنائى (سونت Sonnets) الذى يدور حول ذلك العام عام ١٦٠٤ .

وفى الحق أن هملت لم تنقصه الشجاعة ولا نقصـه العـزم ، وقـد قبـل أن ينتقم لأبيـه بقلب ثابت ، ورأى فى هـذا الانتقام

واجبا مقدسا : ألا تراه يخف إلى لقاء أبيه وقد فرقت قلوبه الرجال من حوله وتعلقوا به أن يمسك عن السير وراء الشبح عندما لاح له طالبا أن يتبعه ؟ وكيف يتراجع وهو القائل : « سأتحدث إليه إن ظهر فى صورة والدى النبيل . سأتحدث إليه ولو انشقت أمامى أفواه جهنم تصيح بى أن الزم الصمت » . وظهر الشبح ووجه إليه همات الحديث ، وأومأ إليه الشبح بالمسير خلفه ، وما إن حاول رفاقه أن يثنوا من عزمه حتى صاح بهم : « فيم الخوف ، والحياة عندى لا تساوى قلامة ظفر ؟ وأما عن روحى فبأى اذى يستطيع ان يصيبها وهى مثله خالدة ؟ آه — ها هو يومىء إلى من جديد . وإنى لسائر فى أثره » .

نعم همات شجاع ، وله من الشجاعة كل مظاهرها ، حتى نقد يومى نفسه بالهدوء :

« هدوءا أيتها النفس . إن الجرائم لا بد ظاهرة إلى وضح النهار ، ولو غطتها الأرض قاطبة لتخفيها عن أعين الناس . هدوءا أيها القلب ... » .

ولكن حماسته — لسوء الطالع — لا تليث أن تتبدد حطبا . تراه يتلقى مهمته من فم الشبح بخطبة عنيفة يخشى أن تكون قد استنفدت كل ما فى قلبه من حرارة ، فيتناول قلما وقرطاسا ليدون وصية الشبح له « بأن يذكره دائما » حتى يراها أمام عينيه ، فيضمن بذلك أن تتبع الأفعال الأقوال :

« يا أرواح السماء ! أيتها الأرض ! وأنت يا ، .. ماذا أضيف ؟ أأضيف جهنم ! آه ! تماسك أيها القلب . وأنت أيتها الأعصاب حذار أن تدركى الشيخوخة لساعتك ! هيا ارفعى من قامتى ! أذكرك ؟ ! نعم أيها الشبح المسكين ، سأذكر ما احتفظت الذاكرة لها بمكان تحت هذه الجمجمة الحائرة ! أذكرك ؟ ! نعم سأذكرك ! بل سأمحو من ذاكرتى كل ما علق بها من أحاديث الهوى التافه أو قضايا الكتب ! سأمحو منها كل صورة وكل

ذكرى للماضى خطها شبابى أو تلقتها حواسى ، غير تارك على صفحات ذهنى إلا وصيتك منفردة عن كل ما يحوطها فيحط من قدرها • نعم بحق السماء • أيتها المرأة الخبيثة ! أيها الوغد المجرم المقضى عليه بابتسامة نفاق لا تزول ! إلى بألواحى • إنه لمن الخير أن أدون بها أنه من الممكن أن نبتسم ونبتسم دائما ، ولا نكون رغم ذلك غير أوغاد ، إنى لعلى ثقة من ذلك ، على الأقل بالدانمركة ، (يكتب) هأنذا عمى ! والآن إلى قسمنا • (وداعا وداعا • أذكرنى دائما) وهأنذا اتخذ من كلمتك هذه قسمى » •

أى عنف أشد من عنف هذه النفس القوية ؟ وأى قول أحمى من هذا القول ؟ ولكنها نفس يائسة نظرت إلى أعماق نفوس البشر فلم تر إلا ظلاما ، وارتد بصرها إلى مكنونها ، فاتخذت منه وقودا لسخطها • ولكم ثار هملت على نفسه ، ولكم خطب ضد خطبه • ولقد أتاه يوما ممثلون يحاكون ما كان من حزن إيكيبا Hecuba ملكة طروادة لموت ولدها البطل هكتور ، ويذرفون مثل ما ذرفت من دموع ، فاذا بتلك الدموع كأنها سياط تلهب من نفس هملت « آه • يا لى من نذل مسف الفؤاد ! يا للعار ! هذا الممثل يستطيع بمجرد التصور أن يحيا حلما من الاحساس ، فيرغم روحه على أن تجارى خياله ، فيتمثل له الخيال حقيقة ، حتى لا يشحب لونه وتتساقط منه الدموع ، وكل ذلك لغير غاية ! أكل ذلك من أجل أيكيبا ؟ ! وأى صلة بينه وبين أيكيبا أو بينها وبينه ؟ ! وماذا كنت تراه إذا فاعلا • لو أن ألمى كان ألمه ؟ ! ••

« أى نذل أنا ! وكيف لا أكونه ، وها هو قلبى الهش كالطمى يغرسنى هنا فى مكانى شبحا ينتظرنى وحى السماء ، وقد تقاعدت عن غايتى ! إن اللسان لينعقد فى فمى ، ينعقد عن التحدث عن ملك كريم سلبته يد أثيمة تاج الملك ونعمة الحياة • أجبان أنا ؟ ! •

« ••• إنه لمن الواضح أنى لا أحمل غير كبد حمامة ، وأن هذه الكبد قد عريت من مرارتها تجابه بها الظلم كما ينبغى أن

يجانبه ، وألا لأشبعت منذ زمن بعيد بطون الطيور الجارحة بجثة هذا الوغد الحقير ! أيها الوغد الملطخ بالدماء ! أيها الوغد الفاسد الطبع الفاسد النفس ! أيها الضمير الميت ! آه ! الانتقام ! آه ! أى حمار أنا !! يا لها من شجاعة ! شجاعتى تلك التى تدفعنى أنا الابن الذى مات أبوه العزيز قتلا ، وصاحت به جهنم والسماء : إلى الانتقام ، ثم ها هو يهدىء من ثورة قلبه باللفظ المسرف ، يبدد قواه لعنات كنذل حقير ! ما هذا ؟ ! ما هذا ؟ ! إلى العمل ! إلى العمل ! توثبى أيتها الروح ؟ » وكيف لتلك الروح أن تتوثب وقد انحل عزمها ثورة ألفاظ ؟ .

واستمر هملت فى شقائه النفسى . ولكم من حدث أثاره ضد نفسه ؟ أو لم ير يوما ملك السويد الشاب يجتاز أرض الدانمركة ليصل إلى بولونيا ، ينتزع من أهلها بضعة أميال من أرض جدباء فصاح : « أنسيان كنسيان الحيوانات ؟ أم تحرج الجبن ، جبن نفس تطيل الامعان فيما تريد أن تأتى من عمل قبل أن تأتيه فتحطمه إلى أفكار ربعها حكمة وثلاثة أرباعها جبن . وفى الحق إنى لأتساءل . فيم توقفى الآن ؟ أحاسب النفس : أينبغى أن أفعل هذا أو ذاك ؟ وفيم التساؤل والقصد واضح ولى من الارادة والقوة ووسائل التنفيذ ما يمكننى من إنفاذ ما أريد ؟ ... كيف أتقاعس أنا الذى قتل أبوه ودنست أمه ، وفى ذلك ما يكفى لاثارة كل حفيظة وتحريك كل نفس ؟ وها هم آلاف الرجال يسيرون إلى قبورهم وكأنما يسير كل إلى فراشه ، والموت معلق فوق رؤوسهم ، وكل ذلك من أجل وهم خادع ومجد باطل يلتمسونه من الاستيلاء على قطعة من الأرض تضيق عن أن تتسع لخطاهم أو أن تضم جثثهم . آه ! لتكن روحى من الآن فصاعدا دما أو لا تكون شيئا » .

هذا هو هملت كما يرى نفسه . وإنها لرؤية مخيفة ، وإن فى عنف قوله لأوضح دليل على ما يثير هذا القول فى قرارة نفسه من خزى . أو ما تراه يطعن بالألفاظ وقد عز الطعن

بالسنان ؟ يا له من مشهد مؤلم ، ذلك الذى نراه فيه يكيل لوالدته السباب وقد أعفاه شبح والده من أن يثأر له فى شخصها ؟ وإنه لمغتبط بذلك الاعفاء ، وإن تكن غبطته على غير وعى منه . ومن عجب أن يتكالب على قتل أمه بقاسى اللفظ ، وقد أمره أبوه أن يترك لها الحياة ، بينما يتوانى فى قتل الملك المجرم الأصيل . ولكن عنف نفسه يلتمس له مخرجا ، فيتبخر ألفاظا ، حتى تكون مناسبة أخرى تحفزه إلى العمل ، ولو لا تضافر الأقدار ما ارتكبت تلك النفس جرما قط .

لقد قيل إن هملت متردد ، ولكنا نتساءل عن معنى ذلك التردد ، وقد استمعنا إلى أقواله فلم نجده — وهو اللبق النافذ البصيرة — يحاول أن يقنع نفسه بالعدول عما كلفه به شبح أبيه من انتقام . وإذا كان هذا شأنه فكيف لنا أن نسميه إذا بالتردد ؟ إن عزمه لثابت منعقد ، وإنه لوفى مخلص لما يريد . ولكنه للمرور من العزم إلى التنفيذ ، ومن الاخلاص إلى العمل لا بد من عبور هوة سحيقة تتطلب قوة لا نحسب أنها تعوز هملت ، ولكنه مغلول الأيدى بقوة أخرى لو أنها أتته من الخارج لحطمها شظايا ، ولكن كيف السبيل إلى الخلاص ، وقيوده من نفسه ؟

(٢)

لقد كان على هملت المهذب النفس النبيل الخلق والواسع الادراك، أن يرتكب جريمة كانت ترتكب فى عهود الجهالة الأولى ، ولقد ترتكب اليوم ، ولكن من نفس غير نفسه . ولكم تحدث إليه عمه القاتل المجرم عن قواعد الأخلاق وما يطلب إليها من أن تكون لحمة الحياة الاجتماعية تعسكها عن التفكك والانهيار . وإنه ليعلم نفاق ذلك العم الذى داس تلك الأخلاق تحت أقدامه عند ما كان فى ذلك نفعه وهوى نفسه ، ولكنه رغم ذلك لا يستطيع الافلات من تلك القيود التى درجت عليها طفولته وشبابه ، فهو ثائر خاضع

لا يدرى أى سبيل يسلك • وقد ألقت إليه تربيته الأولى • وتفكيره المتصل ، والكتب الكثيرة التى قرأها فى سنى دراسته الجامعية الطويلة بمعانى العدل والحرص على التمكن من الحقيقة ، ولكن كيف له أن يصل إلى ذلك والجرائم من حوله تحاك خيوطها غدرا ، وقد تلفت النفوس بما يصطخب فيها من كذب ومكر وخداع ، حتى أصبح العدل حلما ، وأضحت الحقيقة وهما ؟ ولكنه رغم ذلك متسائل • ترى أصدق الشبح ؟ وهل من العدل أن نقتل نفسا بشبهة لما سمعناه من ذلك الشبح الذى لم نره إلا وسط غياهب الظلام ؟ لهذا تردد هملت وأرجأ الانتقام إلى أن يستوثق من جريمة المجرم فى حفلة التمثيل التى دبرها أمام أعين الملك والملكة الذاهلة المضطربة • وكان هذا إرجاء لتنفيذ ما اعتزم ، وما جريرته فى ذلك وقد خلق كألسست Alceste يأبى الاباء كله أن يصدر عن غير الحق والايمان ، فاذا اعوزه اليقين فلينتظر وليكن ما يكون • وما إن ظفر بما ينبغى من ثقة حتى أسرع إلى والدته يعنفها بأمر القول • وما إن أحس بحركة خلف الستار حتى انقض على من خلفه يقتله ، فاذا به لسوء الطالع بولونيوس Philinte لا الملك نفسه • وتأبى عبقرية شكسبير أن يقتل هملت وجها لوجه ، بل من خلف ستار ، حتى لكأن تلك النفس المهذبة تسمو عن أن تريق الدماء مسفرة •

ولقد تتعقد الأمور فيتوقف هملت عن إنفاذ عزمه ، لا لوهى من ضميره ، ولا لحرص على الحق والعدل ، بل لاحساس دينى عميق ، إحساس الذى يعلم أن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وقت الصلاة ، ولقد رأى هملت قاتل أبيه منفردا فى الصلاة وكانت فرصة سانحة للاجهاز عليه ، ولكنه لم يفعل • وهاك حجته •

« ها هو يصلى • إن باستطاعتى الآن أن أرسله إلى العالم الآخر • وإنى لفاعل ذلك •• آه ! إذا اذهب إلى الجنة ، ولكان انتقاما عجيبا ! التفكر فى الأمر : يقتل مجرم أبى ، ثم آتى أنا ،

ولده الوحيد ، فأرسل هـذا المجرم إلى الجنة ؟ ايا للـه !! إن هـذا ليس انتقاما ، بل مكافأة طيبة على جرم فظيـع ، لقـد قتـل أبى بقسوة وحشية ، ولقـد أثقله الهضم فنـام • وتناثرت من حـوله خطاياه كما تتناثر ورود الربيع ، وأما عن حسابه كيف قدمه بين يدى ربه ، فذلك ما لا يعلمه إلا اللـه ، وإن كان أكبر الظن أن حسـابه جاء عسيرا ، ثـم آتى أنا فأعتقد أنى قـد انتقمت له بقتلى هـذا الرجل وهو فى سبيل تطهير نفسه ، وقـد أخذ يعدها لرحلتها الأخيرة أحسن إعـداد ؟ ! لا • إلى النعمـد أيهـا السيف حتى تحـين لك ضربة أشـد من هـذه هـولا ، عنـدما يـكون سـكران أو نائما أو مقامرا أو سـاخطا على خالقـه ، أو معنيا بأمر لا يحمل ذرة من الفضيلة التى تنجو بصاحبها ، عندئذ يحق لك أيها السيف أن تضربه ضربة تجعله يصعد إلى السماء بأعقـاب أرجله ، فتهـوى نفسـه وقـد تكاثف بها من الظلمات قـدر ما يتكاثف فى جهنم » •

وفى الحق إنهـا لحجج غـريبة معقـدة • فيهـا رقة الايمان ، وفيها قسـوة الرغبـة فى انتقام مر • وكان هـذا إحجاما آخـر عن تنفيذ ما اعتزم •

كل هؤلاء مشاعر نفسية تعـوق همليت عن العمـل ، وفى بصيرته من الموضوع ما ينير جوانب نفسه ، ولكنه ضوء يكاد يعشى الأبصار ، هو ضوء الهذيان ، ضوء نفس قـد تفتحت أمامهـا أبواب العـالم الآخر فرأت أشباحه فاستحالت حياتهـا حلما مستمرا لا يراه أحـد غيرها ، لأن أحـدا لا يشاركها تلك الحياة ، فهى فريدة فى بابهـا • وهل أدل على ذلك من حـديث أوفيليا Ophilia عنـه وقـد لا قاها بيهـو القصر « لقـد أخـذنى من معصمى وضغطه ضغطا قـويا ، ثم ارتد عنى إلى الخلف طـول ذراع ، ورفـع يده الأخرى مفتوحة فـوق حاجبيه فيما يشبه حافة القبعـة ، وأخـذ يحـدق فى وجهى بامعـان حتى لـكأنه يريد ان يصورنى ، ومكث وقتا طويلا فى هـذا الوضـع ، ثم هز ذراعى قليلا ،ورفع رأسـه وخفضه ثلاث مرات

متتابعات ، هكذا ، وأرسل زفرة حزينة عميقة خلتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ثم خلى سبيلى وسار عنى ورأسه ملتفت إلى ، واستمر فى السير بغير حاجة إلى عينين تنيران له الطريق ، وبصره معلق بى ضياؤه حتى اختفى » .

وظنت أوفيليا به الجنون ، ولكننا لا نعلم بعد أكان مجنونا حقا أم هو هذيان نفس محمومة ! بل من يدرينا ؟ لعل موقفه هذا من أوفيليا كان إسرافا فى شعور حقيقى أراد منه إلى إقناعها بما يتصنع من جنون يتخذ منه وسيلة إلى الافلات من رقابة تلك العيون التى بثها من حوله عمه الملك وانتى كانت أوفيليا إحداها ، إذ أوهمها أبوها والملك ان هملت قد جن بسببها ، وإن من واجبها أن تقوم عليه ، وأن تخبر عما تلاحظه من أعراض شاذة يجب أن يسارع الكل إلى علاجها .

وفى الحق أن هملت قد وجد فى تصنع الجنون شهوة عجيبة ! لقد خيل إليه أنه يحيا حلما مستمرا ، أو يلعب دورا أخاذا ، وأن روحه لروح فنان تعشق الفن وتفنى فيه ، وأى متعة أجمل من أن نتصنع الجنون لنقول كل حق ونحطم كل مواضعة ، ونملأ الوجود بكل قول لاذع يكشف عما فى الأشياء والناس من قبح لا شك فيه ؟ وإن فى قول هذا المجنون لحكمة تنطق الأبله بولونيوس بقوله : « عجيب ما فى إجاباته أحيانا من عمق ! ولكم جرى الجنون بحكم يعجز العقل والعافية عن مثلها » . أى نشوة تعدل نشوة هملت ، وقد أخذ يهذى حتى لاح هذيانه حكمة ؟ ترى أيكفينا إذا أن نسمو فوق منطق البشر المبتذل وعدلهم الموتور وحقائقهم الزائفة لنلوح مجانين ؟ .

إن فى تصنع هملت للجنون لعجبا ، حتى ليحسب الحمقى ضحكاته تكشير مجنون عن أنيابه ، وهى بعد سخرية رجل ممتاز من حماقاتهم . أو لا ترى إلى أحد رجال البلاط وقد أخذ يحتال عليه ليعرف سر نفسه فلم يحظ منه بجواب غير هذا .

هملت — أتعرف كيف تلعب على المزمار ؟

رجل البلاط — لا يا سيدى ، فما عهدت اللعب على هذه الآلة .

— ولم لا واللعب عليها أسهل من الكذب ؟ ما عليك إلا أن تضع بأحكام أصابعك وإبهامك فوق تلك الخروق ، وأن تنفخ فى الغاب ثم تستمع إلى موسيقى عذبة . انظر ! ها هى المفاتيح ! .

— ولكنى يا سيدى لا أستطيع استخدامها بحيث تعطى صوتا منسجما ، وذلك ما لم أوهبه .

— إذا أى رأى تظن بى ؟ تريد أن تتخذنى ألعوبة لك وقد لاحت عليك رغبة فى معرفة مفاتيح نفسى ، تحاول أن تصل بها إلى سرى الدفين ، وأن تحمل أوتار روحى على أن تعطى نغماتها على طول السلم ، ثم تعجزك هذه الآلة الصغيرة فلا تملك أن تحملها على أن تجود بما لديها من نغمات عذاب ؟ أتظن إذا أنه من الأسهل أن تلعب بى عن أن تلعب بالمزمار ؟

وأحس هملت فى هذا الحوار وأمثاله — وما أكثر ما حاور — بضرب من التفوق على الغير ، تفوقا وجد فيه من الرضى ما طامن من سخطه على نفسه وضيقه بتقاعده عن العمل . وكيف لا يطرب للعب بالأفكار والتغلب على الرجال وقد نمت ثقافته نموا حمله على التحمس لكل فكرة يرسلها سافرة أو يطويها مستترة خلف ما ينشر فوقها عامدا من أغشية الجنون . هملت من رجال الفكر ، وهملت فنان يلعب دورا ، وقد انغمس فى الأفكار كما انغمس فى الدور الذى يلعب ، فألهاه ذلك عن واجب العمل .

أو ما ترى عندما يطول عهدنا بالدرس فنستمر فى تقليب الأفكار بعد أن يكون عهد العمل قد حان ، كيف أننا نفقد القدرة على العمل السريع الحاسم ، وننفق أوقاتنا فى التفكير فيما نعمل ، أو ما نريد أن نعمل ، نتناوله بالتحليل وتحديد ما بينه وبين أنفسنا من علاقات أو بينه وبين قواعد الأخلاق ومواضعات

الجماعة ؟ وكذلك كان هملت ، فقد اتخذ من التفكير فيما يعرض له عيدا من أعياد الذكاء ، وإنه ليحلو له أن يقيم من كل جزئية حكما عاما أو مبدأ شاملا ، وإنه ليمر عند عودته من انجلترا باحدى المقابر ، فيتمهل نبيادل الحفارين حوارا عن مصائر البشر ، فيه من العمق ما يفزع ويملأ النفوس مرارة ! أو ما تسمع إليه يتحدث عن الاسكندر الأكبر ، وقد ذكره به ما يرى من جماجم :

« مات الاسكندر ، ودفن الاسكندر ، وارتد الاسكندر ترابا . والتراب من الأرض ، ومن التراب يصنع الملاط ، ولكن لم إذا لم يستخدم ذلك التراب فى سد برميل بيرة بدلا من حلق الاسكندر » .

وطال بهملت هذا التحليل والبحث وراء الممكنات — مقدمات ونتائج — حتى شقيت حياته وتفككت ، وحتى لم يعد يعلم ماذا يأتى وماذا يدع ، بل ما سر وجوده فى هذه الحياة أو حرصه على البقاء بها ، وتلك حالة نفسية يستحيل أن نعمل معها شيئا . ومن هنا لا يذكر نجواه المروعة :

« كيف السبيل ؟ أموت أم حياة ؟ ! ذلك موضع النظر وما ندرى بعد أيهما أنبل : أن نتلقى صاغرين سهام القضاء الجارحة ، أم ننهض لأمواج المحن ندافعها فندفعها ؟ وهل الموت إلا نوم يضع حدا لآلام القلب وجراح الجسم التى لا عداد لها ؟ أليس فى ذلك ما يغرى ؟ الموت نوم قد تتخلله الأحلام ، ولكن آه ! ترى أى أحلام تكون وقد طرحنا عناء الحياة ؟ ذلك ما يدعونا إلى التردد ، وإن يكن فيه ما يمد من أجل محنتنا ، إذ من هذا الذى يستطيع أن يحتمل سياط الزمن وازدراءه وظلم الظالمين وصلف الكبرياء ، ووخزات حب عاثر ، وبطء تحقق العدل ، ووقاحة ذوى الأمر ، وإعراض من دوننا قدرة ، وهو يعلم أن باستطاعته أن يضع حدا لكل ذلك بضربة سيف ؟ ! من هذا الذى يقبل أن يحنى ظهره للأثقال وهو يئن ويتصبب عرقا من عبء الحياة لولا خوف ما بعد

الحيـاة ، ومن بعدها بقـاع مجهولة لم يعـد منهـا مسافر قط ؟ خوف يفل منـا الارادة ، فنفضل راضين آلاما نعرفهـا على آلام نجهلهـا » .

وهكذا ما يزال هملت ينعم النظر فى الحيـاة ويستوضح كنههـا ، بل وما بعـد الحيـاة ، حتى تتساقط من نفسه كل القيم ، ويدلف إلى الايمان بالعدل المطلق إن كانت نفسه لا تزال تستطيع إيمانا . ألا تراه يتنكر لذلك الحب الساذج الذى خيل إليـه يوما أنه مؤمن به راض عنـه مطمئن إليـه ؟ ! اسـتمع إليـه يخاطب أوفيليـا التى طالمـا سألهـا أن تدعو اللـه فى صلواتها أن يغفر له ما أخطأ فيـه .

« إلى الدير ! .. فيم حرصك على أن تصيرى أما لآثمين ؟ ها أنا فيمـا أظن رجل شريف ، ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى بآثام يخيل إلى معها أنه ربمـا كان من الخير أن لم تلدنى أمى . وأنا رجل مسرف الكبرياء ، مأخوذ بشهوة الانتقـام ونزعات الطموح ، رجـل قـد أخـذت بتلابيبـه مغريات بالشر أكبر من أن يحتويهـا فـكر أو يتصور خيـال أو يتسع لتحقيقهـا زمن .. أى نفع يرتجى من رجل مثلى يزحف بين الأرض والسماء ؟ ! إننـا جميعا أوغاد جبناء . حـذار حـذار أن تثقى بأحـد منـا ! هلمى ! حثى الخطى ! إلى الدير ! إلى الدير ! » .

أى مرارة أقسى من تلك ؟ ! وماذا يستطيع رجل نفـذت بصيرته إلى أعماق الحياة فلم ير فيهـا إلا ظلاما ؟ ماذا يستطيع رجل حطم عقله حيـاته ؟ ! ماذا يستطيع رجل فقـد الثقـة فى كل شىء ؟ ! .

هنا بلغت مأساة هملت أقصاها ، وقـد آمن أن لا خير فى الحياة ، ولا خير فى وجوده بهـا . وإنا لمتمسون له العـذر ، فتشاؤمه لـه ما يبرره ، وإنه لتشاؤم نفس كبيرة !

هـذه مأساة هملت ، ولكم كثرت من حوله الأقاويل : فمن قـائل إنهـا مأساة جنون ، ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقـام ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد • وفى الحق إنهم لمخطئون •

ليست مأساة هملت شيئًا من كل هـذا ، وإنمـا هى مأساة رجال الفكر ، أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شىء ، فنفـذت بصائرهم إلى حقائق الحيـاة ، وتشعبت بهم أوجه الرأى فتحطمت بين أيديهم حيـاتهم التى اتخـذوها موضعـا للدرس والتحليل • ألا ترى إلى بسطاء النـاس كيف لا يرون من الأشـياء إلا جانبـا واحـدا ، فيسرعون إلى تنفيـذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الكبيرة فى كل أمر ألف جانب وجانب ، فمـا تزال أحيـانا حائرة مترددة حتى تقف فى مكانهـا إلا أن يكون قضاء محتوم •

ألسست
Alceste

ألسست بطل كوميديا لموليير اسمها « عدو البشر » ، ولكن هذا العنوان لا يستنفد كل ما اجتمع لتلك الشخصية من صفات . وإلى اليوم لا يزال الناس يختلفون فى الحكم على هذا الرجل : فمنهم من يؤيده ومنهم من يضحك منه . وفى الحق إنه لأمر شاق أن نعرف أى الطريقين نسلك : أنحيا حياة ألسست موطدين العزم على ألا نقول إلا ما نؤمن به ، بل وأن نقول كل ما نؤمن به ، ولو كان فى ذلك شقاؤنا ، وأصبحنا به موضع سخرية الناس أجمعين ، أم نصانع الناس وندارىهم وننزل على مواضعاتهم الاجتماعية مهما يكن خلفها من ملق ونفاق كما فعل « فيلانت » Philinte صديق ألسست فى نفس المسرحية ؟ .

ولو أننا سألنا موليير نفسه جوابا لحيرتنا للزم الصمت قائلا : « دونكم وقائع الرواية ، أنطقوها بما شئتم ، فما أنا إلا مصور بالقلم ، وقد أتيتكم بصورة من الحياة ، لى فيها من الفضل ما لكل مصور فى اختيار الموضوع وتوزيع الظلال والأضواء وتحسس كل لون دال . ولو أننى كنت على بصيرة من حكم أستطيع أن آتيكم به لفعلت ، لكنى مثلكم حائر لا أدرى أى سبيل أسلك ، فيالكم من كسالى ! لقد فتحت بصرى على الحياة فرأيت ألسست يتخبط خلالها ، ورأيت الناس يضحكون منه ، وإن يكن فى خلقه وفى قوله ما يدعو إلى التفكير العميق ، وحاولت أن أتخذ منه موقفا يحمل حكمى عليه أو له فلم أستطع ، ولهذا أتيتكم به لتروا ما رأيت ولكم أن تحكموا بما تريدون . وأما أنا فلا أطلب إليكم إلا أن تعفونى من المصارحة برأيى ، فقد رأيت الصراحة تؤدى بأهلها إلى التهلكة . ولا أزال أذكر ما كان من تكالب رجال الدين ضدى عندما عرضت على الجمهور أمر ذلك القسيس « ترتيف »

الذى هداه نفاقه إلى استغلال سذاجة البشر أشنع استغلال ، فهاجت ثائرتهم ، وكأنى بكل منهم — شأن من لايثق بنفسه — قد خشى أن يكون هو ذلك القسيس .. وأنا الآن فى أزمة نفسية تكاد تهد كيانى . فهاهى زوجتى تجتمى وراء المجاملات الاجتماعية لتثير فى نفسى الغيرة تكوينى بنارها كيما . ألا دونكم ما كان من أمر السست ، فاقضوا فيه بما ترون ، وأما أنا فيكفينى جهدا ما كان من رؤيتى ما هو واقع تحت بصرنا كل يوم ، وما كل مبصر بصير » .

ولكنا قد نعود فنسأل : ترى كيف يعرض موليير السست عدوا للبشر ، وتلك جريمة شنيعة ، ثم لا يعد له من جزاء غير الضحك يثيره فى نفوس الناظرين ، وإن كنت أحسب أن منهم من لا تطاوعه شفتاه ؟ يا للعجب ! رجل يكره البشر ثم لا يورده البشر حتفه ! ما السر فى ذلك ؟ لعل البشر على حمقهم قد ألهموا أن من يقسو عليهم قد يكون أرفق بهم ، وأحدب عليهم ، ممن يطالعهم بابتسامة تطول ملازمتها للشفاه حتى تفقد كل ما لها من معنى . ولعل أحدا منهم يصيح مع روسو : ليس عدوا للبشر من يفضح عيوبهم ويهاجم رذائلهم فما يفعل ذلك إلا لعنايته بأمرهم ، وإلا لجاز أن نعتبر أن الأب العطوف يحب أبناء الآخرين أكثر من أبنائه هو لأن نقائص هؤلاء تثيره بينما يسكت عن نقائص الآخرين . وإنما يعد عدوا للبشر ذلك الذى يصافق الكل ويروقه كل ما يرى ، فيكون فى موقفه من الناس ما يشجع الأشرار على شرورهم ، ويتملق فيهم تلك الرذائل التى تهد من كيان المجتمع . تراه يطن رضاه عن كل ما يرى ويعتبره حسنا ، لأنه لا يحرص على أن تسير الأمور إلى الأحسن ، كما يصيح باعجابه بالكل لأنه لا يأبه بأحد . ينكر أن من الناس من يتضور جوعا ما دام هو جالس إلى مائدة حافلة ، ويستنكر أن يدعوه أحد إلى عون فقير ما دام جيبه مليئا . يغلق منزله ليرى من النافذة غيره يسرق ماله ، أو تقطع

أوصاله ، وما عليه من كل ذلك وقد وهبه الله رقة فى القلب يتحمل بها آلام الآخرين !!! وما له يحرك ساكنا ، أو يصل انشر إلى جيب يثوى ؟ ومثله مثل ذلك الايرلندى الذى أخبر يوما أن النار قد شبت بالبيت الذى يسكن فأجاب : وما يعنينى من هذا وما أنا بمالكه ؟ ! حتى إذا وصلت النار إلى فراشه ، انطلق يعدو ويصيح ، وقد أخذ يدرك أنه من الخير لنا أن نعنى بأمر البيت الذى ناوى إليه ، ولو لم نكن له مالكين » .

ذلك ما قد يقول قائل منهم ، وإن كنت أخشى أن ينهض خلف من بينهم فيحاجهم ببعض ما قال زوسو نفسه ، ذلك الرجل الذى نفذ إلى خفايا النفس البشرية لطول ما أمعن النظر فى نفسه الخاصة ، إذ قال : « إننا كثيرا ما نتسقط عيوب الغير ، ونبحث عن دوافعهم الخفية التماسا للذة نجدها فى الكشف عن فساد نفوسهم فنرضى عن أنفسنا » ولعله يضيف : « ونحن بعد نحيا فى مجتمع ، فلا بد لنا من النزول على مواضعاته ، وقد جرت سنة البشر على أن يجامل بعضهم بعضا ، وأن يتكمل بعضهم بعضا ، وما كل قول يقال . وإنها لضرورة من ضرورات الحياة أن نتافق أحيانا ، وأن نوارى ونخادع ونداهن ونكذب إن أردنا النجاح فى الحياة . وهبنا نكره هذا الفرد أو ذاك ، أما علينا أن نتصنع ابتسامة نلقاه بها إن لم يكن بد من لقائه ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الابتسامة التى نروض أنفسنا عليها تصبح فينا طبعا يحملنا على احتمال من نكره » . ذلك ما قد يقوله الخب ، وأهول ما أخشاه أن تناصره كثرة الناس ، وقد أورثنا ما نملك من ذكاء جبنا فى النفس ما له من علاج . نعم ، الذكاء ، وهل الذكاء كما يقولون إلا قدرة على ملابسة الواقع والنزول على حكمه والميل معه أينما سار ؟ وهل أخبث منه ملكة وهو يلتمس لكل خطيئة من خطايانا مبررا يسكت به صوت الضمير ، أو نفعا يكم من الأفواه ؟ ومن هنا لا يذكر قول برجسون : « إن الدين والأخلاق ما هما

إلا رد فعل تنهض بـه الغرائز لتقوم ما ينزله بنـا الذكاء من تقويض لدعائم الجماعة وهدم لمقوماتنـا الشخصية ؟ » على أنه إن يكن لنـا عزاء فلا أراه فى غير تلك الحقيقـة الجميلة : وهى أنه لا يزال ولن يزال هناك نفر قليـل هم هدى البشر وطلائعهم ، قـد أودع اللـه فى قلوبهم نارا تحرق ذلك الذكاء المدمـر ، نفـر يصمـدون فى الحق يرفعون ألويتـه ، وما يعنيهم أسخر النـاس منهم أم أعجبوا بهم ، وفى عملهم هـذا من النبل ما يجعـله حمقـا أن نتهمهم بأنهم إنمـا يبتغون مع الحق ويجرحون نفـاق المنافقين التماسا للذة يجدونهـا فى التفوق على الغير .

من هـذا النفر فيمـا أعتقـد ألسست . والآن وقـد شـوقتك إلى معرفة ما كان من أمره فلأحدثك عن فعـاله لنشترك فى الحكم سـويا .

ألسست فى الخامسة والعشرين من عمره عنـدما تبـدأ مأسـاة حيـاته . دلف إلى الوجود بضمير نقى صلب ، وقـد وطد النفس على مطاردة الكذب أنى كان ، وعلى الجهـر بالحق فى كل مجـال . ولم يغب عنـه أن الكذب ملء الآفاق وأن مهاجمتـه تتطلب جهـدا لا ينقضى : ولقـد حدث عمـا فى قول كل الحق من خطورة على قائله وعلى الغير ، ولكن قوة ضميره تأبى أن تلين . ومن غرائب المصادفات ، بل قل ومن أمارات غموض النفس الانسانية ، أن أولع هـذا الساخط المتزمت « بسيليمين » : امرأة لعوب تتصيد إعجاب الرجال وكلمـات إطرائهم ، على نحو ما يجرى فى الأوساط « الراقية » ، وقـد اتخذت لذلك عدته ، ففى حركات وجههـا وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما فى ألوان وجههـا وأصباغ شعرها . فلئن كان ألسست ضميرا ينطق بمكنونه صادقا صريحـا ، فسليمين أكذوبة اجتماعيـة تتحرك !! ومن عجب أن يحبهـا لعيوبهـا ، ولكنه ساخط على نفسـه ، إذ حمله هـذا الحب على أن يغضى عن مبادئه ، ولكم كان أجـدر به أن يتخير لحبـه امرأة تتمشى وآراءه . أما وقـد

ساقته نفسه إلى غير ما ينبغى له فليحاول إصلاح تلك المرأة وليقل لها فى صراحة وحزم ما يؤلمه من أمرها .

على هذا وطد ألسست عزمه . ها هو يسير إلى بيت « سليمين » فيعثر فى الطريق بصديقه « فيلينت » — شاب من سنه أتى الحياة بنفس راضية تقبل الناس كما هم ، يبتسم لكل من يلقى ، ويجامل كل من يصادف بمهارة تمكنه من الحياة وسط الأكاذيب الاجتماعية فى يسر لا يعدله يسر .

ووصل الصديقان إلى بيت سليمين فلم يجداها ، فهاجت هائجة ألسست ، وأما فيلينت فتلقى الخبر بابتسامة راضية ، ودخل الرجلان إلى غرفة الجلوس حيث انتحى ألسست ركنا ، وقد عبس وجهه وأمسك برأسه بين يديه كأنه يمسكه عن أن يطير شظايا ، وكان فيلينت يعلم منه ذلك ، ولكنه رآه هذه المرة أشد عبوسا مما عهد . ألم يأت ألسست هذا اليوم خصيصا لينفض ما فى نفسه وقد نفد صبره وأزمع على أن يصل مع سليمين إلى أمر صريح يرضاه ؟ أتى بعد أن أعد ما سيقول ، وإنه لفى لهفة لأن يقول ما أعد ، ولكن لمن يقوله وسليمين خارج البيت وهو لا يدرى أين تكون ؟ .

وهال فيلينت ما يرى من ضيق صاحبه فسار إليه مربتا على كتفه متسائلا :

فيلينت : ما بك ؟ ما الأمر ؟ .

ألسست (متمتما دون أن يحرك ساكنا) أرجوك ! .. اتركنى لشأنى !

ولكن فيلينت يلح عليه فى السؤال فيصيح ألسست مغضبا . دعنى وشأنى — قلت لك — اختف عن بصرى !

وأراد فيلينت أن يستوضحه الأمر فذكره بصداقتهما ، ولكنه لم يكد ينطق بتلك الكلمة حتى قفز ألسست من مكانه ووقف أمام صديقه وهو يصيح مغضبا : أنا صديقك ؟ ! أمح هذا من دفاترك ! ربما قد كنت صديقا لك يوما ما ، أما اليوم وقد رأيت منك ما رأيت

فلا أريد أن أكونه ، وما أريد أن يكون لى أى مكان بتلك القلوب الفاسدة .

ودهش فيلينت لهذا الغضب الطارىء ، وألح على صديقه أن يخبره بما كان منه ، فقال ألسست . إليك عنى ! أو ما تموت خجلا مما فعلت ؟ إن فى فعلتك ما لا يمكن أن يلتمس له عذر . إن فيها لما يثير حفيظة كل رجل شريف : تلقى رجلا تغمره بلطفك المسرف ، وأيمان ودك ، وسخاء نفسك ، وتورطه بثورة قبلاتك ، ثم لا يكاد يولى فأسألك من الرجل ؟ فلا تستطيع أن تخبرنى حتى باسمه ! ! وكأنما حرارة قلبك قد بردت بمجرد افتراقكما ! يا لها من نذالة ! إلى هذا تنزل بنفسك ؟ ! إنى أفضل أن أشنق نفسى على أن آتى فعلة كفعلتك هذه .

ويضحك من فى المسرح . وإلى إثارة هذا الضحك قصد موليير ، وإلا لا تهمه لويس الرابع عشر ، وكل من حوله من أشراف بمهاجمة آداب اللياقة « الكاذبة » التى كانت فرنسا تفتخر بها فى ذلك الزمن .

ويتلطف فيلينت مع صديقه لأنه يعلم ما فى نفسه من طيبة لا شك فيها ، فتلين عبارات ألسست وتتزن كلماته : « أريد أن يكون الانسان صادقا مخلصا لنفسه ، فلا يقول إلا ما يؤمن به قلبه » .

ومن يستطيع أن ينكر نبل هذا القول وصدقه ؟ أو ما ترى إلى المخلصين من الناس كيف يقسطون فى اللفظ ؟ ولكن فيلينت يحاول فى عبارات هينة لينة أن يحمل ألسست على الاقرار بأنه يجب أن ترد المجاملات بمجاملات مثلها ، إذ أننا بعملنا هذا لا نسىء إلى أحد . ولكن هيهات أن يبلغ من ألسست ما يريد : « لا لا ! بل يجب أن نقسو ما استطعنا على هذا التظاهر الباطل بصداقة لا نؤمن بها . يجب أن نكون رجالا فى كل مقام ، نجهر فى ألفاظنا بمكنون نفوسنا — يجب أن تنطق نفوسنا لا ألسنتنا — يجب ألا نخفى حقيقة مشاعرنا تحت بهرج المجاملات » .

إلى هنا يستطيع نفر غير قليل من الناس أن يسلم بما يطلبه ألسست ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، حد ألا نقول غير ما نعتقد ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويطلب أن نقول كل ما نعتقد ، وفي هذا لا ريب ما يقوض حياة اجتماعية ، دعائمها — لو تأملنا — أكاذيب صارخة .

ويأتي إلى البيت زائرون آخرون فيسارع ألسست إلى إخبار أحدهم بأنه متطفل دخيل وإلى الأخرى بأنه قبيح بامرأة عجوز أن تتزين تمويها لجمال فقدته منذ زمن بعيد . ويستنكر الناظرون منه ما يفعل ، ويسخرون من قحته ، ولكنه لا يأبه لهم ، وفي قرارة نفسه أن الناس أغلبهم منافقون جديرون بالبغض ، وما دام هذا هو شعوره نحوهم فمن أين يأتيه الحرص على رضاهم أو إعجابهم ؟

وفيما نحن نرى ألسست يسرف في تطبيق مبادئه ليؤكدها وليضحك فينجو موليير من الاضطهاد ، يأتي الشاعر « أورنت «Oronte» » ويدور حوار بينه وبين ألسست ينتهي بأن يخرج أورونت من جيبه مقطوعة شعرية من ذلك الشعر المتكلف الرخو البارد الذي ينظمه أصحابه ليسمعوه لأولئك النساء المتذلقات الخاويات النفوس ، ويختتم المقطوعة بالبيتين : « أيتها الحسناء ، إننا لفي يأس وإن كنا ان نزال نأمل » وتثور ثائرة ألسست فيومي شاعرنا أن يحمل مقطوعته إلى « المرجاض » . وليظهره على مبلغ تكلفه الباطل يسمعه مقطوعة ساذجة جميلة من الشعر القديم .

وتضج قاعة المسرح بالضحك الذي لا تهدأ له ثائرة حتى تدخل سليمين عائدة من المدينة ، وليتصور القارىء بأية حالة نفسية مريرة يلقاها ألسست : « لا يا سيدتي ! أتريدين أن أصارحك القول ؟ إن في سلوكك ما لا يمكن أن أرضاه ... الخ » .

والحاضرون لا شك متسائلون : بأي حق يغضب ألسست ربة الدار وهو ضيف بمنزلها وما له أن يقف منها موقف المؤنب .

ولـكن ، أو ما يجب ألسست سليمين ؟ ومتى كـان الحب يعـرف حقوقا لأحـد . ثم ماذا يريد ألسست ؟ أليس يقصد إلى الخروج على آداب المجاملة لأنه يؤمن بكذبها ؟ وهل يستطيع ألا يخرج على تلك اللياقات الزائفـة ؟ لـكم كنـا نـود لو كانت ثورة ألسست موجهة ضـد ما فى صميم الأخلاق من نفاق ، ولكنا نطلب بذلك إلى موليير أن يغير روايته من كوميديا إلى تراجيديا ، وهو بعـد يتخذ من الاضحاك تقية ، وهو يحيا فى مجتمع سطت عليـه آداب المجاملة ، حتى اختلطت بقـواعد الأخلاق الانسانية ، وأصبح من العسير أن يقيم بين الميدانين حـدا بينـا . ليثر إذا ألسست ضـد مواضعات اللياقة وليضحك منه الجمهور ، ولكن من منـا لا يحس بما تصـد إليه موليـير ؟ ومن منـا لا يفطن إلى ما تركه لنـا هـذا الرواشى الذكى الفؤاد من وجـوب التماس مقاصـده البعيـدة خلف هـذا الاسراف المضحك ؟ !

وما تـكاد سليمين تعـود إلى منزلهـا حتى يوافيها جمـع حافل من المراكيز المعجبين بهـا المتعلقين بجمالها ، فتزداد ثورة ألسست وتنتظم الجمـاعة حلقـة تأخـذ فى اغتيـاب النـاس ، وألسست يرقبهـم من بعـد وتفسـه تغلى غيظا . ولـكن فيم يريدهـم أن يتحدثوا ؟ أفى السياسـة وفى ذلك ما فيـه من خطر ؟ أم فى الثنـاء على النـاس وليس أمل من الثنـاء ؟ أم فى الأفـكار العـامة وهم لا يملـكون منهـا شيئـا ؟ ليس لهم إذا إلا اغتياب « معارفهم » وهـذا هو النـوع الوحيد من الحديث الذى يمكن أن يأخـذ فيـه قوم على شاكلة هؤلاء فيجدون فيه شيئـا من اللـذة . وتضيـق نفس ألسست بما يسـمع ، فيحاول أن يلقى تبعته على المراكيز ، ولـكنه لا يلبث أن يواجه سليمين نفسها برأيه : « لا يا سـيدتى ، إن فى مسرحك ما لا يمـكن أن تقبله » وإنه لمن العمـق أن نحب فيك نقائص نمقتها » . وهـكذا يلزم ألسست الحضـور الصبور . وينفذ صبر سليمين فترغب فى الخروج إلى الشرفة ، ويحس المراكيز حنهـا هـذا الضيق فيهمون بالانصراف ، ولـكنها تمسكهم تأدبا .

ويغضب السست من ذلك فيظن أنه لن يخرج إلا إذا خرجوا جميعا .

وتضيق بالحاضرين أنفاسهم ، وسليمين صابرة كاظمة غيظها ، ويتحرج الموقف . ويتساءل الجميع ، كيف السبيل إلى الخلاص ؟ ويأتى السست رسول من قبل رجال الادارة يطلبه لأمر ما ، ويحسب الحاضرون أنه سيخرج لما طلب له ، ولكنه يكذب ما يتوقع الجميع ، إذ يدعو الرسول إلى الدخول بحجرة الجلوس . وبعد حوار بينه وبين الرسول يخرج السست ، وبهذا تنتهى الرواية ، ويخلو الجو لسليمين والمعجبين بها يتبادلون عبارات المجاملة المعسولة .

يخرج الحاضرون وهم يتساءلون عما قصد إليه موليير — إن فى تصرفات السست ما يحرج وما يضحك ، ولكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك . وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا وهل الضحك إلا جزاء نقوم به ما يخرج فى حياتنا عما يجب أن تطرد عليه فى عرف المجتمع ؟

غادر السست تلك الجماعة التى لم يستطع أن يحيا بينها ، وما أشبهه فى هذا بذلك المبصر الذى انتهى به المسير يوما إلى مملكة العميان ، فأخذ يحاول عبثا أن يقنعهم أن هناك ضوءا ، وأن فى الضوء جمالا ، فأبوا واستنكروا وضعفت وجدته أمام جمعهم ، وقد تعاقب العمى فيهم جيلا بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يؤمنون بغيره فطلبوا من المبصر أن يفقأ عينيه ليصير مثلهم فيزوجوه من تلك الفتاة التى أحبها ، ولكن هل لبصير أن يغادر الضوء لأن جميع من حوله عميان ؟ أو ليس من الخير له أن يغادر جماعتهم من أن يغادر الضوء ؟ .

غادر السست المجتمع البشرى لما فيه من كذب ونفاق وجبن ، وما ندرى أين يستطيع أن يعيش . ولكن ، هبه لم يجد مأوى غير الصحراء ! أليست صحراء يملؤها المرء بما فى قلبه من حب صادق للشجاعة والاخلاص وقول الحق ، خير من قصور لا تهب فيها إلا رياح النفاق وبؤس النفوس ؟ !

بيتريس
Beatrice

سنة ١٢٦٥ — سنة ١١٩٠

(١)

فى عهد الشباب Vita Nova

« عندما نسمو من مظاهر الجمال الدنيا إلى الجمال الكامل نلمح ضياءه ، نحس أننا قد دنونا من الحب ، وفى الحق ما الحب إلا شوط نبدؤه مما فوق هذه الأرض من جمال ، والبصر منعقد بالجمال المطلق ما يزال يرتفع إليه درجة فدرجة على طول السلم : من جمال الأجسام إلى جمال المشاعر ، ومن جمال المشاعر إلى جمال الأفكار ، حتى نصل إلى المعرفة المطلقة التى هى إدراك الجمال المطلق . إدراك ذلك المثال الخالد الذى تمنح مشاهدته الحياة قيمتها » .

بذا يتحدث سقراط فى مائدة أفلاطون عن مراحل الحب الذى هو سعى وراء الكمال . وإليه وصل « دانتى » Dante يقوده جمال « بيتريس » ولكن ترى أحقيقة ما يقول سقراط ، أم هو أفلاطون ذلك الحالم الأبدى يرنح بؤس الحياة فى أنسجة جميلة من الخيال ؟ ثم ما بال دانت ، وقد رأى فى النفس البشرية « طفلة تجمع فيها النزوات بين البكاء والابتسام » يثبت على حب تلك الفتاة الرائعة ، فاذا هى تستحيل رمزا للايمان ، وإذا هى تلوح له فى الجنة ، وقد انتشر من حولها ما تشع من ضياء هى منه كالطائر من العش ؟

يا عجبا ! فتاة صغيرة ترسل ابتسامتها إلى هذا القلب الكبير ، فترتد الابتسامة شعرا كم هز من نفوس ، وقد سكن دانتى إلى قلب بيتريس يغمره ضياؤه ، فاذا به قبس من شعاعها ، وإن يكن

قد دفع ثمن هذا السكون الذى لم يركن إليه إلا منهكا ، وقد ألقته أمواج الحياة إلى شاطئ النفى • ولكم استشعر من ألم « فى أن يرقى سلما إلى الغير ، ولكم وجد من مرارة فيما قدم إليه من خبز » ، ولكم التمس عن محنته عزاء فى ابتسامة بيتريس تطالعه فى غفوة الأحلام فيصوغ ابتسامتها جمالا فيه أعز نشوة ، نشوة الخلق •

ولدت بيتريس مع دانتى سنة ١٢٦٥ بمدينة فلورانس معهد الفن الجميل ، إذ أكبر الظن أن أحد أبناء الشاعر قد كشف القناع عن حقيقتها التاريخية ، عند ما أخبرنا أنها بنت فولكو بورتنارى Folco Portinari أحد أغنياء المدينة إذ ذاك ، ورآها الشاعر لأول مرة فى حياته وهى فى التاسعة من عمرها ، ومنذ ذلك اليوم لم تفارق نفسه ، وعنها تحدث أجمل الحديث فى مجموعة من الشعر والنثر Vita Nova « عهد الشباب » حيث التمس لما قال من شعر مناسبات يقدم لها نثرا ، فاذا نحن أمام قصة اختلط فيها الأدب بالحياة كما اختلطا بنفس دانتى ، التى اهتزت لكل شعور ، واتسعت لكل معرفة • قال : « رأيتها فى ثوب أحمر جليلة متواضعة ، وقد علق حزامها الثوب فيما ينم عن طفولة خالصة ، فاهتزت فى قباب قلبى الخفية روح الحياة » وسرت تلك الهزة العنيفة بأوعية دمى ما دق منها وما جل ، وصاحت بى روح الحياة : ها هو إله أقوى منك سلطاناً ، ها هو قادم ، وإنه لمخضعك • ومنذ ذلك الحين مازج الحب نفسى التى أضحت أسيرة له ، وزاد من سلطانه ما منحه خيالى من قوة ، حتى لم أستطع إلا أن أذعن له فى كل أمر ، ولكم عدوت فى الطرقات وأنا بعد غض الأهاب خلف تلك الحسناء ، ولكم رأيتها قادمة وفيها من الجلال والنبل ما يحق معه أن نقول فيها ما قال هوميروس • فى الحق أنها لا تلوح بنت بشر ، بل بنت إله » •

ولقد وصفها بوكاشيو بقوله : « كانت جميلة حتى لتسبى النفوس — جميلة بطفولتها وبما امتزج فيها من جلال ودعة ، تحس فى

حديثها وفى طبائعها من الوقار والتواضع مالا يتفق عادة للأطفال ، وفى ملامح وجهها رقة وانسجام ، لقد اجتمع لها من الجمال و السحر ما حمل الكثيرين على الاعتقاد بأنها ملك لا بشر » .

وبالرغم مما كان بين أسرة بيتريس وأسرة دانتى اليجيرى Alighieri من صداقة قديمة يزعم الشاعر انه لم ير فتاته إلا بعد تسع سنوات أخرى ، حتى لكان هذا الرقم ميزان حياتها . ولقد كان لكل حياة فى ذلك العهد ميزان ، والرقم تسع أسه ثلاث رمز الثالوث المقدس ، مما ينبىء بما ستصير إليه تلك الفتاة . رآها هذه المرة فى ثوب أبيض ، وهى مارة بإحدى الطرق ، وإلى مكانه اتجهت ببصرها وعلى شفتيها ابتسامة ، وتلقى الشاعر ابتسامتها بقلب خاشع ، وكأن الابتسامة فيض من رضا الله .

وعاد دانتى إلى منزله حيث خلا بنفسه كما يخلو عادة مثله ممن حرمتهم الأقدار عطف أمهاتهم منذ الصغر . وهل استطاع أحد يوماً أن يجد فى زوجة الأب عوضا عن أمه وطاردت دانتى ابتسامة الفتاة يراها فى أحلام يقظته ، كما تعشى بصره فى ظلام الليل ، حتى نحل جسمه ، وشحب لونه وأخذ الناس يسألونه ما به . وللحب أمارات لا تكذب ، وسألوه : لمن يحمل هذا الحب الذى أضناه ؟ فلم يجد جواباً ، إلا أن تكون نظرة حائرة يصعدها فيهم ، ثم يولى هاربا ، وعلى شفتيه ابتسامة تترقرق .

وجرت الألسنة بما كان من أمر حبه ، وود الشاعر لو خدع من حوله عن حقيقة ما يشعر ، فتراه طوراً « كالمعدم يتظاهر بالمرح ليوارى عن الناس ما به من ألم » وطوراً يصطنع ما اصطنع الشعراء من قبله فى مشارق الأرض ومغاربها من تقاليد الغزل . فيتغنى بغير من يحب حفاظاً للريبة ، ولنذكر قول نعم لعمر بن أبى ربيعة :

إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا
لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وكان على دانتى أن يسلك هـذا السبيل • والتاريخ يحـدثنا أن بيتريس فى سـنة ١٢٨٥ كانت متزوجة بالفعل من سيمون دى باردى Simon die Bardi ، وكان دانتى على الراجح قد خطب زوجته جمادوناتى Gema Donati ونحن عندئذ فى القرون الوسطى ، وبالرغم من ذلك لم يستطع دانتى أن يصرف قلبه عن تلك الفتاة •

ولكن ترى لم لم يتزوج دانتى من بيتريس ؟ ذلك ما لايعلمه إلاالله ولكنا نعلم أنه لم يقف عنـد حبه لبيتريس • ولقـد كان هذا الحب منذ نشأته به تقديس ، وكانت له مغامرات على بها دمه ، فأطلقت لسـانه بغير صيحة ، وبخاصة فى غرامه المبرح بامرأة يسميها Pietra أى « الصخرة » • ومن عجب أن نستمع إليه يوما يشكو من أن تلك المرأة قـد استقرت برأسه « كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها » ، واكم ألم لهـذا الحب العنيف : ولعله لم يصب التـوفيق فى حبـه لبيتريس ، فالتمس عنه بديلا ، وإلى هـذا تشير بعض أشعاره • ألم يقل يوما : « ما تزال صورة تلك الفتاة متربعـة بقمـة أفكارى حيث قادها الحب ، وما يحزنها ما أنا فيه من ألم ، وإنها لمغتبطة ضاحكة • ترفع إلى بصرها يدعو روحى إلى الرحيل قائلا : إليك عنى ! بذا ينطق موضع رغباتى فيجز الألم فى نفسى ، وإن تكن وطأته قد أخذت تخف ، إذ أن إحساسى قـد أنهك وأوشك أن يصل إلى نهـاية قـدرته على الألم • عندما لاحت لى تلك الفتـاة كنت غض الطفولة — بذا تحدثنى ذاكرتى التى أخذت تمحى صـفحاتها : ومنـذ ذلك اليـوم لا أزال أقاسى آلام الشهداء ، حتى لكأن صوتها الذى انطلق إلى فـؤادى قـد أمسك قواى عن النمو » •

وعلى من يصدق هـذا القول إن لم يكن على بيتريس ؟ ترى إذاً أشقى دانتى بحبه لبيتريس حتى إذا ماتت سنة ١٢٩٠ ظهر الموت حبه فاستحالت الفتاة ذلك الملاك الذى هدى الشاعر سبيل الكمال •

ذلك مالا نستطيع أن نجزم به ، وإن كان فى شـعره ما يرجحه ، ولكنا نعـلم عن يقين أنه قـد تخبط فى شهوات الحب ، كما تخبط فى

شهوات السياسة حتى شقيت حياته ، وإلى هذا يشير فى أول « جحيمه » عندما يقول : « كنت فى منتصف الحياة وإذا بى وسط غابة مظلمة ، وقد ضللت الطريق • آه ما أشقه على النفس أن تقول ماذا كانت تلك الغابة التى تجدد ذكراها آلامى ، وما أستطيع أن أقول كيف دلفت إليها ، وقد كنت عندئذ فى نوم عميق فحدث عن سواء السبيل » •

ولقد أنبته بيتريس لضلاله أعنف تأنيب عندما لاحت له على حافة الأعراف قبل أن تقوده إلى الجنة •

وفى الحق إن نفس دانتى كانت نفسا عنيفة صاخبة وفى الحق إنه قد انغمس فى الحياة ، بل لقد بلغ من عنفه يوما أن صاح فى شعره وهو يشكو قسوة امرأة : « آه ! ليتنى أستطيع أن أمسك بتلك الضفائر الشقر التى صاغها الحب حلقات ذهبية ألقى بها حتفى ، إذا لعرفت كيف انتقم لنفسى ، ولأمسكت بتلك السياط التى طالما ألهبتنى ، ولبقيت بين يدى من انبثاق الفجر إلى أن تدق نواقيس المساء ، ولن أستشعر عندئذ رحمة ، بل سأكون كذب يلعب ، وما دام الحب لا يمسك عن أن يسوطنى بها فمالى لا أنتقم منها مرة وألف مرة ؟ وأما أعينها التى ترسل إلى قلبى هذه النار التى تحرقنى ، فسوف أحدق فيها عندئذ عن قرب وأطيل التحديق جزاء لها على الفرار منى ، ولن أزال بها حتى يجتمع فيهما الحب والاستسلام » •

ولكنه رغم كل مغامراته التى مزقت نفسه لم ينس يوما «بيتريس» بل ظل وفيا لحبها ، وإن يكن أكبر الظن أن سنة ١٢٨٥ — سنة زواج بيتريس — كانت بدء لمغامراته • إذ أن ذلك مما يتمشى وطبائع البشر ، ألست ترى أن ألما قويا أو حزنا ملازما خليقان بأن يحطما فى النفس كل قيادة ؟ ونحن نعلم أن دانتى لم يتزوج إلا بعد وفاة بيتريس •

نعم ظل دانتى معلقا بابتسامة فتاته يستلهمها الشعر وكأنها ما تزال عذراء ، ولم لا ؟ ألم يتغزل قيس بن الرقيات بأم البنين ،

رغم ما كان لتلك السيدة الجليلة من وقار ؟ ثم ألم يتغـزل المـاجن عمر بن أبى ربيعـة بسكينة بنت الحسين وعائشـة بنت طلحة ، بل وبأخت الخليفة عبـد الملك بن مروان وببنته ؟ وما دام الغزل عفيفاً فما الذى يمنع دانتى من أن يتسقط الشـعر من شفاه بيتريس ؟ وإن لم يكن الأمر على تلك البساطة ، فلقد يضطر شاعرنا — عملا بما يشبه وصية نعم إلى عمر — إلى أن يتغزل بغيرها تقية ، وتخشى الفتاة منه المروق عن حبهـا فتغضب • وتأبى أن تعـود إلى تحيتـه إن لقيته بسبيل ، « أو يقول فى شعر جميل ، إن تغزله بغيرها لم يكن إلا صرفاً لألسنة السوء وردءاً لأعين الرقبـاء » •

وتلك ولا ريب تقاليـد أدبية كم أفسدت على الشعر غايته ، وما كان لنفس قـوية كنفس دانتى أن تقف عنـدها • وإنه ليذهب يوماً إلى حفـل يلقى به بيتريس على غـير توقع • فيلقى قنـاع الأدب المصطنع •

« لم أكد أدخل حتى أحسست بهزة عنيفة بجانب صدرى الأيسر ، وسرت الهزة إلى كل جسمى ، فاستندت إلى الجـدار ، وخشيت أن يفطن أحد إلى ما عرانى فرفعت بصرى إلى السيدات المجتمعات ، وإذا بالبصر يستقر ببيتريس ، فتخاذلت قـواى حتى لكأنى فقدت الحيـاة إلا من عينى » •

ولم يغب عن أحد ما أصابه ، وتغامز به الحضـور ، فولى هارباً إلى منزله يغلق بابه ، ثم يسـلم عينيه للدموع ، وانجلت أزمة نفسه عن سلسلة من القصائد الصغيرة (Sonnets) كم تغنى بمقطوعاتها شاعر لليـلاه :

« ما أكاد أراك أيتها اللؤلؤة الجميلة حتى تخمد فى نفسى كل قدرة على الكفاح ، وما دنوت منك إلا صاح بى الحب : إلى الفـرار ، إن كنت تخشى الموت ، وينم وجهى عن لون نفسى ، وقد تخاذلت قواى ، فالتمست لها سنداً ••• على أن سخريتك قـد قتلت فى نفسى ذلك الضعف الذى ينشر فوق عينى تلك السـحابة الحزينة حزن الموت » •

ويلقى دانتى سيدات المدينة وقد عرفن سر نفسه ، فيقلن له وعلى شفاههن ابتسامة ساخرة قولا أشبه ما يكون بما قالته نساء العرب يوماً لجميل :

ويقلن إنك قد رضيت ببـاطل
منها فهل لك فى اجتناب الباطل

فيجيب دانتى إنه كان يريد أن يقف حياته على سعادتها فأبت ، وإذا فلينصرف إلى الاشادة بها ما ترددت أنفاسه :

« والآن وقد اتجهت رغبة السماء إلى فتاتى ، بودى أن أحدثكن عن بعض مالها من فضل . على كل سيدة تريد أن يكسوها الجلال أن تذهب معها . وهى ما تكاد تخطو حتى يجمد الحب القلوب الفاسدة فتموت فيها كل رغبة سيئة ، وما يرتفع إليها بصر حتى يفنى أو يرتد نبيلا ، وأما أولئك الذين هم من السمو بحيث يستطيعون أن يرفعوا إليها بصراً فأولئك هم الذين ينفذون إلى ما فى نفسها من جمال ، وما إن تبتسم لهم حتى ينتشر الرضا فى نفوسهم ، ويعمر الخير قلوبهم ، فينسوا ألم ما أصابهم من جراح ، وإن لتلك الفتاة لنعمة خصها بها الله ، نعمة تمنع من يتجه إليه حديثها عن أن يضل سواء السبيل » .

وهكذا استحالت بيتريس فى نفس دانتى رمزاً للكمال وسبيلا إليه ، حتى لكأنها فكرة أكثر منها إنساناً حياً . ومن لا يحس أننا نرقى الآن سلم أفلاطون ، ولم يعد فى الفتاة جسم يرغب ، بل جمال روح يستجلى ، وما تعلق بها بصر إلا ارتفعت به إلى عالم المثل حيث يختلط الجمال والخير والمعرفة ، وأى غرابة فى ذلك وقد بصر برنتو لاتينى — الذى تحدث عنه دانتى Brennetto Latini فى الكوميديا بقلب كله خشوع — تلميذه بفلسفة أفلاطون . ثم ألسنا الآن بإزاء تقاليد الفروسية كما عرفتها القرون الوسطى ، عندما كان الفارس الحق هو من يتخذ له سيدة يحبها فى الخفاء حباً أشبه ما يكون بالعبادة ، حباً يستلهمه البطولة كما يتلقى عنه وحى

الشعر ؟ وسيان بعد ذلك أرغبت السيدة فى حبه أم لم ترغب ، بل سيان أكانت حقيقة أم من خلق الخيال . وأى سيدة تستطيع نظراتها أن تسقط شهوات النفوس لتحل محلها نور الإيمان ، إن لم تكن العذراء التى اختلطت عبادتها فى نفس دانتى بحب بيتريس . وهكذا اجتمعت فى فتانا كل تيارات الروح التى شاعت فى القرون الوسطى ، فتركزت فى نفس دانتى التى تمثل ذلك العهد فى أعمق مظاهره حتى لكأنها نقطة الانقلاب بين عالمين .

ومع ذلك ليست أبو بيتريس ، وها هو ذا دانتى يحزن لحزنها ، ويود لو اتجه إليها بقلبه يشاطرها آلامها ، ولكن كيف السبيل ؟ ولم تدع ألسنة الناس إليها سبيلا ؟ ليس له إلا أن يستفسر عائداتها عما صارت إليه ، وقد أضنتها الأحزان . وحزن دانتى لحزنها حتى مرض ، وفيما هو يهذى رأى فيما يشبه أحلام اليقظة أن بيتريس قد لحقت بأبيها .

« ولم تكد تلك السيدة تنتقل عن عالمنا حتى لاحت لى المدينة وكأنها قد تيتمت بموتها ، وكأنى يومئذ أضيع بأمراء الأرض كفا ضاح جيريمى فى الكتاب المقدس : كيف للمدينة أن تحيا بدونها » .

وماتت بالفعل بيتريس ، وهى فى ريعان الشباب سنة ١٢٩٠ فى الخامسة والعشرين من عمرها ، « ماتت لأن الجنة كانت بحاجة إليها لتضمها إلى ما تحوى من حور » ماتت ولكنها بقيت حية بقلب دانتى ، بل لربما ازدادت بموتها حياة ، وقد حطم الموت ما كان يغل من حماسته لها أو ينقص من أجنحة خياله ، وأخذ دانتى يتعهد ذكراها ، ولكم جذبته تلك الذكرى من عثرات . ألم يمر يوما بأحد المنازل ساهم الفكر حزين النفس ، فإذا بامرأة جميلة تشبه بيتريس تنظر إليه من نافذتها ، وفى نظرتها حنو ضعفت له نفسه حتى أوشك أن يتردى فى حبها لولا أن لاح له شبح بيتريس .

« كان الوقت أصيلا ... ولاحت لى بيتريس الخالدة فى ثوبها الأحمر الذى رأيتها فيه قديما طفلة عندما وقع عليها بصرى لأول

مرة ، وما كدت أتجه إليهـا بفكرى حتى عادت إلى ذكرياتها ، فهب النـدم بنفسى أليما ، وولت عنى تلك الرغبة الأثيمة التى أوشكت أن تضل بى عن سبيل الهدى ، ومنذ ذلك الحين لم تعـرف أفكارى إلا بيتريس لهـا مستقراً » .

على أن الأقدار لم تشأ أن تهدأ لدانتى نفس ، وكأنه قد حاول أن يملأ ما تركته بيتريس فى حياته من فراغ ، فأخذ يتردد على صالونات فلورنسا يغامر فيهـا ما أستطاع حتى عاف هـذا العبث البـاطل ، فانصرف إلى السياسة ابتداء من سنة ١٢٩٥ ، وكانت إيطاليا فى ذلك الحين منقسمة إلى حزبين كبيرين حزب الجبلان Gibelins وهم جمـاعة الأشراف الحريصين على المحافظة على النظـام الاقطاعى ، يعتقدون أن أمنه لن تثبت ما لم يؤيدها الإمبراطور بسلطانه ، ثم حزب الجلف Guelfes وهم رجال الطبقة الوسطى الذين يغارون على حرية المدن وحرية الأمراد ، ويرون فى بسط نفوذ البابا ما يحقق آمالهم السياسية . وكان دانتى من أتبـاع هـذا الحزب الأخير ، ولكن الأمر لم يكد يستتب للحلف بعـد هزيمة أعدائهم حتى انقسم الحزب المنتصر شطرين : بيض ، وسـود ، وأخذت شهوات النفوس تلعب دورها ودارت معها العقائد ، فانطوى السود تحت لواء البابا ، واتهموا البيض أعداءهم بممالأة الامبراطور ، وانتصر السـود فى المعركة ، فشتتوا شمل البيض ، ومن بينهم دانتى ، إذ حكموا عليـه بالنفى سنتين فى ٢٧ ينـاير سنة ١٣٠٢ ، وبغـرامة قدرها خمسـة آلاف جنيـه ، بل عادوا فى ١٠ مارس من نفس السـنة فاستبدلوا بحكمهم هـذا حكما أقسى ، يقضى بنفى دانتى نفياً أبدياً ، بل بإعدامه حرقا إن وقع بين أيديهم وكان دانتى إذ ذاك لحسن الحظ بعيداً عن فلورنسا ، فأفلت من الموت ، ولكنه لم يفلت من النفى الذى شـقى به شـقاء يكاد يعـدل الموت .

وأخذ دانتى يجوب بقـاع إيطاليا يحسن وفادته قـوم ويتنكر له آخرون ، وقـد أمل يوما أن يكون مع من نفى معـه حزباً يتمكنون

بقوته من العودة إلى مدينتهم العزيزة : ولكنه نظر فإذا بشهوات النفوس تفسد ما يدبرون فانفصل عنهم ، وقد انعقد عزمه على أن يكون على حد قوله « حزبا من نفسه » ، وتقاذفته أحداث الحياة ، وكلما ازدادت به عبثا ازداد استجماعا ، حتى تركزت قواه متبلورة حول شبح بيتريس يتخذ منه أنيسا لوحدته • ولكنه أحس أنه أضعف من أن يستطيع التغني بما وصلت إليه من مراتب الكمال ، فأمسك لسانه وأخذ في الدرس يوسع به من آفاق نفسه ويشحذ من مشاعر قلبه •

« ولقد رأيت فيما يشبه أحلام اليقظة من خوارق الأمور ما حملني على الإمساك عن التحدث بذكرى ذلك الملك المقدس ، حتى أصبح به جديرا ، فأخذت نفسي بالدرس ما استطعت ، وهي في السماء شهيدة بصدق ما أقول • ولو أن رحمة الله مدت من حياتي لقلت فيها ما لم يقله في مثلها أحد من العاملين ، وبعدئذ لتتحقق إرادة الله ، فأرتفع إلى جوار تلك السيدة • إلى جوار القديسة بيتريس التي تنعم اليوم بمشاهدة وجه ربها الخالد أبد السنين » •

وتحدث بالفعل دانتي عن بيتريس في الكوميديا الإلهية التي رآها في أحلامه فأنبأها بها ، وقد أخذ يعد لكتابتها عدته • ولقد كانت بيتريس من الرفق به بحيث أرسلت إليه فرجيل تستله من وسط تلك الغابة المظلمة ، غابة الضلال التي تعثرت بها خطاه ليقوده إلى رحلة طويلة خلال جهنم ، ثم خلال المطهر الذي لاحت على حافته بيتريس نفسها تقود الشاعر في الجنة التي لم يكن لنفس وثنية كنفس فرجيل أن تلج رحابها •

(٢)
فى الكوميديا الالهيـــة

كان دانتى يعز الإباء فى كل نفس حتى فى نفـــوس أعدائه ولا أدل على ذلك من لقائه لفارياتا دلى أوبرتى Farinata delli Uberti زعيم خصومه بجهنم ، حيث كان بينهما حوار عنيف لم يمنع دانتى من أن يظهر ما يحمل لكبرياء هـــذا الرجل من إعجاب « وقـــد نهض فارياتا وسط قبره المضطرم نارا حتى أشرف على اللهب بصـــدره وجبهته ، وكأنه لا يحمل لجهنم غـــير احتقار الأبى » .

ومع هـــذه الكبرياء امتدت بدانتى محن الحيـــاة ، وقـــد أودعه الله قلبا شـــاعرا كم دفعـــه إلى المغامرات يشـــقى بها فى منفاه ، وكأنه يلتمس فى ذلك الشـــقاء طهاة . أو ما تراه يلقى بجهنم أيضـــا أستاذه برينيتو لاتينى Brennetto Latini فيود لو تمهل معه محبة له ؟ ثم ألم يلمح يوما بإحدى طبقاتها شبحين تتقاذفهما الزوابع وسط ظلام دامس جزاء لهمـــا على ما استسلما إليه من شـــهوات النفوس ، فيلتفت إلى قائده فرجيل يرجوه التمهل حتى يعرف ما كان من أمرهما ، وكأنهما « حمامتان حملتهما الرغبة المتبادلة ، فبسطا فى الهواء أجنحة حثيثة تقودهما إلى عش حبيب » ، وما يكاد يعلم أنهما فرنشسكا دى رمينى Francesca de Rimini وحبيبها بولو Paolo حتى يطأطىء الرأس ، وكأنما ذهل عن نفسه لولا أن أيقظه فرجيـــل بقوله : ما بك ؟ فيم تفكر ؟ وفرنشسكا فتـــاة مسكينة ، حسبت أنها قـــد خطبت لبولو ، وإذا بها تزف لأخيه الكسيح ، وإذا بالحب يصلح ما أفسدته الأقدار ، ولكن غيرة الأخ وضعت حداً لعلاقتهما ، إذ قتـــل الرجل زوجه وأخاه ، وشاعت نفس دانتى الرفيقة إلا أن ترى فيهما حمامتين تسعيان إلى عش ، رغم ما هما فيه من عذاب .

وكذلك كان أمر دانتى ، فلكم مزقت الشهوات نفسه ! ولكم أشقته تلك المرأة القاســـية التى يسميها « الصخرة » Pietra ، والتى ولت

دون أن تترك على صفحات التاريخ أثراً • ولكم ردد شعره ما أنزلت به من عذاب : « بودى لو واتانى القول فى صلابة تلك « الصخرة » التى لا تزيدها الأيام إلا قسوة • لكأنى بها وقد كست جسمها درعا من الصوان تتقى بها — إن لم تهرب — ما ترسله الجعبة من سهام رجوت لو أصابت منها مقتلا • وأما سهامها فهيهات أن ينجى منها عدو أو اختفاء ، وكأنها مجنحة تطير فتخترق كل الدروع • آه ! كيف السبيل إلى النجاة ، وقد استقرت بقمة أفكارى ، كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها ؟ وما يعنيها من الآلام إلا ما يعنى زورقا من بحر لا تحركه عاصفة ••• آه ليتنى أرى قلبها ، وقد انشق قلبى • إذا لتكشف عن ظلام دونه ظلام الموت الذى يدفعنى إليه جمالها ، وما تمسك عن الطعن فى وضح النهار ، أو فى غياهب الليل » •

من جوف كل تلك الآلام طالعت دانتى ابتسامة بيتريس كما عهدها عندما رآها لأول مرة ، وهما فى التاسعة من عمرهما وقد ارتفعت إلى الجنة سنة ١٢٩٠ فى ريعان الشباب ، وبقى هو وحيدا ، لا يملك غير ذكراها ، وقد تكالبت عليه محن النفى وشهوات النفس ، لا يجد عزاء فى غير الدرس يقيم به تمثالا على هامة القرون الوسطى ، تمثالا ينطق بمجد بيتريس • وفى الحق لو أنه اكتفى بالذكرى لما وجد غير الألم ، وهو القائل : « ما أشقه محنة أن نذكر وسط الشقاء أيام السعادة ! » وإنما أنجاه أن اتخذ من وحى ذلك الماضى ، من وحى بيتريس مادة لأروع ما أنتجت عقول البشر ، مادة للكوميديا الالهية • وبوده لو استطاع بفضلها أن يصبح جديرا بتلك القديسة التى تعلق بلحاظها فارتفعت به إلى أن اجتلى وجه ربه •

وفى الحق أن بيتريس لم تحبس عنه رحمتها ، فقد أرسلت إليه قائدا رفيقا ينجو به من غابة الضلال التى تعثرت بها خطاه • وكان القائد فرجيل « ذلك النبع العذب الذى تدفق بأجمل الشعر » يفنى دانتى لياليه فى درسه والاستماع إلى عذب نغماته • ولقد

أملت بيتريس أن يرى شاعرها بجهنم من ألوان العـذاب ما يوقظه من غفلتـه فيحطم أغلال شهواته • ولعلهـا ودت لو وجـد بلسما فيما أنزل اللـه بخصومه الظالمين من عـذاب • واقـد رأى دانتى فى جهنم ما تشيب له نواصى الأطفـال •

وموضع العبرة فيمـا رآى هو نوع ما ينزل بالآثمين من عذاب ، فذوو الشهوات تتقاذفهم العواصف وكأنهم أوراق ذابلة ، وسفاكو الدماء غرقى فى بحر من الدم يغلى فيكويهم بنـاره ، وهكذا افتنت عبقرية العـذاب فـلاقت كل إثم بمـا يلائمـه • أو لا ترى إلى أولئك العرافين الكاذبين الذين يدعون العلم بالمستقبل ، وقـد قلبت رؤوسهم فأصبحت وجوههم إلى ظهـورهم يسـيل موقهـا الدمع ، وذلك حتى لا يعودوا فيـدعوا بعـد النظر يرسلونه إلى ما خلف الحاضر امراهن • ثم برتران دى بور Brtrand de Boru الذى أثار بشعره الابن ضـد أبيـه ، أولم تفصل رأسه عن جسمه ووضعت فى يـده ليحملهـا من الشعر ، كمصبـاح ينير لـه الطريق ؟ ! بل وللنتحرون أنفسهم نبتت أرواحهم بجهنم أشـجارا ، يمسك المـار بغصن منهـا يكسره ، فاذا بالدم يتدفق منـه مع صيحات الألم • لقـد فروا من الحيـاة فعادوا إليهـا سجينى أغلفـه الأشجار !

ولكم كانت دهشـة دانتى عندما نظر إلى هؤلاء الآثمين فلم ير منهم نادما • بل الكل ثائر على ربه يرسل اللعنـة والسخط مختلطين بمـا ترسله من صيحات العـذاب والألم •

وخرج دانتى من الجحيم ، وبخيـاله الخصب للآثمين أشـباح كأنهـا تماثيل عـذاب نحتت نحتـا • ولكن ترى أيكفيـه ما رأى لتصلح نفسـه ؟ ثم كيف له أن يصعد إلى السماء وقـد أثقلتـه الآثام كما تثقل الأمتعة المسافر ؟ وهبـه ضمن السلامة فى مستقبله ، فأنى له بالمـاضى يمحو ما به إلا أن يكون رضوان من اللـه ؟ وشاءت بيتريس رسول رحمته أن يترفق فرجيل فيصحب شاعرها إلى المطهر حيث انتظرته هى بقمتـه ، ومن عجب أن يرقى جسمنا الكثيف إلى

حيث تصعد الأرواح يغمرها نور اللـه ! أو لا ترى إلى سكان تلك الأعراف يشكون إلى فرجيل غير مرة ظلال جسم دانتى يمتـد على أحدهم فيحجب عنـه ضيـاء ربـه ؟ .

ورأى دانتى بالمطهر أرواحا راضية مستبشرة رغم ما هى فيـه من عـذاب ، وقـد انقضى عهـد الآثام ، وهاهم فى سبيل التفكير عمـا اقترفوا تكفيرا يعدهم لصعود السماء .

وقـد انتشر نور اللـه فى كل مكان وانعقدت كل روح على الندم تستشف خلاله المغفرة . والمطهر جبـل يقوم بجزيرة تتطم الأمواج صخورها من كل جانب ، وقـد انتشر النادمون على سفحه فى تسع درجات ، كلمـا سموت من درجة إلى درجة كان الاثم أخف والعذاب أهون . وسما دانتى حتى الدرجة الأخيرة فاذا بهـا نار تسعر وقـد « زاد ظل جسمه لهيبهـا حمرة » فارتعدت فرائصه وأيقن أنه هالك ، وإذا بصوت يتغنى ، « ما أسعد أنقيـاء القلوب ! » وانقلب المغنى آمرا يأمر دانتى وصحبـه بالدخـول إلى النـار إن كانوا يبغون الارتفاع إلى أعلى ، فارتد شاعرنا مذعورا لولا أن هـدأ فرجيل من روعه . « أى بنى ؟ ستلقى من هـذه النـار عذابا ولكنك لن تلقى الموت : ولقـد قدتك خلال الجحيم رغم ما فيهـا من أهوال ، والآن وقـد دنونا من اللـه — أترانا مجحمين ؟ لا . لا : ثق أنك لو مكثت مدرجا بتلك النيران آلف عام ما ذهبت بشعرة واحـدة من رأسك . صدقنى ، وها هو اللهب أمامك ، ادن منه ثم أدفع إليـه بكم ردائك لتتحقق من صـدق ما أقول . هيـا ! هيـا ! خل عنـك مخاوفك ، أقـدم » .

ولكن دانتى لم يحـرك ساكنـا « رغم ما يخزه من نـدم » وإذا بفرجيل شاعر الهوى ، فرجيل قيثارة الشعر ، فرجيل الروح النافذة إلى خفايا القلوب يلتفت إليـه قائلا بصوت يهدج رقـة : أى بنى — أذكر أنه لم يعق بينـك وبين بيتريس من حاجـز غير هـذا . ثم التفت وعلى شفتيه ابتسامة الأب يداعب طفـله بقطعة من الحلوى .

وما أن سمع دانتى اسم بيتريس « الذى ما يزال مزدهرا بقلبه » حتى دلف إلى النار ، وفرجيل إلى جانبه يلهيه عن الألم بحديثه عن بيتريس • ولو أنك رأيته وقد رنحه أستاذه بقوله : « آه • يخيل إلى أنى أرى أعينها على مقربة منا » ، لحسبته طائرا ينتفض وقد بلله الندى ، أو لحسبت النار قد استحالت بردا وسلاما •

وما إن خرج دانتى من هذه المحنة حتى قاده فرجيل إلى سناق القمة التى سيسمو إليها فيجد « جنة الله فى أرضه » • استودعه رحمة الله ، إذ ليس لروح وثنية أن ترتفع إلى ما دون ذلك • وحزن دانتى لفراقه حتى لقد بكى بين « يدى هذا الأب الرحيم » ودخل دانتى وحيدا جنة الأرض حيث لم يسمع إلا طيرا يشدو وماء يخر ، ولم ير إلا نباتا أخضر ووردا مزدهرا • وفيما هو وسط هذه الغابة المقدسة لاحت له على الضفة الأخرى للنهر حورية رائعة تجمع الزهر باقة ، وما الحورية إلا ماتلدا Matelda تلك الصورة الشعرية الجميلة التى لم يصور شاعر أحلى ولا أرق منها — ماتلدا مِلك الهداية يوجه خطى دانتى الأخيرة قبل أن يصل إلى هدف آماله — إلى بيتريس التى لن يستطيع أحد غيرها أن يرتفع به إلى الجنة ، جنة السماء •

أو حان الحين ليلقى دانتى سيدته وقد شق من أجلها لهيب النار يطهر به ما ارتكب من آثام ؟ أو ما تزال بيتريس تنقم منه ما تمزقت به نفسه من شهوات ؟ أو ما تزال تألم لما أثقل به ماضيه من عبث بأودية السراب ؟ ذلك ما نؤمن به وإلا لما قادته ماتلدا إلى نهر الليثيه Lethé نهر « النسيان » يشرب منه فيمحو من ذاكرته كل ما علق بها ؟ وقرب موعد اللقاء فكان على الشاعر أن يشرب من نهر آخر « إينويه » Eunoé نهر « الذكريات الطيبة » ليعود إلى عهد الطفولة ، عهد بيتريس التى صاح رسول من السماء يعلن قدومها • وإذا بضيحات النسوة تملأ الجو ، وإذا

يا للملائكة تنثر الزهور فى كل مكان ، والهـواء يهتز ببيت الانيـادة الشهير « هيـا ! هيـا انثروا الزنبق حفنـات » .

« وعنـد بعث النهار — وقـد اكتسى شرق الأفق لونه الوردى ، وسجت بقيـة السماء بهـدوء جميل — رأيت الشمس يوما تبزغ خلال ظلال تحجب من ضيائها ، فيستطيع البصر أن يثبت لرؤيتها ، وهكذا خلال سحابة من الزهر تنثره أيدى الملائكة ، ثم يتساقط فوق العربة ومن حولهـا ، لاحت لى امرأة يجللهـا نقـاب طويل أبيض وبرأسـها تاج من الزيتون ومن تحت النقـاب معطف أخضر يكسو ثوبا فى لون اللهب الحى . وإذا بروحى ، التى لم تستشعر منـذ زمن بعيـد فى حضورها ما ألفت من ذهول وخوف ، تتعرف إليهـا ، لا برأى العين ، بل بمـا ينبعث عنهـا من سحر خفى ، وإذا بحبى القـديم يعود أقوى مما كان عليـه . ولم يكد يلمس عينى هـذا السحر ، الذى مسنى بجراحـه قبـل أن أدرج عن طفولتى ، حتى التفت إلى يسارى فى خشوع كمـا يلتفت الطفـل إلى أمه عنـدما ينـاله خوف أو يصيبـه ألم ، أقول لفرجيل : لم تعـد بى قطرة دم لا تهتز ! لقـد بعث الحب القـديم أمارات لهيبـه » .

ولكن أنى له بفرجيل يفهم عنـه وفرجيـل قـد ولى ؟ ! ونظر إلى حبيبـة طفولته فاذا بهـا على غير ما عهـد ، وقـد استحالت قاضيا صارما يحـدث الملائكة عمـا كان من ضلاله :

« لقـد خلق هـذا الرجل كما يشهد (عهد شبابه) بحيث تستطيع كل فضيلة أن تغضب فى نفسه أروع الغضب ، ولكن حقلا تتساقط بـه بذور سيئة ، حقـلا لا يتعهـده أحـد ، خليق أن يزداد ثمره مرارة كلمـا ازداد خصوبة — لقد قومت من هـذا الرجل بنظراتى ، وقـد تعلق بهـا فهديتـه سواء السبيل ، ولكنى لم أكد أدلف إلى حيـاتى الأخـرى حتى انصرف عنى إلى غيرى . تركنى فيتخبط فى مسارب الخطيئـة ، وقـد خدعتـه تلك الصـور البـاطلة التى لا تستطيع أن تحقق ما تعـد . وعبثـا حاولت فى ساعات إلهـامه ،

فى حلم كانت أو فى صحو أن أرتد بـه إلى ! نعـم ! لقـد ضاعت جهودى كلهـا سدى حتى لم أعـد أرى سبيلا لنجاته غير أن أطلعه على ما أعـد للآثمين من عـذاب . وهـذا ما حملنى على السير إلى مدخل جهنم لألقى بـه من أوكلت إليـه قيـادته ، أوصيه به خيرا وأدمعى مستهلات . والآن لقـد قضت إرادة اللـه التى لا مرد لهـا ألا يعبر الليتيـه وألا يشرب من مائـه إلا من يسكب فيـه دموع النـدم » .

ثم التفتت إلى دانتى قائلة وقـد صوبت إليـه سنان اللسان يحـز فى نفسـه حزا : « قل ! قل ! أليس كل ذلك صحيحا ؟ يجب أن تلحق بآثامك الاعتراف بهـا » .

واضطربت فى نفس دانتى كل قواه ، حتى لقـد هم صوته بالاجابة فجاء دون شـفتيه ، فصمتت بيتريس هنيهـة ثم قالت : « فيـم يفكر ؟ ! أجب ! أجب ! ما دامت ميـاه هـذا النهر لم تستطع أن تحطم فى نفسك ما علق بهـا من ذكريات محزنة » .

وأخـذ الخزى والخوف بنفس دانتى فانطلق لسـانه « بنعم » خافتـة لم تسمع لولا أن نمت عنهـا حركات الشفاه . وكما تتحطم القوس عنـدما تفرط فى شـدها فلا تستطيع أن ترسل السهم إلى هدفهـا ، تحطمت نفس الشاعر ، فانفجرَ دموعاً وزفراتٍ عن بهـا صوته . وعادت بيتريس إلى أسئلتها القاسية : « قل لى : أى أغلال لثنيت بسبيلك فعاقتـك عن المضى فيهـا وقـد تعلقت بى رغبـاتك فقدتك فى سـبيل الخير ، حب الخير الذى ليس لنفس أن تتطلع إلى سـواه . قل لى : أى المغريات وأى الوعود لمحت على الجبـاه قدرت من حولهـا ؟ » .

وأطلق دانتى زفرة كأنهـا ذهبت بما يملك من صوت فلم يستطع الكلام حتى أجاب باكيـا « لقـد حادت بخطـاى خيرات العـالم الخادعة منـذ أن غاب وجهك عن بصرى » .

واستأنفت بيتريس : « لو أنك أردت أن تكتم أو أن تنكر ما تعترف بـه الآن لمـا خفى شيء من خطاياك ، وعنـد قاضيك عنهـا علم اليقين • ولكنه عندما ينبعث الاعتراف من فم الخاطىء ، ترى سيف القضاء وقـد انغل • ومع هـذا لا بـد أن تشعر بثقل ما حملتـك خطـاياك من خزى ، حتى لا تعود فتستمع إلى أصوات الغواية • هيـا ! ألق عن نفسك قليـلا مما يبكيك ، ثم استمع إلى لتعرف كيف أن جسمى الذى واراه التراب كان خليقا بأن يدفعك فى غير ما سلكت من طرقات ، وهل أرتك الطبيعـة أو أراك الفن جسما أنفـذ سحرا من ذاك الذى أودعتـه سـجينة وها هو اليوم قـد عـاد فاختلط بالتراب ؟ » •

وأحس دانتى بالندم ينشب فيه أظفاره ، فسقط مغشيا عليه ، حتى إذا أفاق أخذته فضائل الدين ، حيث غسلت نفسه ممـا بها غسلا ، وفتح عينيه فاستطاعتا أن تثبتا لجمال بيتريس ، وقـد تجردت نبراتها عن تلك القسـوة التى أحسها فى حسابها له عمـا فـرط من واجبه الإخلاص لهـا حيـة ، والوفاء لذكراها ميتة • وما بيتريس الآن إلا روح خالصة تبصره بأسرار العالم الآخر ، عله يحملها إلى من تضم هـذه الأرض من أرواح بائسة بحيرتها •

منـذ تلك اللحظة لم يعـد بين دانتى وبيتريس حجاب ، وها هى تسمو إلى الجنـة ودانتى معلق بنظراتها خلال السموات التسع وقد أعشى بصره نور اللـه فعجز عن أن ينظر إليه إلا فى أعين بيتريس ، التى ما زالت تحنو عليه حتى استطاع أن يتلقى مباشرة نور ربه • ولم تغـادره فتـاة فلورنسا حتى وصلا إلى أقدام العذراء ، حيث تولى قيادته إلى خالقه — مصدر كل حيـاة — القديس برنار الذى تغنى بجمال مارية أعـذب الغنـاء • وافترق الحبيبان ، وكان وداع الشاعر : « أبق لى رحمتك تتلقين بها روحى التى شفيتهـا — عندما تفلت من جسمها متضاعدة إلى كنف الله » •

جـوليان سوريل
Julien Sorel

جوليان سوريل بطل رواية « الأحمر والأسود » للكاتب الفرنسى ستاندال Stendhal سنة ١٧٨٣ — ١٨٤٢ نموذج لذوى المواهب الذين تشـاء الأقـدار أن يشبوا بين طبقات الشعب المتواضعة ، ثم ينظروا فإذا بوقاحة المـال وعزة المركز وصلف المحتـد تتنكر لمـا وهبوا وتود لو درجتهم أكفاناً من الاحتقـار ، وإذا بكبرياء المواهب تحرق الأكفان .

نادت الثورة الفرنسية بالمساواة بين الرجال ، كما حطمت الامتيازات لتجعل الحقوق وفق المواهب ، وسرى هـذا المبدأ الجميل حتى لكأن الأطفال يرضعونه مع لبـان أمهاتهم ، فيكبر صغيرهم وقـد استقر فى نفسه أن ملكاته سبيل مجده ، وأن الوجاهة الاجتماعية لابد آتية فى آثار التفوق العقلى . ولكن ما يكاد الرجل منهم يدلف إلى الحيـاة فى العشرين من عمره حتى تنهض أمام طموحه وإيمانه بملكاته أشـد العقبات ، فكم من نفوس صغيرة ومواهب واهيـة قـد دفعتهـا فى سبيله القرابة رحماية ذوى السلطان وقـوة المـال ودس النفوس الملتوية فسدت المنـافذ ، وسبقته إلى غايات المجد ! وهكذا تتضـور النفوس الممتازة ، وقـد قضى عليهـا أن تتبـع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، ومازالت تحفر أصلابها وتتصبب عرقا حتى تستطيع — وقـد لا تستطيع — بعـد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصـل إلى ما تستحق . وأما ملكاتها فماذا تجدى فى هيئة اجتماعية لا تقيم لها وزنا ؟ وهكذا تعلن الجماعة إفلاسـها ، إذ لا تمكن خيرة أبنائهـا من حقوقهم ، فيحتمى رجال الفن والعقل بعـالم الأحلام ، بينما الطبائع المسالة يتقاولهـا اليأس فترضى بحيـاة متئدة الخطى ، راضية بما يتخلى لها الغير عنه وقد أضناها الجهد وهدها الظلم . وأما الإرادات القوية — ومن بينها سوريل Sorel — ممن لا تعتمـد على حام ولا قريب يمهد لهـا السبيل فماذا تفعل ؟

أما القناعة بالقليل والرضا بالظلم فلا ، بل تأهب للنزال ، وقد تجهمت لهم أوجه الجماعة التى يحيون بينها ، فليطرحوا ما كبلوا به منذ الطفولة ، ولينكتوا ما تستشعر نفوسهم من رحمة أو يختلج فى ضمائرهم من ندم ، وليشقوا سبيلهم فى جسارة عندما تسنح الفرص ، وليصطنعوا — كل قسوة ونفاق ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من « سوريل » ، طيوراً جارحة ، وإن تكن يد الأداة الحكومية لهم بالمرصاد ، تقودهم إلى المشانق كما قادت سوريل الذى لولا عبوس القضاء لجثت تحت قدميه تلك الجماعة التى أنزلت بنفسه الخراب .

لم يكد سوريل يبلغ العشرين من عمره (سنة ١٨٢٨) حتى كان مجد نابليون قد زال ، وقد عادت الملكية ، وعاد رجال الدين إلى نفوذهم القديم ، ولكنه لا يزال يذكر ما رآه غير مرة أيام طفولته من فرسان نابليون فوق جيادهم الأصيلة ، وقد انتفخت من حولهم معاطفهم الصافية البيضاء . وغطت رءوسهم قلانس تحليها شعور الخيل السوداء ، مارة بقريته إلى جوار جرينوبل ، وهى عائدة من غزواتها بإيطاليا . ولكم من مرة نظر من نافذة غرفته فإذا بالخيل واقفة فى الساحة أمام المنزل أو مشدودة أعنتها إلى قضبان نافذته ! ولكم استمع إلى أنباء البطولة التى تزدحم بها الألسنة عن معارك « لودى » و « أركول » و « ريفولى » ، فتتوق نفسه إلى مهنة الحرب ، ولكنه نظر فوجد أن زمن البطولة قد ولى ، وأن نابليون قد أصبح فى نظر ذوى السلطان غاصباً ، يورد النطق باسمه موارد المهلكة ، بينما انقلب الأمر كله لرجال الدين يرفعون من نشاء رغباتهم ، ويخفضون من يستهدف لسخطهم ، فانعقد عزمه على أن يتخلى عن آماله فى الجيش وأن يصبح من رجال الكنيسة ، وإذا فليبتبدل بالرداء « الأحمر » الرداء « الأسود » .

ولد جوليان لأب نجار فى قرية صغيرة ، وكان أبوه أمياً فظاً غليظ القلب . ولقد اتفق يوما أن أتى الأب إلى « ورشته » ، وقد ناط

بجوليان أن يقوم على ملاحظة العمل ، وإذا به يجده ممتطيا كتلة من الخشب ممدودة قرب السقف وبيده كتاب يقرؤه . فناداه الأب فلم يسمع لشدة ضوضاء المناشير ، فصعد إليه ، وبضربة قوية على رأسه أوشك أن يسقطه على الأرض . ولو أنه سقط لتقطعت أوصاله فوق الآلات المنتشرة هناك ، ولكنه أمسكه بيديه الغليظتين صائحاً :

« أيها الكسول ! أو ما تستطيع أن تقرأ كتبك اللعينة فى الليل عندما تذهب إلى القسيس لتضيع وقتك ، بدلا من أن تلهو بها الآن عن ملاحظة المناشير ؟ » ولزم جوليان الصمت والدموع تترقرق فى عينيه ، لا لما أصابه من ألم ، بل حزناً على كتابه الذى طاحت به ضربة أبيه إلى نهر مجاور .

— إنزل يا حيوان لأكلمك !

ولكن جوليان لم يسمع أيضاً لشدة الضوضاء من حوله ، فأتى الأب سوريل بقطعة طويلة من الخشب وضربه بها على كتفه ، ذلك لأنه لم يشأ أن يعود فيصعد إليه . ونزل جوليان ، وطرده أبوه بعنف أمامه إلى المنزل ، وكم كانت حسرة الغلام عندما نظر إلى النهر وهو يبتلع « ذكريات » سنت هيلانة أعز ما يملك .

ولو أنك رأيته يومئذ لرأيت خدوداً مجمرة وأعيناً ساجية ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، غلام ضعيف فى مظهره غير منتظم مقاطع الوجه ، وإن يكن دقيقها ، ذا أنف منحن قليلا إلى جانب ، وأما عيناه فكانتا كبيرتين سوداوين شديدتى البريق — ما هدأت نفسه — بريقاً ينم عن حرارة وعمق فى التفكير ، وإن لم تكن ترى فيها ذلك اليوم إلا بعضاً مخيفاً . ولقد كان شعره الكستنائى القاتم يكسو أعلى جبهته ، فتبدو صغيرة ، مما يبالغ فى مسحة الشر التى تلوح عليه عندما يأخذه الغضب . وفى الحق أن جوليان كان أصيلا فى خلقه ، وفى ضمور خصره ما ينبىء بالخفة أكثر مما يدل على القوة . ولقد رأى أبوه منذ الطفولة فى ميله إلى التفكير وفى شحوب لونه ما حمله على الاعتقاد بأنه لن يعيش ، وإن عاش فسيكون عبئا على أسرته .

وقـد كان جوليان موضع احتقار أهل المنزل جميعا ، فكره إخوته كما كره أباه ، ولكم ضرب بالسلحة فى أيام الأعيـاد .

لم يكد جوليان يدخـل المنزل حتى أحس بيد أبيـه القوية تمسك بكتفه ، فارتعدت فرائصه وتوقع الضرب ، ولكن لحسن حظه لم يكن شيء من ذلك ، وإنما كان حوار بين الأب وابنه ، إذ أن عمدة القرية قد طلب إلى القسيس أن يأتيه بعرب لأولاده ، فلم يجد القسيس خيراً من تلميذه جوليان ، وقـد توسم فيه كل نجابة ، فكرس لتثقيفه الكثير من وقته ، وأروع ما كان فى ذلك الحوار الفقرات الآتية :

الابن : وأى أجر سأنال على ذلك ؟

الأب : الغذاء والملبس وثلثمائة فرنك .

الابن : ولكنى لا أريد أن أكون خادما .

الأب : ومن قال لك إنك ستكون خادما أيها الحيـوان ؟ أتظن أنى أقبـل أن يكون ولدى خادما ؟

الابن : ولكن مع من سأكل ؟

وكان فى السؤال الأخير ما أحرج الأب سوريل ، وخشى أن يكون فى جوابه ما لا يقتضيه الموقف ، فثـار ضد جوليان وأشبعه سبابا ، متهما إياه بالنهم ، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين .

وذهب جوليان إلى منزل المسيو دى رينال de Renal عمـدة القرية ، فوجده رجلا غنيا من رجال الصناعة . نظر إليه فإذا به قد وخط الشيب عارضيه ، فلاح رأسه فى لون بدلته الرمادية ، وأحس فيه برضا عن نفسه واعتزاز بذاته لا تجده إلا عنـد ذوى العقول الضيقة والخيال المحدود . رجل تلخصت مواهبـه فى أن يعرف كيف يحصل على حقه فى أسرع وقت ، وكيف يرجىء ما عليه إلى أبعـد حين ، ومع ذلك فقد كان المعروف عن المسيو دى رينـال أنه ابن نكتـة حاضر البديهة ، والفضل فى ذلك راجع كله إلى دستة نكات ورثها عن خال له . وأما مدام دى رينال فكانت امرأة طيبـة النفس ، فى الثلاثين من عمرها ، وكان جمالها ما يزال يفهج الأبصار . وهال جوليان مارأى

من بذخ هؤلاء الناس ، وخشى احتقارهم له أو إدراجه فى عداد الخدم، فعقد عزمه على أن يرغمهم على احترامه ، بأن يقنعهم كما يقنع نفسه بأن النزاع إنما يقوم بين غناهم وفقره ، وأما قلبه فأسمى من أن تناله وقاحتهم ، وقد وضعه حيث لا تستطيع أن تصل إليه مظاهر رضاهم أو إعراضهم ، وتلك هنات هينات .

ذلك موقف جوليان من العمدة وزوجه . وأما الأطفال فقد كان يعلم أنه لا ذنب لهم فى جراح نفسه ، فأخلص فى القيام على تربيتهم ، يأخذهم بالعدل دون إسراف فى العطف . وكيف له بمثل هذا الإسراف وأقوى سلاح اعتزم أن يلتجىء إليه ضبط النفس والسيطرة على المشاعر ، بل والتظاهر بغير ما يضمر ؟ ولقد كانت له فى ذلك الأعاجيب ، فلقد تسوقه الحماسة يوما فى معرض الحديث عن نابليون إلى إعلان فرط إعجابه بهذا القائد العظيم ، ثم يفطن إلى ما فى ذلك من حمق قد يودى بمستقبله ، فيعاقب نفسه بأن يشد ذراعه إلى عنقه شهرين كاملين ، مدعيا أنه قد كسر وهو يحرك قطعة من الخشب ولقد يخلص لقسيس قريته الود ، ويعترف له بالفضل ، ولا يغيظه منه إلا نفاذه لمكنون نفسه ، فمما كان جوليان عميق الإيمان ، ولا كان ميله إلا الاشتغال بالدين صادقاً ، وإلى هذا فطن القسيس ، فاتخذ الشاب هدفا له أن يخدع الرجل عما فطن إليه من أمره . ولقد تحس مدام رينال فى جوليان أصالة فى الرأى ، وقوة فى الإرادة ، واعتزازاً بالنفس ، تدهش له فتعجب به ، ثم ينشرح لذلك صدرها ، وتساورها الشكوك عن حقيقة شعورها نحوه ، وإذا بالشك ينجلى عن يقين ، وإذا بمدام رينال تحب جوليان ، وجوليان عنها لاه ، وما إلى هذا تتطلع نفسه الجريحة ، وقد اتجهت بكل عنف إلى الثأر من تلك الجماعة التى تحتقره لغير ذنب جناه ، ويكون فى موقفه من تلك السيدة العطوف ما يدهش .

كان من عادة مدام دى رينال أن تصطحب جوليان وصديقة لها إلى حديقة المنزل وقت العشية ، وفيما هم جالسون ذات ليلة مست يد

المربى يد السيدة عفوا ، فسارعت السيدة إلى سحبها ، وحسب جوليان فى ذلك اجتقارا له ، وتنغصت بذلك حياته طوال الليل والنهار التالى ، حتى أتى الليل من جديد ، وعاد الثلاثة إلى مجلسهم من الحديقة ووطد الشاب عزمه على أن يمسك باليد التى تراجعت عنه بالأمس ، وكان صراع بينه وبين نفسه لم يجد منه مخرجا إلا بتحديد موعد لتنفيذ عزمه ، وكان ذلك الموعد دق الساعة العاشرة • ودقت الساعة فأمسك بيد مدام دى رينال ، وتراجعت اليد فعاد للامساك بها ، واستسلمت السيدة لجرأته ، فتركت يدها فى يده ، بل عادت هى إلى أخذ يده عندما رجعت من قضاء أمر نهضت إليه • وكان ذلك المساء فاتحة سقوط تلك المرأة المسكينة ، ووجد جوليان فى استسلام السيدة نشوة لا حد لها ، لا نشوة الحب ، ولا نشوة اللذة البهيمية ، بل نشوة الانتصار المتغطرسة إليه نفسه •

وذاع الأمر حتى لم يعد هناك معدل عن أن يغادر جوليان هذا المنزل الذى دنسه ، ليذهب إلى مدرسة القسس بإحدى المدن المجاورة يتم بها دراسته ، وقبل بالمدرسة لتفوقه الظاهر ، وهناك زادت خبرته بالرجال وزاد ظنه بهم سوءا • نعم إنه قد وجد فى « الأب » المشرف على المدرسة عقلا راجحا ، وقلبا كبيرا ، قدر مواهبه حق قدرها ، بل وأحس نحوه رغما عنه بحب لا ينبغى لرجل دين أن يخص به فردا دون آخر ، وحبه كله لله وحده ، ومع ذلك ألم يقل له هذا الأب يوما : « نعم يا بنى إنى أستشعر نحوك العطف ، والله يعلم أن ذلك على الرغم منى ، وأنا لا أجهل أنه ما ينبغى لى ان أخص أحدا من البشر بحب او بغض ، وأن أكون بينهم عادلا فحسب • أى بنى إن مستقبلك شاق ، وفيك ما ينفر النفوس المبتذلة • سيطاردك الحسد والنميمة ، وحيثما اتجهت أو ساقتك الأقدار ستشقى دائما بحقد زملائك الذين لن يتظاهروا بحبك إلا ليمعنوا فى الكيد لك • وما أرى لهذا علاجا غير الركون إلى رحمة الله الذى شاء أن يجعل فى كره الناس لك عقابا عادلا لغرورك • ليكن سلوكك نقيا ، وسوف ترى أن

أعداءك سيبوءون بالهزيمة ، ما تعلقت بالحقيقة الخالدة تعلق الغريق بأسباب النجاة » . . .

وشاءت شهوات الحقد ودسّ النفوس الوضيعة أن يتخلى الأب المشرف على المدرسة عن مركزه ، وخشى الأب على جوليان غيرة إخوانه وحقدهم ، فأخذه معه إلى باريس حيث وجد له عملا كسكرتير للمسيو دى لامول De la mole أحد الأشراف الوزراء ، بل أقوى الوزراء نفوذا فى ذلك العهد ، ومع ذلك قد نتساءل : أكانت مخاوف الأب من أجل جوليان على أساس ؟ ألم يتفق لهذا الشاب الموهوب أن لاقى يوما المطران فأعجب به ، وأهداه كتابا قيما عاد به إلى المدرسة ، فسكنت الأحقاد من حوله وأخذ إخوانه يسلمون له بالتفوق؟ ثم ألم يحدث يوما أن رفعه الأب المشرف نفسه إلى رتبة قارىء الكتب المقدسة أيام القداس ، فأخذ إخوانه فى تملقه بدلا من كرهه والحقد على واهبه ؟ ولكن كل ما أصاب من توفيق لم يستطع فى الحق أن يسكت غل القلوب جميعها ، وقد استمر الكثير منها على عدائه الظاهر أو الخفى .

وكانت إقامة جوليان عند المركيز دى لامول بباريس شق من إقامته عند المسيو دي رينال عمدة فريته ، ولكم قاسى من احتقار المركيز بنوع خاص ، هى وزائراتها . ولكم ضاقت نفسه بأحاديث المركيز وإخوانه بالصالون كل مساء ، وحديثهم لا يعدو أتفه الأشياء ، حتى أصبحت حياته جحيما . وكان إحساسه من الإرهاف بحيث أصبح يشعر بجرح من كل نظرة ، وتولدت فى نفسه من الحقد ما جعله يخشى اعتداء فى كل لفظة ، ولكنه رغم ذلك صمد لما حوله من ضغط بعزم قوى ، وبادل الكل احتقاراً بإحتقار ، وتعاليا بتعال ، حتى دانت له النفوس ، وبلغ الأمر ببنت المركيز نفسها أن أعرضت عن كل من يسعى إليها من أشراف لتتعلق به ، وكان يوم همت الفتاة بالسقوط فيه بين يديه ، فعاودته طبيعته الخيرة ، وأخذ يناقش نفسه الحساب ،

ولكنه عاد فذكر ما كان من اضطهاد تلك الفتاة له فى أول الأمر ، ورأى فيها رمزاً لتلك الجماعة التى أذاقته مر الآلام .

« يالى من أحمق — أنا ابن الشعب تأخذنى رحمة بعائلة كهذه — أنا الذى دعانى دوق شون خادماً . ثم كيف يجمع المركيز ثروته ؟ أليس ببيعه أوراقا مالية عندما يعلم من القصر أنه سيحدث فى اليوم التالى ما يشبه انقلابا فى الحكم ؟ ! وأتى أنا الذى ألقاه القضاء الظالم خلف الصفوف ، أنا الذى أملك قلبا نبيلا ، ولا أملك ألف فرنك دخلاً ، أنا الذى حرمت الخبز — نعم الخبز الضرورى ، فأترفع عن لذة تسقط بين يدى ! لا — لنترك هذا الحمق — ليعمل كل لنفسه وسط هذه الأثرة القاسية التى يسميها الناس الحياة » .

وتذكر جوليان نظرات المركيزة وصديقاتها فاشتعلت نفسه وجرت شهوة الإجرام فى دمه ، وكأنه عندئذ رجل يحارب الإنسانية جميعا . وسقطت الفتاة وحملت من جوليان وعلم بذلك الأب ، فهم بأن يعمل ليمنح جوليان لقبا يدخله فى عداد الأشراف فيزوجه من ابنته ، وقد خيل إليه غروره أن جوليان لا يمكن أن يكون ابن نجار ، وأنه لابد ولد طبيعى لأحد الأشراف تخلى عنه أبوه بين يدى ذلك النجار الذى ينسبه إليه ، وإلا فمن أين لجوليان بتلك الشخصية القوية ؟ وود أن يستوثق من الأمر بالكتابة إلى أحد أهل قرية جوليان ، فاهتدى إلى مدام دى رينال ، وأملى القسيس الذى يتلقى اعترافات تلك السيدة الرد قاسيا ، فثار غضب المركيز وعدل عن مشروع الزواج .

فثار جوليان وركب رأسه إلى قريته حيث شرع فى قتل مدام دى رينال وهى تصلى بالكنيسة . وكان يوم المحاكمة حيث تضافرت جهود بنت المركيز ومدام دى رينال لإنقاذه بعد أن عجز الكل عن حمله على الفرار . ونهض جوليان موجها الخطاب إلى المحكمين بهذه الألفاظ .

« أيها السادة المحكمون ! إن شناعة الاحتقار الذى أريد أن أتحداه عند الموت هو الذى يدفعنى إلى الكلام . أيها السادة ! ليس

لى شرف الانتماء إلى طبقتكم ، وما أنا إلا فـلاح بسيط ثار على ما أنزلته الأقـدار من منزلة وضيعـة • ثم إنى لا أطلب منكم رحمة ، وما أخادع نفسى فى أن الموت ينتظرنى ، وإنى لمستحقه • لقد اعتديت على سيدة جديرة بكل احترام وكل تقدير • لقد كانت مدام دى رينال لى أما ، ولقد ارتكبت جريمة شنيعة أصررت عليها من قبل ، وبـذا وجب إعدامى أيها السادة • ولو أننى كنت أقل إجراما لمـا منع ذلك نفرا من الناس من القسوة على دون رعاية لمـا يستحقه شبابى من رحمة ، ولا هم لهم إلا أن يعاقبوا فى شخصى أولئك الشـبان الذين ينشأون من أصل متواضع تقعـد به الفاقة ، ثم تشاء الأقـدار أن يصيبوا من التربيـة الحسنة وأن يستشعروا من الجسارة ما يدفعهم إلى الاختلاط بما تسميه كبرياء الأغنيـاء « الطبقات الراقيـة » • هذه أيها السادة جريمتى • وإنى لعلى ثقـة من أنها ستعاقب أشـد العقاب ، وبخاصـة لأن قضاتى ليسوا من أندادى • وما أرى على مقاعد المحلفين فلاحا اغتنى ، بل كلهم أعيـان متزمتون » •

وواصل جوليان حديثه هـذا عشرين دقيقة • والنائب العام يتقزز فوق مقعده ، وهو أحرص ما يكون على رضا ذوى السلطان • وبالرغم ممـا كان فى حديثه هـذا من عمق فقد تسـاقطت الدموع من أعين كل السيدات الحاضرات ، وما كان أكثرهن فى ذلك اليوم !

هذا هو جوليان سوريل كما خلقه سـتاندال ، فحقق فى شـخصه ما عجز عن تحقيقه فى حيـاته ، فهو رمز لأحلامه • ولقد كان ستاندال من أشد المعجبين بنابليون ، فقد قمص حيـاته فى كتاب رائع • وكان ستاندال ممن يدينون بعبـدأ القوة الذى تنم عنه كل رواياته • وهو أب روحى لنيتشه وأحد منابع ذلك التيار الجارف الذى اجتاح القرن التاسع عشر ، تيـار العنف واستنكار قواعد الأخلاق ، ذلك التيـار الذى لو لم يصمد له تولوستوى لدمر الإنسانية •

جوليان سوريل هو ستاندال نفسه إلى حـد بعيد ، ستاندال الذى حرم من عطف والدته صغيرا وشفى بقسوة أبيه ، وحاول مجد الحرب

مع نابليون بإيطاليا وروسيا ، ثم عاد بغير مجد ، فاندرج فى السلك السياسى ، وعاش بإيطاليا زمنا طويلا ، حيث رأى فى ذلك الشعب من حدة الطبع وتوثب الحركة ما كان يعجب به .

والآن ترى بم نحكم على جوليان ؟ الذى لاشك فيه أنه يتمتع بعطف ستاندال ، وأن البون بينه وبين جريزلو Greslou « تلميذ » بول بورجيه لبعيد . جوليان لم يولد خسيسا ولا شرير الطبع ولا مجبولا على الإجرام بالفطرة ، وفى تاريخ حياته ما يؤيد ذلك ، أخلص الود لصديقه الريفى فوكيه ، وأعزه حتى أسلم آخر أنفاس الحياة ، ولقد صفت نفسه وسلس طبعه بين يدى قسيس قريته وبين يدى الأب الذى كان يشرف على مدرسة القسس التى تعلم بها ، ورد لهما الخير من كل قلبه . ولقد كان جوليان بطبعه حييا خجولا متواضعا ، ولو أن الجماعة التى عاش بينها لم تشعره باحتقارها له ، ولو أنه كان بليد الطبع صفيق الإحساس لما انقلبت حياته مأساة . ولهذا ربما كان جديرا بالعطف وإن كانت وسائل انتقامه مما لا تطمئن إليها النفس ، وقد أصاب بها أحيانا من كان موضع رعايتهم . وما ينبغى مهما تكن الظروف أن نفقد الحس الأخلاقى فنضرب على غير هدى .

إبراهيم الكاتب

يقول المـازنى — وما نريد أن نظن به الكذب ، وبعض الظن إثم — « ولست أحتاج أن أقول إنى إنى لست بابراهيم الذى تصفه الرواية ، وأن هـذا المخلوق ما كان قط ولا فتـح عينيه على الحيـاة إلا فى رواياتى ... ثم إنى لست أرضى أن أكونه ، فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ، ولا التفاتات ذهنـه ، وقد ندمت على خلقه بعـد أن سويته ، فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها ، ولو كان صديقا لجفوته ونبوت به . ذلك أنه يتناول الحيـاة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغـير احتفال . وهو يعبس للدنيا ، وأنا أفتر لهـا عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بهـا يقطر من أطراف أصابعى — كالعرق . وهو مغرى بالتفلسف وأنا أعد الواحد من هـذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر ، وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد ، وأنا ريض سلس ، وهو نفور ، وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة ، وأنا مغتبط بالحيـاة ، راض عنها ، قانع بها ، وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ، ضيق الصـدر ، وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع ممـا كان ، ولست مثله أو من بالتثليث فى الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالفيمونيا . الخ الخ . ، فليس بيننا كما ترى من تشابه ، سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المـعافى » .

(المقـدمة)

وأنا بعـد أعرف « إبراهيم الكاتب » ، وأما « إبراهيم المـازنى » فلا ، إلا أن يكون حـدس لا يغنى عن اليقـين . وإن يكن ثمة أمر يبلبل الأفـكار ، فهـو ذلك التعارض القـوى بين مزاج الرجلين ، ونظرتهما إلى الحياة . إبراهيم الكاتب رجل يحتفل بالحياة ويعبس للدنيا وهو مغـرى بالفلسفة ، نفـور وعر متكبر عنيد ، فى نفسـه مرارة ، وهـو قليل التسامح ضيق الصدر ، لأنه كأنما يريد أن يخلق

الدنيا على هواه وهو أخيرا قد استطاع أن يحب ثلاث نساء يتردد بينهن كالورقة الذابلة تتقاذفها الرياح .. وأما إبراهيم المازنى فرجل يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته ، ويحس السرور يقطر من أطراف أصابعه كالعرق ، وهو يعد المتفلسفين مرزئين يستحقون المرثية ، وهو سمح متواضع ، ريض سلس عطوف مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، لا يرى فى الامكان أبدع مما كان . ثم هو فيما يظهر لا يؤمن إلا بإله واحد وحب واحد كما يقولون . لقد ذهب المازنى بكل الصفات الطيبة ، وأما سميه فالويل له . ومن عجب أن تنظر فترى فى قسمات إبراهيم الكاتب ما يذكرك بقسمات إبراهيم المازنى عندما أصاب الأخير شىء من هموم النفس ، فتتساءل أو لم يتبادل الرجلان يوما شيئا من خصائصهما ؟ أو لم يحفل المازنى بالحياة ، ويعبس للدنيا ويفلسف فى نفور وكبر وعناد ومرارة ، حتى مل وكاد يستريح إلى اليأس ، فاذا به يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته وقد أخذ يرثى للمتفلسفين ؟ ذلك ما نكاد نجزم به ولنا أدلة كثيرة نكتفى بأقواها ، وهو ذلك السرور الذى يقطر من أطراف أصابعه كالعرق السرور ملح ، ابتسامة مرة ، عالم يراه أبدع العوالم ، لأنه لا رجاء فى إعادة خلقه ، تفس ألمت حتى اليأس ، واستغرقت فى الحياة حتى مجتها . ومن كان هذا شأنه لا نحسبه يصير رمادا كله . فتش تجد تحت الرماد نارا .

وفى الحق إن إبراهيم المازنى رجل أثر ، فهو يريد أن يسلب إبراهيم الكاتب الكثير من صفاته ليدعيها . إبراهيم الكاتب نفس واسعة ، اتسعت حتى احتوت الأضداد . ولو أنك سألتنى أن أصف لك ذلك الرجل العجيب لما استطعت خيرا من أن أجمع مميزات الابراهيمين قائلا : هذا هو إبراهيم الكاتب . ولا غرابة ، فكما أن الرجل استمرار للطفل وإن تغيرت القسمات ، كذلك استمرت مرارة أحد الرجلين فى ابتسامة الآخر حتى أصبح سروره عرقا .

ولقد كان فى المرارة شعر ، كما ترى فى الابتسامة سخرية ، وما مات الشعر وإن نازعته السخرية سحره . إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج من الشعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد إليهما بحق جورج ديهامل سر نبوغ الكتاب ، مؤكدا أنه إذا خلا الرجل منهما فقد خلا من كل شىء وإلا فقد اجتمعت له مميزات الأديب الحق .

اجتماع السخرية إلى الشعر سر من أسرار الحياة ، يكاد إبراهيم الكاتب يفض لنا غلافه ، ونحن بعد لا نستطيع أن نتتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا ، لأننا لا نعرف قصته ، وإنما نعرف منها مرحلة قصيرة تذكرنا بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تتكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمات الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقا لطبائعها ، ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا سر نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كانت لابراهيم الكاتب دراما صيغت قصة .

ونحن بعد نعلم أن إبراهيم الكاتب كانت له زوجة ماتت مخلفة له ولدا ، وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بمارى ممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف عند أقاربه ، حيث يجد بنت خالته شوشو الفتاة الجميلة الحية ، وأختها سميحة العائرة الحظ ، التى ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأجد أقاربها . وأخيرا نجية الأخت الكبيرة زوجة الشيخ على صاحب العزبة التى نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيرا مع بنات خالته ، ولكم داعب شوشو وهى طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شبا كأخوين وانقطع عنها سنين طويلة ، وها هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه وحاول ان يقام ذلك الحب فلم يستطع ، فودأن يتزوجها

ولكن نجية لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل سميحة الأكبر منها سنا ، وأصرت على أن تكون سميحة لابراهيم ، وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ « على » الرجل الحكيم المتزن أن يثنى من حماقة زوجته فلم يصل إلى شيء . وجرحت كبرياء إبراهيم إذ رفضت نجية أن « تعطيه » شوشو ، ولو « دفع لها وزنها ذهبا » . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات . وإن كانت فى الحق إمرأة لا تخلو من نبل وأصالة . ومرض إبراهيم بالأقصر ، وعاده الشيخ « على » والدكتور محمود . وشفى وغادرته ليلى ، وعاد هو إلى القاهرة . وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بابراهيم الذى لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئا .

هذا كل ما نعلمه من حياة إبراهيم الكاتب ، ومع ذلك فباستطاعتنا أن نلتقط قسماته التى تجعل منه أنموذجا بشريا لا شك فى صدقه ، وذلك لأن تلك الأزمة النفسية كانت كالمحك الذى يكشف فى الزحام عن تجازيعه .

لقد استجاب طبع إبراهيم الكاتب لعدة أحداث ، ولهذا الطبع خصائصه التى كيفت تلك الاستجابات : نلمحه فى أول أزمته مزيضا ، ونراه فى آخرها مريضا ، ولعله غذى آله أو رفه عنه أثناء مرضه بذلك الشعر الجميل المتشائم ، شعر الكتاب المقدس ، ألا تراه يستهل قصته باحدى آياته « كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن ... » بل ويستهل كل فصل من فصولها : « وكان مساء وكان صباح يوما واحدا » « إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان » ، ارجعى ! ارجعى يا شولميت ! ارجعى ! ارجعى فننظر إليك » ، « أيتها الجالسة فى الجنات ! الأصحاب ينصتون صوتك فاسمعينى .. الخ الخ ، مما يفوح حزنا رقيقا كم شعت به عبقريات منذ دانتى إلى ملتن وفنى .

لقد أشربت نفس إبراهيم الكاتب حكمة الكتاب المقدس التي تجنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما تتعلق به باطلا ، و « قبض الريح » . الا تراه يسخر من جهد حياته ذاته فيحسبه « حصاد الهشيم » ؟ ولا يغرنك منه تلك الفلسفة ، فالحياة كالمرأة الجميلة كلما أعرضنا عنها اشتدت وراءنا طلبا ، وإن في إعراضنا للهفة ، وإن في استهانتنا الظاهرة لحرصا لصيقا بالقلب . انظر إلى نفس إبراهيم الكاتب تناجيه : « ولكنك عبد الحياة ، عبدها الباكي الشاكي بغنائه الذي لا يعجب الأحرار الطلقاء وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تتلهى في سجنك . لا بأس ! أرسل صوتك ليؤدي الصدى مقطعا . نعم ، غن وتسل كما يصيح الصبي في الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود ، وغالط نفسك وقل إن الجمال وحي ، وإن الحب .. لا أدري ماذا أيضا ! ولكن ألا تسمح لي أن أسألك : ما وحي الأزاهير الذي يذكي أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيجاء الثمار ؟ أو أين وحي الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس غن يا عبد الأيام والعوبة الليالي » (ص ١٨٨) أو لا ترى في تلك النجوى صراع روح تود لو استقلت بذاتها فتحاول أن ترفض الحياة ومغريات الحياة فلا تستطيع ؟ روح تهفو إلى أن يكون شعرها أغنية داخلية لا تستمد وحيها من أحد ولا من شيء ، كالزهر يرسل عطره ، والشجر يؤتي ثماره ، والينبوع يضحي خريره . وإني لها بذلك وهي لم تر الحياة إلا سجينه ؟ .

ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها العضل حتى أصبح يحذرها في يقظة مستمرة فلا يستجيب لنداتها أو يحاط به . ماتت زوجته فلاحقته ذكراها سنين طويلة حتى أضنته ، وفي معاودة الذكرى وإلحاحها ما يضني ، وثمة خواطر جرى بها لسان الشيخ علي فأدهشتني لأنها بابراهيم أليق ، وفي لفتات ذهنه أدخل ! قال : « حتى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما يكتب

له فى عمره ، وأن ما بقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجودا منه بأن يكون حياة — استمرارا ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه ... عرف المرء أن أخته التى كانت تتملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يظفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها ، تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ، وتتعرى زهراتها من أوراقها ، وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ، ويطيرها النسيم هنا وهنا » (ص ١٦٤) . هذه هواجس ما أظنها تخطر لرجل كالشيخ على بال ، وذلك لأنه — فيما أعلم — يحيا الحياة ولا يفكر فيها ، وإنما هى فلسفة إبراهيم التى لا أدرى سر نسبتها إلى الشيخ على ، وفيها لوعة تحدثنا بأن سخرية إبراهيم وجفافه الارادى تعمية تنشرها الروح بحركة آلية لتخفى ما فيها من حزن ومرارة . ولكم من مرة نتسقط نجوى إبراهيم القلبية فاذا هى : « إن السعادة لا تجنى فى الحياة بأن يرد المرء يده ، بل بأن يمدها إلى الثمار ليجنيها » (ص ٢٨٦) . ولكن ألم نقل إن تحت الرماد نارا ، وإن فى تضاعيف السخرية شعرا ؟ !

إبراهيم الكاتب نفس لا تزال تعرف الحماسة وتستشعر الشهوات . نفس حارة وإن بلبلتها المرارة فسخرت ! وكأنى بها تحن إلى أن تتعلق بشىء يملأ ما بها من فراغ يزيد هويته ما انساقت إليه من إعراض عن الحياة . نفس تود لو استغرقها شعور قوى . وهذا ما نلمحه فى تعلقه بمارى وشوشو وليلى ، على تفاوت فى النوع والنسب . تعلق بمارى وقد أضعف المرض من صلابة نفسه ، فسكن إلى رقتها وآخى الحزن بينهما ، وكلاهما لا يزال يذكر شريك حياته الراحل . ثم انعقد قلبه بحب شوشو ، وقد سحره منها تفتح قلبها البكر كما تفتح الزهرة لندى الصباح . وكان فى جرأة ليلى وقوة نفسها ونضوج أنوثتها ما جذبه وأوشك

أن يعزيه عن شوشو بعض العزاء أو على الأقل أن يلهيه عن بعض ألمه . وإبراهيم نفس غنية كثيرة الخفايا .

إبراهيم الكاتب أنموذج بشرى لذلك النوع من الناس الذين يطول تفكيرهم فى أنفسهم وفى الحياة ثم لا يهتدون إلى فهم يرتضونه ، فينتهى بهم الأمر إلى التجرد من أنفسهم ومن الحياة يضعونهما أمامهم ليحدقوا فيهما بنظرة ساخرة مؤثرة وإن لم يعدموا أن تثور بهم من حين إلى حين موجة تأتى من القاع ، فاذا بهم يزيدون ، وإذا بالابتسامة تقطر مرارة وإذا بالسرور يتساقط من أطراف أصابعهم كالعرق البارد .

إبراهيم الكاتب شاعر . ولكم من مرة تتحرر نفسه من قيودها ، فيرى ما حوله من جمال الطبيعة يفطن لدقائقها « وكان مما يرقه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء ، فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين فى أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا » .

والآن ترى أصحيح ما زعمه المازنى عندما قال عن إبراهيم الكاتب : « ليس بيننا من تشابه سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعافى ! » . وأنا بعد لا أدعى أن أزمة إبراهيم الكاتب قد اتفقت لابراهيم المازنى ، فهذا لا يعنينى ، ولكننى أحس بوشائج روحية بين الرجلين . أو لا ترى أن لنفسيهما لونا وأن لحياتهما فلسفة ؟ وكم تهزنى روحيهما اللطيفة النافذة ! !

فيليستيه
Félicité

فيليستيه بطلة لقصة صغيرة للروائى الفرنسى الكبير فلوبير عنوانها « قلب ساذج » كتبها المؤلف سنة ١٨٧٧ ، ونشرها مع قصتين أخريين بعنوان « ثلاث أقاصيص » .

فى عنوان القصة وفى اسم البطلة ما يشخص هذا الأنموذج المؤثر ، ولو أنك طلبت إلى أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حقى لما وجدت خيرا من « أم السعد » فإنا نحس فى هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

فيليستيه خادمة من خدم الريف : عقل محدود ، وقلب رحب . وعن هذه المفارقة يشع نبل حياتها المتواضعة الحزينة . فلقد تراها تأتى من أعمال البطولة ما يتحدث به الناس كافة إلا هى ، وذلك لأنها لا تدرى ما البطولة ، بل ولا تفكر فيما تأتى . مثلها مثل كلب أمين ، لأن الأمانة من طبعه ، يقاتل دون سيده ولقد يمسه الأذى ويعود من المعركة لا يذكر إلا ما به من جراح يحييها ألمه . ولقد تنزل بها المحن فتألم حتى لتطرح نفسها على الأرض صارخة معولة ، ولكنه ألم غفل لا أثر فيه لمذكيات العقل الذى ما يزال يلوك بلوانا حتى يجعل من التوافه جلائل الأمور . فيليستيه مثل حى للملايين البشر الذين لم تفسد الحياة العقلية طبائعهم فتركتها كما هى بما تحمل من عظمة وبؤس . وإنك لتستعرض حياتها فلا تقع على فكرة ولا تقف عند رأى ، وإنما هى سلسلة من الوقائع لا تخلف بنفس خادمتنا المسكينة غير الاحساس ، وأما التفكير فى معنى تلك الوقائع فذلك ما لا تعرفه . فيليستيه تحيا الحياة دون أن تفكر فيها ، ولكم تذكرنى حياتها بقول المسيحية : « انس نفسك كى لا تعوق موسيقاها » .

كان وجهها نحيلا وصوتها حادا . فى الخامسة والعشرين كانت تلوح فى الأربعين ، وعند ما وصلت إلى الخمسين لم تعد تنم عن

أي سن . كنت تراها صامتة دائما ، منصوبة القد متزنة الحركات فتحسبها امرأة من خشب تعمل بحركة آلية . فى كل الفصول كانت تلبس منديلا هنديا تشنجه بدبوس إلى ظهرها ، و « بيريه » تخفى شعرها ، وجوارب رمادية ، ثم « جونلة » قميصها « مريلة » كممرضات المستشفى .

ولقد كانت لها حكاية غرام كغيرها من النساء . كان أبوها بناء قتل فى سقطة من « السقالة » ثم ماتت أمها وتشتت إخوتها ، فآواها رجل فى عزبته واستخدمها صغيرة فى حراسة البقر بالحقل ، حيث كانت ترتعد من البرد تحت أسمالها ، وتشرب الماء من البرك مطروحة على بطنها ، ثم تضرب لأوهى الأسباب ، وأخيرا طردت لسرقة فرنك ونصف لم تكن هى سارقته . والتحقت بعزبة أخرى عملت فيها كحارس « لحوشة الدجاج » ، ولكن زملاءها أخذوا يحسدونها لأنها أعجبت أسيادها .

وفى مساء أحد أيام أغسطس (وهى عندئذ فى الثامنة عشرة) قادها زملاؤها إلى عيد كولفيل ، وإذا بلبها يطير لضوضاء لاعبى القيثارة وللأضواء المثبتة فى الأشجار . ولألوان الملابس الزاهية ، للدنتلا والصلبان الذهبية وتلك الكتلة البشرية التى تقفز راقصة دفعة واحدة . هناك انتحت فى تواضع ركنا ، وإذا بشاب ثرى المظهر يدخن البيبة وهو متكىء بمرفقيه على مجر عربة صغيرة — يأتى يدعوها إلى الرقص ثم يقدم لها كوبا من عصير التفاح المخمر ، وفنجانا من القهوة وقطعة من الفطير ، ويشترى لها « كوفية » ، وكأنه أحس برغبة نفسها فعرض عليها أن يصطحبها إلى منزلها . ولكنه أثناء الطريق طرحها بوحشية على حافة حقل من الشوفان ، فتملكها الرعب وأخذت تصيح وإذا بالفتى يغادرها مسرعا .

وفى مساء آخر وهى فى طريق « بومون » أرادت أن تسبق عربة محملة بالشوفان كانت تسير أمامها فى بطء ، وبينما هى تمر ملامسة عجلات العربة لمحت « تيودور » الذى تقدم نحوها

في مظهر هادىء طالبا إليهـا أن تغتفر ما كان لأن الخطأ لم يكن منـه وإنما كان من الشراب ، فلم تعـوف بسم تجيب وإن أحست برغبـة قـوية في الهـرب ، ولغوره أخـذ يتحدث عن المحصـول وعن أعبـاء الناجية ، لأن أباه كان قـد ترك كولفيـل وذهب إلى عزبة « الأيكو » ، وبذلك أصبحا جيرانا ، أجابت : « آه ! » وأضاف أنهـم يريدون منـه أن يستقر وإن لم يكن هـو في عجلة وكان يفضل أن ينتظر حتى يعثر بامرأة على هـواه ، فطأطأت رأسهـا ، وسألها : هـل تفـكر في الزواج فابتسمت قائلة : « إنه ليس من الخير السخرية من الناس » « كلا ! أقسم لك » ، وبذراعه الأيسر طـوق خصرها فسارت مستندة إلى ضمته وتباطأت خطاهما ، لقـد كانت الريح رخوة والنجوم تلمع ، وحمل الشوفان الضخم يترنح أمامها على العـربة ، والخيل الاربعـة تجر أرجلها مثيرة التراب ، وعرجت الخيل إلى اليمين دون أن تؤمر ، وقبلهـا مرة أخرى ثـم اختفت في الظلال .

في الأسبوع التالي حصل منهـا تيودور على موعد والتقيا بأقصى « الحوش » خلف حائط تحت شـجرة منعزلة ، إنهـا لم تـكن في سذاجة الآنسات ، إذ كانت الحيوانات قـد علمتها ، ولـكن العقل وغريزة الشرف منعاها من أن تسقط ، وكان في مقاومتها ما هيـج حب تيودور حتى اضطر لكي يرضى ذلك الحب أو ... لسذاجتـه أن يعـرض عليهـا الزواج ، فترددت أن تصـدقه ، ولـكنه أقسم أغلظ الايمان ، وبعـد أيام اعترف لها بشيء معرقل ، ذلك أن أهله كانوا في العـام المـاضي قـد اشتروا له رجلا يذهب بدلا منـه إلى الجنـدية ولـكنه لا يأمن أن يطلب من يوم إلى الآخـر ، وكان في هـذه الفكرة ما يخيفه ، ورأت فيليسـتيه في هـذا الجبن مظهرا من مظاهر الرقة نحوها ، فزادت رقتهـا نحوه ، وأفلتت في الليـل لتأتي للموعد وإذا بتيودور يعـذبها بقلقه وإلحاحه ، وأخـيرا أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى مقـر العمدة ليسأل عن الاجراءات ويأتيهـا بالأخبار يوم الأحـد المقبل بين الساعة الحادية عشرة والظهـر .

وعندما حانت تلك الساعة أسرعت فيليستيه إلى الموعد ولكنها وجدت مكانه أحد أصدقائه ، وأخبرها ذلك الصديق أنها لن ترى تيودور بعد اليوم ، لأنه كي يأمن التجنيد قد تزوج بامرأة عجوز عظيمة الثراء هي مدام « ليهوسيه » من قرية « تورك » .

لقد كان ألمها ألما مضطربا لا نظام فيه . ألقت بنفسها على الأرض وأطلقت صيحاتها ، ونادت الله الرحيم ، وأنت وحيدة في الحقل طول الليل ، حتى إذا طلعت الشمس عادت إلى العزبة وأعلنت رغبتها في الرحيل . وبعد شهر أخذت حسابها ، ثم لفت كل متاعها في منديل وذهبت إلى « بون لفك » .

هنالك أمام الفندق عثرت باحدى نساء الأعيان : امرأة في ثوب الحداد اتفق أن كانت تبحث عن طباخة ، ولم يكن يلوح على الفتاة أنها تعرف شيئا ، ولكن مظهر الاستجداد الطيب والتسامح في أجرها كان باديا عليها ، حتى إن مدام أوبان انتهت بأن قالت لها سآخذك عندي ، وبعد ربع ساعة كانت فيليستيه عند مدام أوبان .

ومكثت فيليستيه نصف قرن عند مدام أوبان ، وكانت نساء أعيان بون لفك يحسدنها من أجل تلك الخادمة التي كانت تطبخ وتنظف المنزل وتخيط وتغسل وتكوى ، كما كانت تعرف كيف تلجم الحصان وتضرب الزبد و « وتظفط » الطيور ، كل هذا مقابل مائة فرنك في العام ، وفوق ذلك كله وفية لسيدتها مع أنها لم تكن سيدة طيبة .

كانت تستيقظ منذ الفجر حتى لا تفوتها الصلاة في الكنيسة ، وكانت تعمل حتى المساء دون انقطاع ، حتى إذا انتهى العشاء وأعادت الأطباق المغسولة إلى مواضعها ، دفنت الخشب تحت الرماد داخل المدفأة ونامت أمامها ومسبحتها بيدها ، ثم إنها في مساومة الباعة لم يكن أحد أشد منها عنادا ، أما عن النظافة فقد كان بريق أوانيها مصدر يأس للخادمات الأخريات . ولحرصها على الاقتصاد كانت تأكل في بطء ، وتلم بأصابعها فتات الخبز

الذى يتساقط على المائدة ، ذلك الخبز السعيك الذى كان يصنع لها خاصة ، كل رغيف اثنا عشر رطلا تأكل منه عشرين يوما كاملا .

أما مدام أوبان فكانت أيما ، إذ أنها تزوجت صغيرة بشاب جميل رزقت منه بولد هو بول وبنت هى فرجينيا . ثم مات زوجها فعاشت الأيم بعده عشرات السنين وذكرى ذلك الزوج تعلق فوق كل شىء ، فالصالون مسجى بالحداد وقد أغلقته إلى الأبد ، والبيان متروك بالصالة ومن فوقه أعمدة من صناديق الورق ، وصورة « المرحوم » بالحائط تشرف على الجميع . وكان مجلسها باستمرار فوق كرسى من القش وضعته أمام المدفأة التى كانت ترى على جانبها مقعدين آخرين من القماش لا يغادران موضعهما ، وفى المنزل كله رائحة تشبه المعفونة تقطر حزنا .

وتتابعت السنون والأيام متشابهة إلا أن تكون أيام الأعياد . وكانت مدام أوبان لا تؤرخ تلك السنين إلا بحوادث حياتها الداخلية التافهة ، ففى عام كذا أحضرت عاملا أعاد طلاء الصالة ، وفى عام كذا سقط جزء من سقف الحوش فكاد يقتل رجلا ، وبعد ذلك بسنين ماتت إحدى صديقاتها أو انتقل أحد معارفها إلى بلدة أخرى .

ومع ذلك فقد جدت حوادث أعظم من كل ذلك خطرا . ففى ذات يوم قصدت مدام أوبان وابنها وبنتها ومعهم فيليسيتيه إلى إحدى عزبتها ، وكان اليوم كثير الضباب ، وإذا بثور هائج يغير عليهم ، ولولا خادمتهم الشجاعة لافترسهم ، وذلك أنها أخذت تتناول قطع الطمى والأعشاب تلقيها فى وجه الثور متراجعة بظهرها حتى شغلته إلى أن تمكن أسيادها من النجاة . وأخيرا وصلت إلى سياج والثور يطاردها ، وبحسن توفيق تسللت بين قضبان السياج فلم تصبها قرون الثور الذى أوشك أن يقد بطنها . وبهذا اليوم تحادث جميع الناس ، وأما هى فلم يخطر ببالها أنها قد أتت عملا نبيلا . وكان من أثر الخوف الذى نزل بهم جميعا أن مرضت فرجينيا بأعصابها ، ولم يزل الداء يلح عليها حتى

ماتت فكان حزن فيليسيتيه لموتها لا يقل عن حزن أمها ، وذلك لأنها كانت لا تزال تذكر تلك الأيام التى كانت تحمل فيها فرجينيا وبوك على ظهرها كأنهما حملان . ولئن كانت الخدمة المسكينة قد وجدت شيئا من العزاء ، فان ذلك لم يكن إلا فى الخصلة التى أخذتها من شعر الميتة واحتفظت بها فى صدرها .

وتكالبت المحن على فيليسيتيه ، إذ أنها لم تكد تهتدى إلى مكان إهدى أخوتها وتتعرف إلى ابن أختها فكتور الذى كان يافعا جميلا حتى سافر المسكين فى رحلة بحرية مع السفينة التى كان يعمل بها بحارا ، وكان سفرا مشئوما ، إذ لم يعد منه . ولكم سألت فيليسيتيه عن تلك الجزر النائية التى قصد إليها ، ولقد أروها فعلا جزيرة هافانا على الخريطة ، ولكنها لم تقنع بذلك بل ودت أن لو أروها — على الخريطة أيضا — المنزل الذى سيسكنه فكتور عند وصوله ! ولكم كان حزنها مرا عندما علمت بوفاته .

وكانت فيليسيتيه صادقة الايمان بالدين إيمانا ساذجا ، كم من مرة ذهبت لتعترف بخطاياها ، والله يعلم أنها كانت خطايا هينة لا يحمر لهنا وجه عذراء . وأخذ خيالها الفطرى يرى مظاهر الله فى كل شىء . كانت تستمع إلى القسيس يتحدث عن الله فتود لو تصورت شخصه ، ولكنها لا تصل إلى ما تريد ، فهو أحيانا طائر وأحيانا قبس من النور ، وأحيانا نسمة من الريح . ومن يدريها لعله الضوء الذى يهفو فى الليل على حافة الغدران أو الريح التى تسوق السحب ، ولعل صوته هو الذى يتردد فى النواقيس نغمات منسجمة . بل لقد أحبت كل حمل بسبب الحمل المقدس ، وكل حمامة بسبب روح القدس .

وكان لروح القدس فى نفسها أثر عجيب ، ولذلك حكاية تستحق أن تروى .

فقد حدث أن إهدى صديقات مدام أوبان أهدت إليها ببغاء ، ولم تدر السيدة ماذا تفعل به ، فتركته لفيليسيتيه التى

تطلقت به تعلقا شديدا ، وبعلاقة ساذجة جمعت بين محبتها للـه ومحبتها لذلك الطائر • أو ما يشبه الحمامة ، رمز الروح المقدسة ؟ وازداد إحساسها هذا تجسما عندما مات البيغاء وحنطته محتفظة به فى حجرتها ، وانتهى بها الأمر إلى أن أصبحت تعبد اللـه جاثية أمامه !

وماتت مدام أوبان « فتساءلت فيليسيتيه ، كيف يجوز أن تموت سيدتها قبلها ! وكان بول قد تزوج ، فأتت زوجته لتأخذ من الأثاث ما يصلح البيع ، ولكم كان حزن فيليسيتيه عميقا عندما رأت زوجة الابن تنتزع ملابس فرجينيا التى احتفظت بها مدام أوبان فى (الدولاب) كآثار مقدسة • وكانت الخادمة المسكينة قد ترفق بها القضاء فأصابها الصمم وفقدت بصرها فلم تسمع ولم تر شيئا مما قيل أو فعل ، إلا القليل الذى أدركته بالحدس • وكانت سيدتها قد وقفت عليها معاشا صغيرا استطاعت أن تقتات به أياما قليلة ، إلى أن وافاها أجلها ، وكان ذلك فى يوم عيد دينى ، فلم تحزن فيليسيته لمغادرة الحياة قدر حزنها لعدم استطاعتها المشاركة فى ذلك العيد الذى طالما فرحت بقدومه •

هذه حياة فيليسيته : حياة حزينة مؤثرة ، حياة محبة وإيثار • لقد أحبت بول وفرجينيا طفلين ، ولم يكن يحز فى قلبها شىء مثل حظر مدام أوبان عليها أن تقبلهما فى كل حين • ومن قبل أحبت تيودور وحسبت أنها ستتزوج كغيرها من الفتيات فخانها تيودور وخانتها الأيام • ومن بعد فرحت بفكتور وبنفسها حسرة ، إذ لم تستطع أن ترى منزله على الخريطة بتلك الجزر النائية التى أبحر إليها ، ولكنها قد وجدت فى محبتها للـه عزاء عن كل المحن وما عليها أن ترى اللـه فى طائر أو فى مظاهر الوجود ، واللـه روح بكل مكان وكل نفس • ولربما كان هذا التجسيم الساذج سببا فى قوة إيمانها ، ولعل اللـه قد تقبلها قبولا حسنا فقد كانت حياتها بطولة صامتة ، بطولة عظيمة لأنها تجهل نفسها •

الأستاذ بتـلان
Maître Pathelin

الأستاذ بتلان بطل مهزلة «Farce» ظهـرت بفرنسا فى أواخر القـرون الوسطى سنة ١٤٦٠ م • ونشرت سنة ١٤٨٠ • وأما مؤلفها فقـد تضاربت بشأنه الآراء : فمن قائل إنه « فرانسوا فيـون » F. Villon ، ومن قائل إنه جيـوم دى لوريس Guillaume de Lorris ومن قائل إنه أنتوان دى لاسـال Antoine de La Salle ، ومن قائل إنه بيير بلانشيه Pierre Blanchet ، ولـكنها كلها فروض لا تفيد يقينـا بحيث يصـبح من الخير أن نعترف بأننـا لا نعـرف ذلك المؤلف •

ولقـد لاقت تلك المهزلة نجاحا عظيما عنـد ظهـورها ، فمثلت مرات كثـيرة ، وإلى اليوم لا تزال تمثل فى الجامعات الفرنسـية ، ولا تزال تقـرأ رغم صعوبة لغتها القـديمة ، التى تختلف اختلافا محسوسا عن اللغـة الفرنسية الحديثة • ولمـا كانت تدرس بكافة المعاهد الفرنسية ، فإن بطلها قـد أصبح فى شهرة أكبر الشخصيات الروائية فما من فرنسى يجهـل الأسـتـاذ « بتلان » بل قل أن يجهله أوربى مثقف •

ولا أدل على نجاح الأستاذ بتلان من أن يصبح اسمه من مفـردات اللغة الفرنسية ، فيوصف الرجل بأنه « بتلان » C'est un Pathelin أى « ماكر » • ومن الاسم اشتق فعل كما اشتق مصـدر ، فيقال Patheliner (يبتلن) • كمـا يقال Pathelinage « بتلنـة » بمعنى : « يمكر » و « مكر » •

« الأستاذ بتلان » المحامى أنموذج خالد للمكر الذى يعـرف من أين تؤكل الكتف ، والمكر ليس ملكة مستقلة وإنما هو وليـد تركيب عجيب من قـوى النفس • المكر ذكاء ينفـذ إلى النفوس فيعـرف مواطن الضعف فيها ، وإلى تلك المواضـع يتسلل فيختلس الثقـة ، والمكر إحساس باطنى بالنسب ، إحساس يقف بصاحبه عنـد طاقة

الغير يعالجها برفق حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يعى ما يفعل ، والمكر آخيرا قدرة على تصريف القول ، وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يعنى عنه سلاح آخر للنجاح فى الحياة . صفة لازمة لا لرجال العمل فحسب ، بل لرجال الفكر أيضا ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، وتذليل تلك النفوس . وإذن فالمكر ليس شرا فى ذاته ، وإنما يصبح شرا إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود .

ومع هذا فالأستاذ بتلان مثل للمكر السيء الذى يحيق بصاحبه ، فهو لا يستخدم دهاءه للوصول إلى حق يرد عنه جمق البشر أو شرهم ، بل يستخدمه فى اختلاس مال غيره أو تضييع حقوقهم .

نراه فى أول المسرحية وكأن الملل قد أخذ بملكاته فغفت فأقلقه امرأته « جيمت » Guillemette تستنهضه بصوتها الحاد كالصرير : « يا صلاة النبى ! لا قشة بالدار ! سيفنينا القحط ! لقد تأكلت ملابسنا حتى لم تعد إلا أسمالا ، وما تدرى كيف السبيل إلى تعويضها . إيه ! قل لى ماذا أفدنا من علمائك ؟ ! » وما أن حركت « جيمت » كبرياء الأستاذ — إذ تحدثت من علمه — حتى استيقظ من سنته صائحا بها « اخرسى ! وذمتى لو أننى أردت أن أستخدم ذكائى لعرفت أين نجد ما نريد من ثياب وقبعات . وبعون الله سنفلت من الضيق ونرتفع لساعتنا . نعم من دقيقة إلى أخرى يأتى الله بالفرج . وعندما آخذ فى استغلال مهارتى لن ترى لى مثيلا » وانطلق بتلان إلى السوق يتحسس فرائسه ، وإذا به أمام حانوت السيد جيوم جيوكوم Maitre Guillaume Jocaume بائع الأقمشة المشهور بالحذر والبخل . والأستاذ بتلان رجل معتز بملكاته ولهذا يروقه أن يستغفل السيد جيوم ، فيضى فى نفسه كبرياء الفنان الذى يهزه التغلب على الصعوبات الحقيقية .

وسبيل بتلان إلى ما يريد هو ما ذكرت من غن المسكر • عليه أن يختلس ثقة السيد جيوم • وهو لا يخترع شيئًا ، وإنما يستخدم الطريقة التى يحذقها حتى اليوم ملايين البشر : « آه ! إننى مسرور برؤيتك يا سيد جيوم ! كيف حالك ؟ هيا ! إعطنى يدك ، لعلك فى صحة طيبة ، والتجارة كيف حالها ؟ ••• الخ » وأحس الأستاذ بتلان أنه قد أخذ يصل إلى نفس السيد ، فأوغل فى غزوه ، وتحدث إليه عن والده : « آه ! لقد كان والدك يا سيد جيوم رجلا طيبا • كان تاجرا ماهرا • كم من مرة حدثنى متنبئًا بما نرى اليوم » • وسكن السيد جيوم الى الأستاذ بتلان ، إذ تحركت نفسه وقد رأى رجلا من رفاق أبيه القدماء ، فطلب أن يجلس ، وكان هذا أول نصر أحرزه الأستاذ •

جلس بتلان ووجهه يتهلل سخرية ، وحدق فى وجه السيد جيوم ثم قال : « يا لله ! إننى ما رأيت قط ابنا يشبه أباه إلى هذا الحد ! العينان والأنف والفم كلها من المرحوم • وعرض الذقن ، حقا إنك هو بقضه وقضيضه : يا للعجب ! كيف تخلق الطبيعة وجهين متشابهين هذا التشابه التام ؟ ! » ، ومر بتلان من الحديث عن أبى جيوم إلى الحديث عن عمته لورانس ، ملاحظا أنه يشبهها أيضا بجسمه • وعاد من العمة إلى الأب ، الأب ، العمام ، الخبير بأسرار التجارة • لقد كان — رحمة الله — لا يتردد فى أن يقرض ماله من يريد ، وأحس بتلان أن أقواله قد أحدثت أثرها ، وذلك لما لاحظه من أن السيد جيوم قد نام حذره فأخذ يبتسم ويتلطف ، وهنا رأى الأستاذ أن الوقت قد حان ليخطو خطوة جديدة • وبحركة شبه آلية طرح يده على ثوب من القماش ونظر إلى الثوب ، فقطع عليه الإعجاب سلسلة الحديث : « آه ما أجمله قماشا ! لينا ، رقيقا ، مخملا » • وفى سرعة خاطفة وجه الحديث وجهة أخرى ، ولكن السيد جيوم تاجر ، ولقد أيقظت كلمات بتلان المابرة غريزة الكسب فى نفسه ، فعاد هو بالحديث إلى القماش ، وتظاهر الأستاذ بتلان بالسذاجة حتى أوهم الرجل بأنه سينجح فى إغرائه بالشراء •

« آه ! حقا . لقد أغريتنى . والواقع أنه لم يكن فى عزمى أن أشترى قماشا فى هذا العيد ، ولذلك وضعت قبل مغادرة المنزل ثمانين جنيها فى الخزانة لأدفعها تسوية لمعاشى مدى الحياة . ولكن يظهر أنك بتأخذ منها عشرين أو ثلاثين . ذلك ما يبدو لى ، فاللون قد أعجبنى إعجابا خالصا حتى ليؤلمنى أن نحرم من قماش كهذا » .

بذلك تهيأت الصفقة ، ولم يبق إلا الاتفاق على الثمن ودفعه ، وهنا تظهر مهارة بتلان فهو يأبى إلا أن يدعو السيد جيوم ، بعد أن اتضح ما بينهما من معرفة قديمة ، إلى تناول الغداء معه ، وبخاصة لأن مدام بتلان فى ذلك اليوم كانت تشوى إوزة سمينة وقد أعدت إلى جوارها النبيذ الجيد المعتق ، وتكون هذه فرصة مواتية يوثق فيها الود مع بتلان ، ثم يأخذ جنيهاته ويعود إلى حانوته مشكورا . وأغرت الأوزة ، وأغرى النبيذ السيد جيوم ، فوافق على أن يحمل القماش وقت الغداء ويأتى إلى منزل بتلان . ولكن الأستاذ لا يريد هذا الحل ، ولا بد له من أن يعود إلى زوجته بالقماش ، وإذن فلا بد من حيلة جديدة يتم بها ما أبداه . والأمر سهل ، فهو لا يقبل ان يحمل السيد جيوم ثوب القماش تحت إبطه ، بل سيحمله هو ، وبذلك يوفر على السيد جيوم — ابن ذلك الذى تشرف بمعرفته منذ سنين — مشقة حمله . ولكن جيوم يأبى هذا الحل ، ويلح فى أن يحمله هو ، فينتفخ بتلان رافضا رفضا باتا أن يتحمل جيوم كل هذه المشقة من أجله ، ثم يزج باسم المرحوم فى الحديث من جديد ، ذاكرا ما كان بينهما من ود وتزاور ، ويتوزط جيوم ، فلا يرى بدا من التسليم للأستاذ بما يريد . ويأخذ بتلان القماش ويعود إلى منزله بعد أن تواعدا على المائدة .

إلى هنا نجح الأستاذ بتلان فى النصب ، فأخذ القماش دون أن يدفع قرشا واحدا ، وكان سر نجاحه فى علاجه لنفسية جيوم :

فقد عرف كيف يحادثه فيما يهمه وكيف يتدرج فى ذلك الحديث كلما ازداد الخصم إقبالا واستئناسا ، وقد حرص على أن يكون حديثه دائما أبعد ما يكون عما يريد ، وكأنه حديث برىء ، فهو لم يذكر القماش إلا عرضا وكأنها المصادفة البحتة ، ثم وجه الحديث وجهة أخرى ، وعندما عاد إليه تظاهر بأن الخصم هو الذى يقوده ويغريه وهو يكبت رغبته الخفية ، حتى لكأن الصفقة فى مصلحة الخصم وما صاحبنا إلا فريسة . وفى النهاية « يكلفت » السيد جيوم ، كما يقول العوام ، فى فيض من الأقوال المعسولة التى تورط الرجل . وتلك لا ريب مهارة دقيقة ، فيها مزيج من التملق اللبق ، ومن التظاهر بالسذاجة ، كما أن فيها فطنة إلى أهواء الخصم واتجاهات نفسه ، ومواضع ضعفه ، واستغلال لكل ذلك على نحو لا يكاد يلحظ .

ولكن جيوم سيلاحق أستاذنا بمنزله ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟

هنا تنكشف نفس بتلان عن قوى جديدة ، أخصها الجرأة الصفيقة . فهو يتفق مع زوجته على أن يتصنع المرض ، وأن يدعى أنه مريض منذ أسبوع ، لم يغادر خلاله الفراش قط ، وأن يلعبا الدور معا بحيث يوهمان المسكين جيوم أن قصة القماش ، والجنيهات والأوزة والنبيذ ، وما إليها ليست إلا هذيان محموم . وفعلا يرقد بتلان فى السرير وما يكاد جيوم يدق على الباب حتى تخف إليه « جيمت » على اطراف اصابعها واضعة سبابتها على فمها ليصمت جيوم ، ولا يرفع صوته فيزعج المريض . ويجرى حوار مضحك بين جيوم وجيمت يطالب فيه الرجل بالقماش أو النقود ، فتدعى جيمت الغفلة وكأنها لا تفهم شيئا مما تسمع ، وهمها الشاغل مرض زوجها ، وقلقها الشديد على حياته ، وقد يئس الطبيب من شفائه . ويطول الجدال فيصيح بتلان من فراشه : « جيمت ! جيمت ! قليلا من ماء الورد ، ارفعينى ! دثرينى ! حككى مسطح قدمى » ، وتدخل جيمت إلى المريض فيتبعها جيوم ،

ويطالب الرجل بدينه ، بينما بتلان يخاطبه كأنه الطبيب المداوى ، فيحدثه عن أثر الدواء الأخير وعن أرقه وأحلامه المزعجة • ويثور جيوم فيزداد صوته ارتفاعا وهنا تقرر جيمت إخراجه ، وتعنفه أشد تعنيف لاقلاقه المريض ، وتطلب إليه الانسحاب حتى لا يأتى الأطباء فيجدونه ، فيظنون أنه قد أتى من أجلها • وعندئذ لا يرى السيد جيوم بدا من التراجع ، وقد أخذت الشكوك تساوره حتى أوشك أن يظن أنه مخبول وأنه فى حلم يقظة فقرر أن يعود إلى حانوته ليقيس ثوب القماش كاملا ، ويتأكد من أنه قطع منه ستة أذرع •

انسحب إذن جيوم ليعود إلى حانوته يختبر بضاعته ، ثم لم يلبث أن عاد • ولكن بتلان لم يكن بالرجل الذى تنفذ حيله • عاد جيوم يهدد باحضار البوليس إن لم يرد إليه القماش أو يعطى جنيهاته ، فاضطربت جيمت ، وأما الأستاذ فقد كان أثبت من ذلك قلبا ، فأخذ يهذى بكل اللهجات الفرنسية ، حتى إذا استنفذها هذى باللاتينية ، وسخر من جيوم فى تلك اللغة التى يجهلها بائع القماش • وينجح الأستاذ فى تمثيل الدور نجاحا ينسى معه جيوم قماشه ولا يعود يذكر إلا أنه فى حجرة رجل يحتضر • وهنا يأخذه الخوف حتى ليبدو له أن ما حدث ليس إلا العودة من الأعيب الشيطان الذى تنكر فى هيئة بتلان ليسلبه قماشه ، وإذ وصل إلى هذا الاحساس لم ير خيرا من أن ينسحب فى سلام •

بهذه الخاتمة كان من الممكن أن تنتهى القصة : فالسيد جيوم قد استجار الله وآمن بأن الشيطان هو الذى أخذ قماشه ، ولقد رسم الصليب على جبهته وجانبى صدره ، ثم هم بالعودة إلى منزله مستعيذا من الشيطان الرجيم • ولكن القصة فيما يظهر كانت شعبية الأصل ، والشعب يعلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، وبذلك جرت حكمته المأثورة منذ آلاف السنين • وإذن فلا بد للقصة من خاتمة أخرى ينال فيها بتلان جزاءه • ومن ثم

تصور المؤلف حادثة أخرى من الممكن أن تكون قصة بذاتها ، واتخذ منها خاتمة لقصة بتلان وجزاء لمكره السيء .

وذلك أن جيوم لم يكد يغادر الباب حتى وجد نفسه أمام راعي غنمه توما الحميل « مصغر حمل » ، وكان توما هو الآخر راعيا ماكرا ، كم من مرة ذبح خراف جيوم ثم ادعى أنها قد ماتت بالحمى ، ولكن السيد جيوم قد أخذه في المرة الأخيرة متلبسا بجريمته ، وها هو الحميل يأتي إلى الأستاذ بتلان ليوكله في الدفاع عنه أمام القضاء . ونظر الأستاذ فأحس أن القضية صعبة ، ولكن انتصاره على جيوم أغراه بانتصار جديد ، فقبل الوكالة . وكانت خطة دفاعه بالغة البساطة ، فقد اتفق مع الحميل على أن يلعب راعينا دور الأبله ، فيجيب على كافة الأسئلة التي توجه إليه بجواب واحد هو : « بآ » كحميل حقيقي ، وهذا ما كان . فقد تقدم الخصمان إلى المحكمة ، وكان القاضي لا يخلو من بله ، وتقدم الأستاذ بتلان كمدافع عن الحميل ، ولكن جيوم لم يكد يرى الأستاذ حتى جن جنونه . فقد تركه لتوه مريضا بمنزله ، وها هو الآن في ساحة القضاء ! واحتدم الغيظ في نفس الرجل ففسى دعوى الغنم ، وأخذ يهاجم بتلان مطالبا إياه بالقماش أو الجنيهات ، والقاضي لا يفهم شيئا مما يسمع ، فالقضية قضية غنم ، والغنم لا ذكر لها ، والحميل لا يجيب بغير « بآ » واستمر السيد جيوم يقفز من الغنم إلى القماش ، ثم يعود إلى الغنم ، حتى ضجر القاضي ، وتهيأت لبتلان الفرصة ليطلب من قاضينا المبجل إلزام جيوم الصمت ، وإطلاق سراح الراعي ، والحكم على المدعي بالمصاريف ، وهذا ما كان . بل لقد بلغ الأمر ببتلان أن نال ثقة القاضي نفسه ، فدعاه حضرته إلى تناول الغداء معه . وهنا يطير عقل جيوم ، فيسرع إلى بيت بتلان ليتأكد من أن الشيطان لم يخدعه ثانيا ، وليستوثق من أن بتلان قد غادر منزله ، وذهب حقيقة إلى المحكمة .

على هذا النحو يكون المكر قد انتصر مرة أخرى ، وبذلك تظل غريزة العدل غير راضية . والشعب حريص على العدل

حتى فى مهازل المسرح . ومع ذلك فها هو ذا الحميل يهم بمغادرة المحكمة ، وهو يتوثب سرورا بعد أن فاه بآخر « بآ » وها هو ذا بتلان قد كسب القاضى والقضية ، فأين إذن عقاب المكر الخبيث ؟ !

لقد تلقى بتلان عقابه من الحميل ، وذلك لأنه لم يكد يوقفه ببساب المحكمة طالبا إليه أجر الدفاع حتى أجابه حميلنا بـ « بآ » . وعبثا حاول الأستاذ أن يقنع الحميل بأنه لم يعد فى حاجة إلى « بآ » وأن القضية قد انتهت ، وأنه يود الانصراف إلى منزله . ويعود يطلب أجره ، فلا يجيب الحميل بغير « بآ » حتى انتهى الأمر بأن يئس بتلان نفسه ، بتلان الذى عبث بجيوم وبالقاضى ، ثم ها هو الحميل يعبث به بدوره . وافترق الرجلان ، وقد تعلم بتلان درسا صفق له الشعب أشد التصفيق ، إذ وجد الماكر من يمكر به ، وقد تلخص مكر الحميل فى كلمة واحدة ألقت بأسلحة بتلان كلها إلى الأرض .

هذه هى قصة الأستاذ بتلان الذى أصبح مضرب الأمثال فى الدهاء ، وأجزاؤها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة ، فبتلان الذى نلقاه فى الحياة فنشقى به ، هو بتلان الذى عرف كيف يحتال فيكسب ثقة السيد جيوم ويأخذ منه القماش . هذا الجزء من القصة لا نبالغ إذا قلنا إنه يتجدد عشرات المرات فى اليوم الواحد فى بقاع الأرض كافة . وأما الأحداث التالية ، كتمارض الأستاذ ورطانته بمختلف اللهجات ، وانتهاء الأمر بجيوم إلى الإيمان برجس الشيطان ، وحادثة الحميل « بآ » فمواقف مسرحية تثير الضحك ولكنها لا تكشف من أسرار الحياة شيئا وهى أشبه ما تكون بمهازل مسارحنا . ونحن بعد لا نذيع سرا إذا قلنا إننا مجاطون من كل جانب بأنواع من بتلان ، وأما جيوم فأكبر الظن أنه موجود هو الآخر ، وكل ما نخشاه هو ألا نجد « الحميل » . ورحم الله من قال :

« إنى لست بخب ولكن الخب لا يخدعنى » .

راستنياك

Rastignac

إيوجين دى راستنياك ، شخصية روائيـة ضخمة من شخصيات أونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) الـكاتب الفرنسى الشهير . وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الـكثير من القـراء ، وذلك لأن بلزاك قـد تحدث عنـه فى عـدد كبـير من رواياته ، حتى لنحسبه قـد بلغ من نباهة الذكر ما بلغـه كبار رجال التاريخ . لقـد ملأ راستنياك « الكوميديا البشرية (١) » بوجـوده الصاخب ، بل لقـد أفلت منهـا ليجوب الحياة ، وهو لا شك حى بيننا ، يجده كـل من يمعن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حيـاة راستنياك منـذ البـدء إلى النهاية . وبلزاك نفسه لم يجمـع تلك الحياة ، ولا تتبعها تتبعـا تاريخيا ، وهو القـائل فى مقدمة روايتـه « إحدى بنـات حواء » فى صـدد الحديث عن راستنياك : إنه كثيرا ما يحدث « أن نعرف وسط حيـاة شخص قبـل أن نعرف بدأها ، ربدأها بعد خاتمتهـا وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقـد أدرك المؤلف نفسه ما سيجده النقاد من مشقة عنـدما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التى يسايرها من رواية إلى أخرى ، فتصور — مازحا — أن يتولى أحـد الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيـه حيـاة كل

---

(١) من المعلوم أن أونوريه دى بلزاك قد جمع رواياته فى آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » ثم قسمها الى مجموعات هى :

١ — مناظر من الحياة الخاصة ٢ — منـاظر من حيـاة الأقاليم .
٣ — مناظر من الحياة الباريسية ٤ — مناظر من الحياة السياسية
٥ — مناظر من الحياة الحربية ٦ — مناظر من حيـاة الريف . ثم أضاف الى هذه المجموعات :

١ — دراسات فلسفية ٢ — دراسات تحليلية .

شخصية ، مشيرا إلى مظان تلك الحيـاة من « الكوميديا البشرية » وهـذا ما كان فعلا ، فقـد كتب الأستاذان أناتول سرفيير وجيـل كرستوف فهرسا تحليليـا « للكوميـديا البشرية » (١) ، وباستطاعة القـارىء البـاحث أن يعود إلى هـذا الفهرس ليجـد كل ما يريد معرفتـه عن راستينياك منـذ ميلاده إلى أن أصبح وزيرا خطيرا ، وثريا من كبـار الأثرياء .

أما نحن فيكفينـا أن نعود إلى مقـدمة « إحـدى بنات حواء » التى أشرنا إليهـا فيما سبق ، لنرى بلزاك نفسه يلخص لنـا جانبـا كبيرا من حيـاة بطلنـا . فهو يحدثنـا أنه قـد ولد سـنة ١٧٩٩ فى راسـتينياك بمقاطعـة شارانت ، وأنه ابن للبـارون والبـارونة دى راسـتينياك ، وأنه قـد أتى إلى باريس سـنة ١٨١٩ ليدرس القـانون بالجامعة ، وسكن فى بنسيون مدام فوكير (Vauquer) حيث تعرف بجاك كولان (jacques Collin) المشهور باسم فوترأن (Vautrin) ، كما تعرف بهوارس بيانشو (H. Bianchon) الطالب الذى سيصبح فيما بعـد طبيبـا عظيما وأنه قـد أحب مدام نوسنجان (Mme de Nucingen) بعـد أن تخلى عنهـا عشيقها الأول دى مارسيه (De Marsay) . وكانت مدام دى نوسنجان هـذه بنتا لرجل يسمى « جوريو » يسكن مع راستينياك فى نفس البنسيون ، وكان السـيد جوريو المذكور فيمـا مضى تاجر مكرونة وقـد جمع ثروة طائلة من تجاربه ، ولـكنه أعطى كـل ثروته لبنتيه « دوطة » حتى تتزوجا : الأولى بأحـد أبنـاء أراستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب بنـك من أرستقراطيـة المـال وهى مدام دى نوسنجان . ولمـا رأت البنتـان أن أباهما لم يعـد يملك شيئا ، وأنه لا يصيبهما منـه غـير العار — أهملتاه ، بل وتجنبتا لقـاءه ، حتى مات الرجل ميتـة مخزية بالبنسيون ، وتولى راستينياك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقـات ذلك الدفن .

---

(١) Répertoire de la comédie humaine de H. de Balzac. par H. Cerfbeer et j. Cristophe.

هـذه المعلومات يستطيع القـارىء أن يجدها فى رواية « الأب جوريو » ، وهى التى سنتخذها مرجعنـا الأساسى فى تحليل المرحلة التى نريد أن نقف عنـدها اليوم من حيـاة راستنياك ، أعنى مرحلة انزلاقه من الحيـاة الريفيـة المتينـة الخلق السليمة المبادىء ، إلى حيـاة المـدن التى يسكت فيهـا صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفعة إلى أهدافهـا دون أن يردها شىء • ومنـذ أن اجتاز راستنياك تلك المرحلة الشاقـة ، لم تعـد حيـاته غير حيـاة رجل مغـامر ، حيـاة مبتذلة الأحداث • ومن السهل على القـارىء أن يعود إلى رواية « بيت نوسنجان » ليعرف كيف أصبح راسـتنياك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقـد تزوج فى سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دى نوسنجان عشيقته القديمة التى تركهـا منـذ خمس سنوات • وفى سـنة ١٨٣٩ أصبح وزيرا للأشغال العمومية • وأما بقيـة مغامراته فمنثورة فى عـدة روايات وكلها فى ابتذال ما ذكرناه من ثراء ونفوذ ووجاهة اجتماعية ، دفع ثمنهـا راستنياك غاليـا من مبـادىء الخلق وكرامة الانسان •

راستنياك الذى يستوقف الباحث ، هو راستنياك الطالب ، كمـا نجـده فى رواية « الأب جوريو » ، فهنـا تقع المـأساة البشرية ، مأساة الصراع فى نفس البطل بين نشـأته الأولى الشريفـة ، وبين مغامرات الحيـاة الباريسية ورسائل تلك الحيـاة المعيبة • ولنترك لبلزاك مهمـة تقديمـه للقـارىء بعد السـنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقـد أخذت أعين الشاب تتفتح ، وأخـذ الطموح يدب فى نفسه • « وكمـا يتفق للنفوس الكبيرة لم يرد راستنياك أن يدين بشىء لغير مواهبـه ولكن نفسه كانت من نفوس أهل النجنوب ، تلك التى ما تكاد تصل إلى مرحلة التنفيـذ حتى يضرب فى عزمهـا ذلك التردد الذى ينتـاب الشبان عنـدما يجدون أنفسهم فى وسط اللجة دون أن يعرفوا إلى أى جهـة يوجهون قواهم ، ونحـو أى صوب يرفعون قلاعهم ، وإذا كان قـد أراد فى أول الأمر أن يلقى بنفسـه

الى العمل ، فانه لم يلبث أن أعرته ضرورة التعرف بنوى المكانة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير فى الحياة الاجتماعية ، وسرعان ما عن له أن ينطلق إلى الوسط الراقى ليجد فيه حماته منهن ، وهو واثق من أنه لن يعدم العثور على ما يريد • وكيف لا يعثر بهن شاب مثله حار الدماء حاضر النكتة ، وقد اجتمع فيه إلى الحرارة والذكاء ما زادهما قيمة من رشاقة سمت ، وجمال عصبى ، كم يخلو للنساء أن يقعن فى شراكه • ولقد هاجمت تلك الأفكار فتانا وسط الحقول ، وهو يتريض فى مرح مع أخواته اللاتى وجدنه قد تغير تغيرا واضحا • وكانت خالته « مدام دى مارسيلك » De Marcillac قد عرفت فيما مضى كبار الاستقراطية ، إذ كانت يوما من بين من يترددن على البلاط • وفجأة لمح فتانا الطموح عدة معارف يستطيع أن يصل إليها ، وهى لا تقل أهمية عن معارفه فى كلية الحقوق ، ولقد كان فى الذكريات التى رنحته بها خالته ما يلهب خياله ، فسألها عن روابط القرابة التى يستطيع أن يعود فيصلها • وبعد أن استعرضا شجرة النسب كاملة استقر رأى السيدة العجوز على أن الفيكونتس «دى بوسيان» De Beauseant ستكون من بين أقاربهم الأغنياء الأثرين أقلهم تلكأ فى خدمة ابن أختها • وفعلا كتبت خطابا إلى هذه الفيكونتس الشابة ، كتبته بالأسلوب القديم ، وأعطته لأيوجين قائلة إنه لو نجح مع الفيكونتس فإنها ستصله ببقية أقاربه • وبعد أيام قليلة من دعوة راستنياك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مادام دى بوسيان ، وفى اليوم التالى أجابت الفيكونتس بدعوته إلى حفلة راقصة • وكان راستنياك شابا حاد الذكاء عالما بذكائه • وقد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس فى نفسه بتلك القوة • ونظر فيدا له أنه لن يستطيع الرضا بالخمول المبتذل ، وهيهات له أن يقنع بما يعده له أهله من دراسة القانون دراسة جيدة والنجاح فى الامتحانات بتفوق ، ثم الحصول على مركز وكيل نيابة أو قاض بالأرياف • لقد كان راستنياك يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف

فتشرق شخصيته وتتحقق ملكاته . كان يريد أن يعيش فى باريس وسط الأرستقراطية ، كان يريد الوصول .

وأول ما اتجه إليه عزمه هو المال ، فقد كان يعلم أنه لا بد منه لكى يستطيع الظهور بين النبلاء ، فيلبس كما يلبسون وتقوده العربات كما تقودهم . وبالجملة كان حريصا على أن يظهر فى مظهر الأغنياء الذين لا يعدون ما ينفقون . وكان بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدون فى سبيله من تضحيات يقدمنها راضيات لإيوجين الذى تركزت فيه آمال الأسرة لعله ينتهى من دراسته بنجاح . ولكنه رغم علمه بضيقهن المادى ، كان لا يتردد فى أن يطلب إليهن المال ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الفيكونتس » وقد أرسلن إليه ألفا وخمسمائة فرنك من توصياتهن الخارة ، فانتزعت التوصيات من عينيه بعض الدموع ولكن الألف والخمسمائة فرنك نفخت أوداجه وملأته إحساسا بالانتصار ، وسرعان ما استدعى الترزى واتفق معه على ما يريد من ملابس يدفع ثمنها أقساطا مبتدئا بقسط كبير « عندئذ لم يعد فتانا الهمام يحس بشىء مما حوله ، وقد نزل من حجرته إلى مائدة النبسيون فى تلك الهيئة الفريدة التى تخلعها النقود على الشبان . ومن المعلوم أنه ما تكاد النقود تستقر بجيب أحد الطلبة حتى يستشعر جرأة عجيبة ، فهو يسير بأقدام أثبت من أقدامه وكأنه قد وضع يده على رافعة الأثقال ، وتصبح نظراته مليئة مباشرة ، وحركاته خفيفة . لقد كان بالأمس حييا متواضعا قد يضرب فلا يحرك ساكنا ، أما اليوم فقد يضرب هو رئيس الوزراء ! تمر بنفسه ظواهر عجيبة ، فهو يريد كل شىء ، وهو يستطيع كل شىء ، يريد هذا وذاك دون بينة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس . وفى كلمة واحدة لقد استرد الطائر المهيض جناحيه القويين . الطالب الذى لا نقود معه يخطف (نتفة) من اللذة كالكلب الذى يتسرق (عظمة) تحفها المخاطر من كل جانب ثم يكسرها ويمص نخاعها ويستمتع فى الغدو . وأما الشاب الذى توسوس فى جيبه

النقـود ، فإنه يتذوق لذاته ويجزئها ويتمهل فيهـا ، إنه يتأرجح في السماء ولا يعـود يذكر لكلمة البؤس معنى ، باريس كلها ملك له ، ذلك هو السن الذي يلمع فيـه كل شيء ويتقد ، سن القـوة المرحة الذي لا يعرف أحـد كيف يستفيد منـه ، لا الرجال ولا النساء . من الديون والمخاوف السكاذبة التي تزيد من طعم اللذات . إن من لم يعش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان جاك وشارع سان بيير لا يعرف شيئا عن الحياة البشرية » .

في هـذه الصفحة التي تنبض حياة ينفث المؤلف أنفاسه الخاصة في شخصية راستينياك . فلكم حلم بلزاك الذي ولد مـع راستينياك في نفس العـام بأن يبهـر ببـذخ ملابسـه وأحصنتـه ، ولقـد اعوزه المـال دائمـا ، ولذلك كان للمسه إياه قشعريرة نفسية ، هي تلك التي ترتعد في الصفحة الماضية .

وذهب راستينياك إلى الحفلة ، وقـد اتخـذ له أستاذا في فهـم الحياة مدام دي بوسيان . وما نظننا في حاجة إلى تفصيل مبادىء الوضـول ، فتلك الخسائس تقـع تحت أبصارنا كل يوم ، وهل هي إلا تظاهر بالسمو عن الغـير ، سموا سبيله احتكار كل من عـدانا ، وتبجح بملل متسام مثير ، ثـم قتـل لصـوت الضمير في النفس ، وإسكات للمثـل التي تصرفنا عن اغتنام الفـرص ، وإعـراض عن المرحمة التي ترددنا عن القسوة ، وهي أخيرا ألا نرى إلا أنفسنا ، وألا نرد شيئا إلا إلى أنفسنا ، وأن نضحي بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نملي أنفسنا على سوانا ، مهما كان في ذلك الاملاء من جروح . وهـذه هي المبـادىء التي تلقاها راستينياك عن الفيكونتس ونحن نجتزىء ببعض ما سمع عنـدها من دور مزيعة مثـل : « إن القلب البشري كالـكنز . استنفده في غرفة واحـدة تجد نفسك مفلسا . إن النـاس لا يغتفرون لمن يظهر شعوره كله دفعـة واحـدة أكثر مما يغتفرون لمن لا يملك فلسـا واحـدا » وقولها : « كلما ازددت بـرودا في تقديراتك ازددت تقـدما إلى الأمام ، اضرب بغير شفقة

يخشك الناس • لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرك إلى خيل البريد التى تتركها تتنفس عند نهاية الشوط ، وبذلك تصل إلى أسمى ما ترتفع إليه رغباتك » •

وعاد راستنياك من الحفلة إلى أنبنسيون ، بعد أن أمعن النظر فى أرستقراطية باريس • وفى البنسيون وجد أستاذه الفحل جاك كولان المعروف بفوتران : مجرم قديم ، أعيى رجال الأمن أمره ، وقد افلت من السجن حيث كان مقضيا عليه بالأشغال الشاقة ، ولجأ إلى بنسيون مدام فوكير متنكرا • وقد أحس راستنياك فى خلق الرجل جرأة ، وفى حديثه سلطة أثارته حتى أوشك أن يقاتله فى مبارزة ، ولكن فوتران أوقفه بحركة آمرة ، وأرغمه على أن يجالسه تحت إحدى شجيرات الحديقة المحيطة بالبنسيون ، وهناك وجه إليه تلك الخطبة التى ترتعد لها الفرائص • قال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا فعلت ، وماذا أفعل ؟ حقا إنك يا بنى لمسرف فى حب الاستطلاع • آه هدوءا هدوءا أيها الطفل ! ستسمع أكثر من ذلك • لقد ابتلتنى الحياة • استمع إلى قبل أن ترد • ها هى حياتى السابقة فى ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران • ماذا أفعل ؟ ما يحلو لى !

« سأوضح لك أنا الوضع الذى أنت فيه ، ولكننى سأفعل ذلك فى تفوق الرجل الذى اختبر أمور الحياة ، فرأى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما الخضوع الأبله ، وإما الثورة • وأنا لا أخضع لشىء • أواضح ما أقول ؟ هل تعلم ما أنت فى حاجة إليه لتسير فى الحياة كما تريد الآن ؟ إنك فى حاجة إلى مليون فرنك تجدها سريعا ، وإلا قادك رأسك الصغير إلى شباك « سان كلو » (السجن) ، لتبحث هناك عن الكائن الأسمى • هذا المليون سأعطيه أنا لك » ، وأمسك فوتران عن الحديث هنيهة ناظرا إلى راستنياك ، ثم استأنف : « ها ها ! إنك تنظر الآن إلى عمك فوتران نظرة أرفق من ذى قبل — ها هو موقفك أيها الشاب :

لدينا هنالك أب وأم ، وخالة وأختان « فى الثامنة عشرة والسابعة عشرة » ، وأخوان صغيران « فى الخامسة عشرة والعاشرة » ، هذا عدد الجوقة ، الخالة تربى البنات ، والقسيس يعلم اللاتينية للأخوين ، والعائلة تأكل من عصيدة أبى فروة أكثر مما تأكل من الخبز الأبيض . الأب يحافظ على سرواله والأم تقنع بثوب للشتاء وآخر للصيف ، والأختان تدبران أمرهما كما تستطيعان ، وأما نحن فلدينا الطموح . نحن أقرباء بوسيان ، ثم نذهب إليهم على الأقدام ؟ نريد الثروة وليس لدينا سحتوت ، نأكل من « عنك » الأم فوكير ، ولكننا نحب الغذاء الفخم من فوبور سان جرمان ، ننام فى سرير كالمشرحة ، ونريد أن نسكن فى فللا إننى لا ألوم نزعاتك فليس بأستطاعة كل إنسان — أيها الطفل العزيز — أن يكون طموحا . لقد أحصيت رغباتك لكى أسألك السؤال الآتى : نحن جياع كالذئاب الضارية وقوارضنا ماضية ، فكيف السبيل إلى ملء القدر ؟ ليس لدينا ما نأكله غير مجموعات القوانين وهذه لا فائدة من ورائها ، ولكنه الواجب ، فليكن ، ثم نشتغل بالمحاماة لنصبح رؤساء لمحكمة الجنايات ، فنرسل إلى السجن شياطين المجرمين مع أنهم خير منا ، وذلك لكى نثبت للأغنياء أنهم يستطيعون أن يناموا هادئين ! هذا عمل لا بهجة فيه ! ثم إن الشوط طويل ، فلا بد من التصعلك سنتين بباريس ننظر إلى النقود دون أن نستطيع مسها مع شدة رغبتنا فيها ، وإنه لأمر مضمن أن نستشعر دائما الرغبة دون أن نستطيع إشباعها . ولو أننا كنا شاحبين وكنا من طبيعة الزواحف لما خشينا شيئا ، ولكن دماؤنا من دماء الأسود وفى شهيتنا قابلية لارتكاب عشرين حماقة فى اليوم .

« هذا أيها الشاب هو مفترق الحياة ، ولقد اخترت ، فذهبت عند بوسيان من بنى عمومتك ، ولقد أحسست هناك بالبذخ ، كما ذهبت إلى مدام دى رستو De Restaud بنت الأب جوريو ، فشممت فيها رائحة المرأة الباريسية ، ولقد عدت

ذلك اليـــوم وعلى جبينك كلمة قرأتها فى وضـــرح ، هى : الوصول ! الوصول بأى ثمن ! فصحت : برافو ! هـــذا عملاق يلائمنى • ولقـــد شعرت بالحاجة إلى المـــال ، فأين تجده ؟ لقـــد نزفت دماء أخواتك فاستلبت منهن ألفـــا وخمسمائة فرنك بطريقة يعلمها اللـــه ، وهن فى بلاد قـــد تجود بأبى فروة أكثر مما تجود بقطع النقود ، ولكنك تسللت كالهـــارب فى الظـــلام • والآن ماذا تفعـــل بعـــد ذلـــك ؟ أتجـــد فى العمل ، والعمـــل لا يغنى فقيرا ، والثروة العـــاجلة هى المشكة التى تعـــرض لخمسين ألف شـــاب مثلك ممن يجدون أنفسهم فى موقفك الحالى ، وأنت واحـــد من هـــذا العـــدد ؟ فكر فى المجهود الذى يجب أن تبـــذله ، وفى عنف المعـــركة التى ستخوضها ، لا بـــد أنكم ستأكلون بعضكم بعضـــا كالعنكبوت الذى يجتمع فى زهـــرية واحـــدة ، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنـــا لك خمسون ألف مركز كبير • أتدرى كيف يشق النـــاس سبيلهم فى هـــذه الدنيـــا ؟ يشقونه ببريق العبقرية ، أو بالمهـــارة فى الخســـة • يجب أن تسقط فى صـــفوف البشر كقنبلة ، أو أن تتسلل بينهـــا كوباء ، أما الشرف فلا فائدة فيـــه • إن النـــاس ينحنون أمام قـــوة العبقرية ، وهم يكرهونها ، ويحولون النيـــل منهـــا بأقـــوال السوء ، وذلك لأنهـــا تأخـــذ دون أن تقتسم ، ولـــكنهم ينحنون إذا ثابرت • وفى كلمـــة واحـــدة ، النـــاس يعبدونها جاثين عنـــدما يعجزون عن جـــرها فى الأوحال • وكذلك الخسة ، فهى قـــوة ، الخسة ســـلاح الضعفـــاء الذين يملأون الأرض ، وســـوف تحس بوخزاتها فى كـــل مـــكان • إذا كنت تريد أن تثرى سريعـــا ، فمن الواجب أن تملك شيئـــا ، أو تتظاهر بأنك تملك شيئـــا • لـــكى تثرى يجب أن تغامر بضربات قـــوية ، وإلا أضعت وقتـــك فى الجلـــو ثم هيهات ••• وفى المـــائة مهنة التى تستطيـــع أن تزاولهـــا سترى الجمهـــور يسمى العشرة أشخاص الذين ينجحون بسرعة لصوصا • استخلص الرأى • هذه هى الحياة ، فهى ليست أجمل من « الطبيخ » ، ورائحتها رائحته • يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى ، ولـــكن يجب أن تعـــرفة

كيف « تشطفها » بعد ذلك ، ففى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا . وإذا كنت أحدثك عن الحياة على هذا النحو فذلك من حقى بحكم أننى أعرفها . وهل تظن أننى أنحى عليها باللوم ؟ أبدا ، فقد كانت دائما كذلك ، ولن يستطيع الوعاظ تغييرها . الانسان كائن غير كامل ، وهو — إلى حد ما — متافق ، ولهذا يرى الحمقى أنه عديم الأخلاق . وأنا لا أتهم الأغنياء لمصلحة الفقراء ، فالانسان هو هو فى أعلى وفى أسفل وفى الوسط . وفى كل مليون من هذه الحيوانات الرفيعة قد تجد عشرة لصوص يضعون أنفسهم فوق كل شىء ، فوق القوانين ذاتها ، وأنا واحد من هؤلاء ، أما أنت فاذا كنت رجلا ساميا فلتسر فى خط مستقيم مرفوع الرأس ، ولكنك ستضطر إلى مقاتلة الحسد والتنمية والحقارة ، ستقابل جميع الناس . لقد لاقى نابليون وزيرا للحرب اسمه أوبرى Aubry ، ولقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات . تحسس موضع قوتك ، وانظر هل تستطيع أن تستيقظ كل صباح بارادة أقوى إن إرادتك بالأمس ؟ وإذا كانت لى نصيحة أهديها إليك — أيها الملك — فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك ، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له . والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائما فى طريق مستقيم ، هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ . وليست هناك مبادىء وإنما هناك أحداث ، ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكى يسيرها » .

سمع راستنياك هذه الآراء المخيفة ، فنفرت نفسه نفورا شديدا ، وهو الشاب الذى لا يزال يحتفظ بأثر نشأته الأولى فى الريف ، ولذا صاح عندما رأى فوتران يغادره فى هدوء واضعا عصاه تحت إبطه : « أى رأس صلدة يحمل هذا الرجل ! لقد قال لى فى فجاجة ما قالته مدام دى بوسيان بلباقة . لقد

مزق قلبى بمخالبه الفولاذية • لماذا أريد أن أذهب عند مدام دى نوسنجان ؟ لقد حدس الرجل دوافعى كما تحركت فى نفسى • لقد حدثنى ذلك المجرم عن الفضيلة أكثر مما حدثنى الرجال والكتب كافة • وإذا كانت الفضيلة لا تقبل مهادنة فلا شك أننى قد سرقت أخواتى » قال هذه الجملة الأخيرة ، وهو يطرح كيس النقود على المائدة • وبعد برهة عاد يناجى نفسه « الوفاء للفضيلة ! آه يا لله من استشهاد نبيل ! الناس كافة يؤمنون بالفضيلة ، ولكن من منهم الرجل الفاضل ؟ والشعوب كافة تعبد الحرية ، ولكن أين الشعب الحر ؟ إن شبابى لا يزال صافى الزرقة كالسماء التى لا سحب فيها • وإذا كنت أريد أن أصبح رجلا عظيما أو رجلا ثريا ، هل لى بد من أن أكذب وأنحنى وأزحف ذم أنهض وأتمرد وانافق ؟ هل لى بد من أن أضع نفسى خادما لمن كذب وانحنى وزحف • لا مفر من أن أخدمهم قبل أن أصبح شريكا لهم • آه ! لا • إننى أريد أن أعمل فى نبل وطهارة • أريد أن أعمل ليل نهار ، وألا ادين بشىء لغير اجتهادى » • وهنا نلمس الصراع النفسى ، الذى لا نستطيع معه إلا أن نهتز عطفا لتلك النفس التى لا تزال تجالد الشر بفضل ما اختزنت فى صباها من مثل الخير • ونحن لا يعنينا ما سيؤول إليه راستنياك فى الروايات اللاحقة ، وإنما نقف عنده كما نراه فى « الأب جوريو » لنشاهده يرفض التورط فى الاجرام مع فوتران ، ونحن ندع جانبا ما كان له من مغامرات فى الأوساط الباريسية ، مكتفين بالاشارة إلى أهم تلك المغامرات وهى : عشقه لمدام دى نوسنجان • وموضع الخطر على فتانا لم يكن فى ذلك العشق ، وإنما كان فيما رآه من عقوق عشيقته وأختها لأبيهم « الأب جوريو » ، فلقد كان موقفهم منه شديد الشبه بموقف بنات الملك « لير » من أبيهم • بل إننا نعتقد أن بلزاك قد أسرف وأحال فى تصوير ذلك العقوق ، إذ جعل الأب من الحماقة الشاذة بحيث يتكالب فى حبه لابنتيه كلما زادتا تكالا ، ولهذا نرى قيمة

تلك الرواية الشهيرة فى شخصية راستنياك ، لا فى شخصية « الأب جريو » بطل القصة وعنوانها .

عجيب أن نتتبع راستنياك فى محاولاته المختلفة ، وأن نرى إرادته تصلب كلما تناوبه النجاح والفشل ، ومن المعلوم أن العزم لا يقوى بغير الصدمات . وهو رغم استحصاد إرادته لا يستطيع أن يسكت فى نفسه صوت صباه ، فهو يحب أسرته وإن كان يبتز مالها . ولقد يكون فى موقفه هذا ما يدل على أنه يحب ذاته أكثر من حبه لأهله ، ولكنه على أى حال لم يكن ميت القلب ، نراه يبكى عندما يقرأ خطابات أمه وأخواته . وإنه لا ريب أمر سهل أن نبكى قليلا ثم نعود إلى رأس أمرنا ، ولكن أليس عدم البكاء إطلاقا أسهل من البكاء ؟ وهو أخيرا قد تعلق بالأب « جوريو » ورعاه أيام مرضه ، وتكفل بدفنه ونفقات ذلك الدفن مع زميله طالب الطب . ولقد يقال إنه أحب ذلك الشيخ المسكين لأنه كان والد عشيقته ، ولربما كان هذا صحيحا ، ولكنه مهما لا شك فيه أن راستنياك الشاب المحب لأهله قد قدر فى الأب « جوريو » طيبته ومحبته لبنته ، راستنياك ليرافق عشيقته إلى الرقص ، ولكن كم كان صمته لاذعا دون أن يرى ما فى تلك المحبة الشاذة من حماقة . لقد أرسلت إليه مدام دى نوسنجان ليلة اشتداد المرض بأبيها خطابا صغيرا تقول فيه : « إننى أنتظرك للذهاب إلى حفلة الرقص ، فإذا لم أرك بجوارى بعد ساعتين ، لست أدرى هل سأستطيع بعد ذلك أن أغتفر لك تلك الخيانة » ولكنه لم يكد يقرأ هذا الخطاب الوقح حتى أخذ قلمه ليرد لفوره : « إنى أنتظر الطبيب لأعرف هل سيعيش أبوك أم لا . إنه يحتضر . سآتيك حاملا الخبر ، وإننى لأخشى أن يكون خبر الموت ، سوف تنظرين عندئذ : هل تستطيعين الذهاب إلى حفلة الرقص ؟ ! » . نعم إن إرادة مدام دى نوسنجان قد تغلبت فى آخر الأمر ، فذهبت

راستنياك ليرافق عشيقته إلى الرقص ، ولكن كم كان صمته لاذعاً وهو إلى جوارها بالعربة ؟ لقد لزم صمت القبور حتى ضاقت به مدام دى نوسنجان فسألته : « ما بك إذن ؟ » وإذا به يجيب « إننى أسمع حشرجة أبيك ! » .

هذا هو راستنياك : شخصية مركبة معقدة ، شخصية نميل إلى اعتبارها خيرة . وأما إذا أردتنى أن أدل على سبب انزلاقها إلى الشر فى مستقبل أيامها فلست أراه إلا فى أمرين : أولهما أن رغبات هذا الشاب كانت تنبعث فى نفسه قوية لا تدفع . ثم تملأ وجدانه فلا يعود يرى غيرها ، وإذا به مندفع لا يلوى على شىء ، وهو إذا كانت رغباته تثور من داخل نفسه ، فان شجاعته كانت تأتيه من الخارج . إنه لم يكن له بد من النجاح لكى تتحقق ملكاته وتنشط ، بل نستطيع أن نقول إن النجاح كان أول وسائله للوصول . والذى لا شك فيه أنه قد وجد فى مغامراته المختلفة ما يرضى تلك الحاجة إلى النجاح . وثانى الأمرين فساد ما رأى من حياة معظم الناس ، ولقد كان فى موقف بنتى جوريو وصهريه من ذلك الأب البائس ما حمله على مجابهة الهيئة الاجتماعية ومنازلتها بأسلحتها مهما بلغت تلك الأسلحة من الحقارة . وفى الصفحة الأخيرة من الرواية يصف بلزاك دفن الأب جوريو بقوله : « ومع ذلك فعندما وضع النعش على الناقلة ، قدمت عربتان تحمل أحدهما شارة الكونت دى رستو ، والأخرى شارة البارون دى نوسنجان ، ولكنهما خاليتان ، ثم تبعتا النعش إلى المقبرة . وفى الساعة السادسة أنزل جسم الأب جوريو إلى الحفرة ، ومن حوله خدم بنتيه الذين اختلفوا من القسيس بمجرد الفراغ من الصلاة التى دفع ثمنها الطالب راستنياك ، وبمجرد أن انتهى الحفاران من رد بعض حفنات من التراب لتغطية الجسم ، لم يلبث الرجلان أن نهضا وقد اتجه أحدهما إلى الطالب يسأله « البقشيش » ، وفتش أيوجين فى جيبه فلم يجد شيئا ، فاضطر أن يقترض فرنكا من كرستوف خادم البنسيون . ولقد نشرت هذه الحادثة الصغيرة فى نفس راستنياك

حزنا مظلما . وكان النهار قد آذن بالأفول ، وأخذ الشفق الرطب يثير الأعصاب ، فنظر الشاب إلى القبر ودفن فيه آخر دمعة من دموع صباه ، وكانت دمعة فاضت بها عاطفة مقدسة من قلب طاهر ، دمعة من تلك الدموع التى ما تكاد تسقط إلى الأرض حتى ترتد إلى السماء ، ثم ربع ذراعيه إلى صدره ، وأخذ يتأمل السحاب ، ورآه كريستوف فى هذا الموقف فتركه عائدا . ووجد راستينياك نفسه وحيدا فخطا بضع خطوات نحو أعلى المقبرة حيث رأى باريس راقدة فى التواء على ضفتى السين ، وقد أخذت الأنوار تسطع ، فاستقرت عيناه فيما يشبه التهم بين عمود فندوم وقبة الأنفاليد ، وبين هذين الموضعين يقع حى تلك الطبقة الراقية التى أراد أن يختلط بأفرادها . وأرسل إلى تلك الخلية الطنانة نظرة تكاد تمتص ما بها من رحيق ، ثم قال هذه الكلمات الرائعة : والآن فلأخل لك ! وكان أول عمل من أعمال التحدى الذى أعلنه راستنياك للهيئة الاجتماعية أن ذهب ليتناول العشاء عند مدام دى نوسنجان » .

لقد كان فى ذهابه إلى العشاء مع تلك العشيقة العاقة آخر عهده بالحياة الشريفة ، بعد أن رأى من فساد الهيئة الاجتماعية ما لا يمكن أن تصمد له مثل الخير التى ألفها فى صباه ولكن هل تراه محقا ؟ !

أوليس

(١)

فى الاليـــاذة

أوليس أحـد أبطال هوميروس . رأيناه للمرة الأولى فى الالياذة على رأس جنـده الذين جمعهم من مملكتـه بجـزيرة كورفو ، التى لا تزال الأمواج تلطم صخـورها إلى اليوم ، وذلك لكى يساهم مع بلاد اليونان الأخرى فى حملتهـا الشهيرة على طروادة إحدى مدن آسـيا الصغرى .

وكلنـا لا ريب يذكر سبب تلك الحرب الضروس ، وأصـداؤها التى سجلها شـاعر اليونان العظيم لا تزال تتردد بجميع الآذان . ومن يستطيع أن ينسى هيلانة ، مضرب الأمثـال فى الجمـال ، وإن كانت السبب فى تلك المحنـة التى أثـارت الغرب ضـد الشرق عشر سنين متواليـات ؟ قالوا : إن باريس أحـد أمراء طروادة أتى يوما فى تجارة إلى شواطىء البليبونيزيا وإذا بهيلانة زوجة منيلاس ملك إحدى تلك الجهات تلهو على الشاطىء مع رفقـة لهـا ، فهـاله جمالهـا ، وكان الأمير مشرق الطلعـة ، فوقع هو أيضـا بقلبهـا ، وكان ما شاءت الأقـدار ، فتواعدا على الهرب سويا ونشرا القلاع ، إلى طروادة .

وعلم زوجهـا بالخبر ، فأضـرمته شـهامة الرجل ، ونفرت مدن اليونان كافـة إلى جوار الزوج الذى ثلم شرفه ، وتصدى لقيادتهم أجا ممنون أخو منيلاس ، وأعـدوا الحملة ، وأبحرت السفن وأرست حيث ضرب الجنـد حول طروادة الحصـار ، وكانت معارك تبيض لهولهـا الفواصى ، إذا صح أنهـا كانت كلهـا فى قسـوة ملاحم السنة العـاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنـا جزءا منها . وكم من أبطال تميزوا فى تلك الميـادين الساحقة ! أخيل أشجع من

ولدت الأمهات وأصلب الرجال عزما • وإياس ذو الحول والطول ، وهكتور أنبل أهل طروادة وأخلدهم ذكرا ، ثم أوليس •

وفى الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الخارقين ، ولكنه أعمق دلالة وأمس بالاغريقى العادى رحما من الجميع • او ليس أنموذج للشعب اليونانى ذاته بمنا فيه من قوة وضعف • هو صورة واقعية للأخلاق اليونانية وللملكات اليونانية وإلى هذا فطن الاغريق كافة ، فرأى كل منهم فيه نفسه أو جانبا منها بما تحفزه عنهم من الشجاعة وروح المغامرة وتفتح النفس للمعرفة ، والاقدام على المخاطرات مع القدرة على ملابسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة فى معالجة الناس والأشياء ، مما يدفعهم أحيانا إلى إسكات صوت الضمير والتعلق بالهدف دون نظر إلى الوسائل ومدى ما فيها من قسوة • وتلك كلها صفات سنراها عند أوليس فى تاريخه الطويل على تفاوت فى النسب ، وتطور فى الاتجاه وفقا لسير الزمن وتقدم الحضارة •

صادف أوليس إذن هوى الشعب اليونانى الذى اطمأن إليه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رمزه الحى ، وإذا به يتطور بتطوره ، فلم تكد عصور البطولة تنقضى ويأخذ الشعب بأسباب الحياة العملية ، وينصرف إلى السيطرة على المادة ، وارتياد بقاع الأرض ، وركوب متن المياه التماسا للعيش ووجاهة المال ، حتى رأينا بطلنا يحتل المكان الأول فى الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانية ، وما هى إلا قصص لمغامرات أوليس أو أوديسس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار • ونظر الشعب الاغريقى فرأى أنموذجه يسايره فى تطور خلقه واتجاهات نفسه فزاد به تعلقا ، حتى كان القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد ظهور أوليس إلى الوجود بخمسة قرون ، وإذا بسوفكليس المؤلف المسرحى الذائع الصيت يتخذ منه بطلا لروايته الخالدة « فيلوكوتيت » Philoctète وقد عمل الزمن فيه عمله

فأصبح الماكر الذى لا يتورع عن شيء فى سبيل الوصول إلى ما يريد . ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الاليـاذة إلى دهاء الأوديسيا ثم ينتهى بخبث « فيلوكتيت » وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة ، ففساد المدنية .

فلنتتبع إذن بطلنا نلتمس فيه صورة الشعب اليونانى بأكمله خلال مراحله التاريخية ، ولنبدأ حديثنا بأوليس الاليـاذة ، ففيه حقيقة نفسه فى ذلك الحين ، وأشباح ما سيصير إليه فيما بعد .

وكان يوما مشهودا يوم رأينا أوليس لأول مرة فلمسنا ما تحلى بـه من شجاعة وحزم ومعرفة بحقائق النفوس .

ذلك أن أخيل العاتى النفس — غضب من أجا ممنون رئيس الحملة ، إذ سلبه قسرا أسيرة جميلة كانت من أسلابه فتخلى عن القتال ، وكل من يذكر شجاعة أخيل التى لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الاغريق إذ فاك من أخطار ، وخصومهم رجال ذوو بأس . وهذا ما كان . فقد انهزم الاغريق وانسحبوا إلى الشاطىء يعدون سفنهم للاقلاع وكادوا يعودون أدراجهم خائبين ، لولا أن تداركت الأمر « بالاس » ربة الذكاء وحامية الاغريق .

« فانطلقت من أعلى الأولمب بأجنحة حثيثة إلى حيث ترسو السفن ، وهنالك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيوس ، وجدته جامدا فى مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه . إلى جانب البطل وقفت الالهة وخاطبته قائلة . يابن لا يرث ! أيها الالهى ! أى أوليس الحكيم ! أتنطوون بصدر وطنكم وتتركون لبريام وأهل طروادة ثمنا لنصرهم هيلانة

الاغريقيـة ؟ وبيـلاد الاغريق ولدت . ومن أجلهـــا هلك كل من استشهد من إغريق حـول طروادة بعيـدين عن وطنهم ؟ ! هيـا ! بلا مهـل ! إلى صفوف الجنـد ! بقولك المقنع أسكتهم عن الهرب ، لا تسمح لسفنهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فاذا بهـا بالاس التى تتجه إليـه بالحديث ، وهو الاغريقى الصميم الذى يعرف كيف يجل إلهـة الذكاء وبين أحضانها نمـا ، وبإشـعاع منهـا مت إلى المجـد بسبب . وهـاله الموقف وقـد هلعت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجـاة ، وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير العقول حرصا عليهـا . فكيف لـه أن يقف بمفرده أمام جيش بأكمـله وقـد ذهب الخـوف بلب الهـاربين ! وهبـه فعـل ، أو لا ترى أنه هالك لا محـالة ؟ ! قـد تستطيع شجاعة حمقـاء أن تجازف بحيـاة صاحبها فى يوم كهـذا دون أن تصل إلى شىء . وأما أوليس فقـد كان أحكم من الحمق ، وأشجع من الاحجـام ، كان ذا قلب يفكر . ولذا أقـدم فى حزم المستنير ، فألقى بمعطفه وأخـذ من أجا ممنون صولجان الملك ليكون له الحق فى مخاطبـة الجنـد ، ثم التأثير فيهم بمـا يحمل فى يـده من رمز الولاية . ولعـــله كان يدرك بفطرته السليمـة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيـه لحديثـه ، على نحـو ما كانت الألفـاظ تستطيعه بدون تلك العصا السحرية أو غيرها من المظـاهر التى تفعـل فى جمـاهير النـاس ، بل وخاصتهم فعلهـا العجيب . ثم سـار « وكلمـا لقى أحـد الملوك أو القـادة أوقفـــه بقوله المعسول : أيهـا البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفا ؟ ! أثبت وثبت جندك . وأما إذا لقى جنـديا مغمورا يحث رفاقه على الهرب ، فإنه يضربه بصولجانه ويعنفـه بأمر القول : أيهـا الشقى ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيهـا الجنـدى الخائر القوى ، المنحـل العزم . يا من لا اعتبـار له فى صفوف قتـال ولا مجلس مشورة ! » .

وهكذا تهيىء الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز . ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف ، وقد عرف كيف يمتلكها جميعا ، بتحريك معانى القوة والكبرياء فى القلوب التى تستشعرها ، والخوف والخضوع عند من ألفوهما . وهذه أدلة الذكاء الذى ينفذ إلى حقائق النفوس ويلابس الواقع ، وهو بعد ذكاء لا يعوق الاقدام بل ينير خطواته .

وانتهى به السير إلى موضع الجمعية التى انعقدت للتشاور فى الأمر ، وإذا بترسيت يخطب الجند ليحملهم بقوله الغادر الخداع على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم . وكان ترسيت هذا ثرثارا مسرفا ، خصب النفس فى الوقاحة والجرأة ومجابهة كل خزى ، كان يحذق تجريح الملوك يثير به ضحك الجماهير وسخريتها ، وهو أخس المحاربين . رجل أعشن أعرج ضيقت كتفاه المقوستان من صدره ، وعلى رأسه المدبب كانت تتأرجح بضع شعرات شتيتة . وفطن أوليس لساعته أنه لا بد له من تغيير الجو المسيطر لتهدأ النفوس من توترها ، وتعود عن الاتجاه الذى انصرفت إليه فأسرع إلى ترسيت وضربه بالصولجان ضربة تركت بظهره سنانا كسنام الثوق ، فخر باكيا معولا بعد أن كان يصول ويجول منذ هنيهة كأسد الغابة . وكان الجند يعرفون فيه الجبن والفهاهة ، فملت أصواتهم بالضحك . وهذا ما قصد إليه أوليس الذى كسب المعركة . إذ تبدل الجو وسكنت القلوب . وهنا علا المنصة وما زال بالمحاربين يقنعهم بضرورة البقاء ليستولوا على طروادة ، حتى استمعوا له وانقادوا إلى رأيه ، وذلك لأنه عرف كيف يخاطبهم ، وهم الرجال الفطريون الذين تحركهم الكبرياء ، كما يقودهم الجشع المادى والطمع فى الأسلاب ، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة ، وقد قضت تلك الإرادة أن يحاربوا وأن ينتصروا . فهيم التراجع ؟ ! والخطيب من التفاؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هتفت له مؤيدة متحمسة .

وكان هـذا من أجمـل ما نعرف فى حيـاة أوليس من مواقف ، وفيـه تجلت صفـاته النفسية : إقـدام فى حكمة ، وخبرة بدخائل النفوس ، وذكاء نافـذ ، وثقـة بالنفس .

وعاد الاغريق إلى أسوار طروادة يشـددون عليهـا الحصار ، وبرز لهم أبطال المدينـة يدفعونهم عنهـا . وأما الشيوخ فكنت تراهم يثرثرون بأعلى الأسيجة حيث أخذوا أماكنهم ليشهدوا القتال « كتـلك العصـافير التى ترقزق فرق الأغصان ، بينمـا الحصـاد يعملون مناجلهم فى حقول الغـلال » ، وتمر بهم هيلانة فيروقهم جمالهـا ، ويذكرون أن امرأة كهـذه تستحق أن يقتتل من أجلهـا الرجال . وثارت ببريام رغبـة الاستطلاع ، فأوقف الفتاة يسألها : « حـدثينى يا بنيتى عن هـذا البطـل ، هـذا الذى يقصر عن أجا ممنون بمدى رأسه ، وإن يكن صدره وكتفـاه أعرض منـه ، وسلاحه راقـد إلى الأرض الخصبة ! وأما هـو فيسير بين جنـده كما يسير الكبش غنى الجزة بين نعاجه البضة » . وأجابته هيلانة : « هـذا ابن لا يرث ، أوليس الحكيم . غـدته أرض إيثـاكا التى تمزقهـا الصخور الجدباء . بطل واسع الحيل ، حكيم المشورة » . هـذا هو الرجل : أبى كالكبش ، حكيم كريس .

وكم كانت فى الإليـاذة من بطولة . ومن العـدل أن نذكر سيره فى ظلام الليل مع ديوميـد ليتعرف على مواقع العـدو ، وما كانت لهما من مخاطرات جنونيـة . وفى اختيار ديوميد له أكبر دليـل على أنه كان معروفا بالشجاعة المتدفقـة إلى جانب الرأى . ولقـد جرح ديوميـد فى تلك الليـلة القاتمة وأحاط بـه العـدو ، ولكن أوليس لم يتركه وحيـدا بل ضمد جروحه وعاد به .

ولم تكن شـجاعة أوليس جسـارة قلب فحسب ، بل شـجاعة حقيقيـة ، فهو قوى الجسم قصير صلب متين . ألا ترى كيف أنه لم يخش إياس نفسـه ، بل نازله فى السباق ، وانتصر عليـه يوم أن أقام أخيل المسابقات الرياضية الرائعـة احتفالا بدفن صديقـه العزيز باتروكل ؟ !

ولكنهـا بعد شجاعة تتميز عمـا سواها ، فهو يخضع فى الأغلب وثباتها لحكمته ، وحكمته إحساس صادق بالمكن ، وقسط واعتدال ، ثم غريزة تدفعـه إلى المـاراة والدهاء . ولهـذا اختير على رأس وفـد ذهب إلى أخيل ليثنيـه عن عنـاده وهنالك وجه إلى البطل خطبـة تكاد تطير بأجنحة خفيفـة ، خطبـة مؤثرة نافـذة قوية ، ولكنـه أمام عنـاد أخيل لا يلح ، بل يتركه بابتسامة حزينـة .

ومن ثم نراه رغم شجاعتـه لا يحجـم عن الهـرب إذا قضت الضرورة . أو لم يرفض أن يعـود إلى القتال مـع أخيل بعد موت بتروكل ؟ « أخيل ! يا ابن الآلهـة ! إنى أعرف شـجاعتك ، ولكن الجنـد جياع ، فلا تترهم الآن إلى القتـال ليطاردوا العـدو إلى مدينتـه . مر الجنـد يتغـذون بالقمح ويطفئون ظمأهم بالنبيـذ فتتجـدد قواهم . وما يستطيع المقـاتل إذا حرم الطعام أن يصمد من الفجر إلى غروب الشمس ، فلا بـد — مهما كانت حرارة قلبه — أن ينقـل التعب قليـلا قليـلا جسمه المنهـك . يهاجمـه الجوع والعطش فتنقصف أرجله وسط القتـال » .

وأما أخيل فمـا يريد أن يستمع لقول ، وكيف يتحدث عن ولائم وراحة وقـد مات صديقه بتروكل وما يزال دمه يطلب الانتقـام ، وقـد جلل الأسى قلوب الرجال ولكن أوليس يرد عليـه فى شىء من التهكم بل المرارة : « يا ابن بيليـه ؟ أيهـا البطل الذى لا يقهر ! لست أشك أنك تفوقنى قوة إذا أخذت بسـلاحك ، ولكنى أعتقـد أننى أفوقك حكمـة ، فسنى فوق سنك . لقـد توفرت لى الأعوام فأخذت عنهـا خبرة تنير لى الطريق . لتـدع إذن مشورتى تطيعن من حـدة نفسك . لقـد مل الجنـد المذابح بعد أن غطت السيوف منبسط الريف بالقش وضعف المحصول ، وقـد مال زيس — فيصل الحـرب بالميزان وما بالجـوع يبجـل الجنـد موتاهم ، وفى كـل يوم تتساقط الأبطال وفيرة العـدد . فمتى نضع حـدا لآلامنـا ؟ ! لنؤد واجب التحيـة لموتانا ، ولنستجمع عزمنـا . لنسكب الدمع يوما على قبور من فقـدنا ، ولنشبع جوعنـا ، ولنرو عطشنا نحن

الذين أفلتنا من الموت ، حتى نستطيع إذا ارتدينا دروعنا الأبية أن نقاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أوليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالا للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدثه خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شدائد الحرب بوجوب التريث وتجديد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يدفع عنها تعالى أخيه نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يعترف للغير بفضله ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثبت فيها .

وثمة مواقف أخرى تدل على أنه وإن يكن مادى النزعة — إلا أنه قد عرف دائما كيف يضع صالح الوطن فوق نفعه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعد ورع تقى يخشى الآلهة ويحترمها ، ولكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « بالاس » آلهة الذكاء ، فهو يخضع لها خضوعا تاما ، وذكاؤها صاف وحكمتها عملية . يعتمد على الحظ ، ولكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يعد لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلا لصفات اليونان من أى بطل آخر من أبطال الالياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه المسرف الكبرياء ، المغشوم الشجاعة . ولكن الزمن سار سيرته ، فأخذت الحكمة تطغى شيئا فشيئا على نفس أوليس ، وتتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » .

(٢)

فى الأودســـا

يحتـــل أوليس فى الأودسا المكان الذى يحتله أخيل فى الالياذة ، فهى قصته ، وذلك لأن لفظة « أودسا » مشتقة من « أودسيوس » كنيـــة « أوليس » ، وأودسيوس باليونانيـــة هو « جواب الآفاق » الذى يقص هوميروس أنبـــاء عودته من آسيا الصغرى إلى وطنـــه إيتـــاكا بجزيرة كورفو ، الشهيرة حتى اليوم بروعة موقعهـــا على مقربة من شاطىء دلمـــاسيا المصيف الأوروبى الجميل .

والحق إن فى اختيـــار هوميروس لأوليس كبطل لملحمته الثانيـــة ما يدعو إلى التفكير ، وبخاصة إذا ذكرنا أنه قـــد كان هناك أبطال آخـــرون من بينهم من انتهى إلى مصير جـــدير بأن يوحى أجمـــل الشعر كإياس مثلا . إياس الذى جن إذ آثر اليـــونان أوليس دونه بأسلحة أخيل عنـــد موته ، مـــع أنه كان أعظم من أوليس إقـــداما وأشـــد بطشا . كان باعتراف الجميع « ســـياج اليونان » .

ولـــكن الواقع هو أن اليونانيين قـــد رأوا أوليس أنموذجا قوميا تتركز فيـــه صفاتهم ، وفى هـــذا ما يفسر اختيـــار هوميروس له دون كل الأبطال . لقـــد كان الشعب اليـــونانى حريصا على أن يستمع إلى مغامرات البحر ، وهو شعب قـــد بنى مجده على خوض عبـــاب اليم ، والتماس أسباب الحيـــاة فى الأراضى النائيـــة حيث الغنى الذى لم يتوفر لبلادهم الفقيرة . ثم إن الصفـــة التى غلبت على أوليس فى الاليـــاذة هى الشجاعة المستنيرة يوم دعا داعيها . ولكن الزمن قـــد سار سيرته ، وأصبح الرجـــل اليونانى يجنح إلى تقـــدير صفات نفسية أخرى لا تقل عن الشجاعة قيمة فى نظره ،

لأنها صفاته التي يصدر عنها فى كل أموره • ومن بينها الحنكة ، وحسن التقدير ، وفهم النفوس ، واللباقة فى معالجة المشاكل والتغلب على الصعوبات •

ولهذا عندما نمر من الاليـاذة إلى الأودسا نلمح فى شخصية أوليس تطورا لا ريب أنه قد ماشى تطور العقلية اليونانية كلها ، بحيث نجد فى تصوير هوميروس له حقيقة الروح الاغريقية •

والذى لا شك فيه أن الأدب وبخاصة أدب شاعر واقعى كهوميروس — أدل على عقلية الشعوب من أى تراث روحى آخر • فالفلاسفة كأفلاطون أو الرواقيين قد يحدثوننا عن المثل الأعلى فى الأخلاق ، فيراه أفلاطون فى أن نعيش وفقا لطبيعتنا البشرية ، فلا نقاوم غرائزنا ولا نحاول قتلها ، بل نتركها تنمو نموا طبيعيا حتى لا نفسد حياتنا بكبتها ، مكتفين بأن نتخذ العقل رقيبا يحد من إسرافها ويلائم بين تنافرها • ولقد يدعونا الرواقيون إلى ألا نتأثر بالأحداث ، فلا تتخلع قلوبنا للحزن ، ولا تخف أحلامنا للطرب • ولكن هذه كلها مثل عليا ، والمثل الأعلى موضع رغبة ، ونحن لا نرغب إلا فيما يعوزنا •

والأدب ليس كذلك ، ففيه نجد حقيقة العقلية اليونانية كما كانت • وعند هوميروس ما يعيننا على فهمها ، فمن بين أبطاله العنيف الانفعال القاسى القلب فى نبل وإباء كأخيل ، ومنهم الشجاع فى روية ، الداهية عن ذكاء نافذ كأوليس •

والذى لا ريب فيه أن أوليس لم يفقد شيئا من صفاته التى عرفناها عنه فى الاليـاذة ، ولكن الأمر أمر نسب وتطور • والذى يبدو لنا فى الأودسا هو أن زمن البطولة الأولى كان قد ولى ، وكأن اليونان قد أنكروا ما فى خلق أبطالهم من إسراف ، فأصبح البطل كأوليس أقرب إلى البشر منه إلى الآلهة ، أقرب إلى الحياة منه إلى المثل الأعلى •

لم يعد أوليس البطل المقـدام الذى يغامر فى حرب مثالية ينبغى منها أن يستنقذ هيلانة رمز الجمال الكامل ، بل ذلك الداهية الخصب الذكاء ، ذلك السائح الطلعة الذى يجوب آفاق البحر الأبيض ليرى بعينى رأسه ويعلم عن تجربة ، فلا يعود إلى وطنـه إلا وقـد ملأ ناظريه بجمال ما شاهد ، وأغنى ذاكرته بما سمع من قصص • وليس من شـك فى أن ألزم الصفات لرجل يسعى إلى ما كان يسعى إليـه أوليس هى القـدرة على التمييز عن فطنـه ومهارة ، حتى يستطيع أن يتدبر لكل حالة حلا موفقـا ولكل مأزق مخرجا يسيرا •

نعم إنه لا يزال يحتفظ فى الأودسا بصفـاته الطبيعيـة وأخصها الشـجاعة والصبر • فقواه الجسمية لا تزال سليمة وإرادته القوية ما برحت فى قبضة يده يتصرف فيهـا كيفما شاء ، ولكنـا نحس أن قواه قـد ازدادت خضوعا لحكمته ودهائه ، بل ومكره ، فهو لم يعد بطلا خارقا بل بشرا كسائر البشر •

أنظر إلى وصف لاوداموس Laodamos أحـد أشراف الفياسيين Phéaciens عندما ألقـاه البحر بينهم « أيها الأصدقاء دعونا نسأل هـذا الأجنبى عمـا خاض من تلك المعارك المجيـدة التى قوم فيها جسمه • وفى منظره ما ينبىء بقوة الأبطال • ما أقوى جوانحه ! وما أصلب أرجله ! وما أعرض صدره ! إن فى مناكبه صلابة ، وبأذرعه أعصاب تنبض • إن الشباب لم يفـارقه وإن كانت المحن قـد هدت من كيـانه » •

وما إن وطئت قدماه أرض إيتـاكا وطنـه حتى بدا له أن يتنكر فى ملابس شحاذ كى لا ينكشف أمره وهو لا يعـلم بعد إلام سـار ملكه ، أو انتهى الأمر بزوجتـه النبيـلة بنلوب وابنـه الشـجاع تليماك ، ومع ذلك فمن خلف الأسمال كانت عضلاته تطالع النـاظر • وهو يصف نفسه فيقول : « لقـد صرت إلى خريف الحيـاة ، ولكن أليس فى قوة القش ما ينبىء بنوع الحصاد » •

وفى حرص هوميروس على أن يحتفظ لهـذا الشيخ بقواه الجسمية

ومظاهرها التى يصف فى دقة ، ما يدل على اتجاه مطرد عند اليونان ، فهم شعب كان يرى دائما فى قوة الجسم تفوقا ، وذلك لا فى عصور بداوتهم الأولى فحسب ، بل فى كل مراحل تاريخهم ، وآية ذلك حرصهم المستمر على الرياضة البدنية . ألسنا نذكر أن أفلاطون نفسه قد حصر فيها هى والموسيقى والعلوم الرياضية مواد التربية بجمهوريته . والتربية عندهم لم تكن تحصيلا أو إعدادا لمهنة ، بل تكوينا للملكات جسمية كانت أو روحية . ثم هل أدل على فطنتهم لصحة الجسم وجماله وقوته من أن نرى سقراط نفسه ، سقراط الشيخ ، يحرص على أن يتعلم الرقص ليقلل من قبح جسمه المنبعج ويقوى من ضعفه ، فيقول لأصدقائه وتلاميذه وقد اجتمعوا يوما بمنزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أتضحكون منى لأنى أريد برياضة جسمى أن أتعهد صحتى ، فأتمتع بأكل هنىء ونوم سليم ؟ ! أتضحكون لأنكم تعتقدون أن شيخا مثلى لن يصاحب مدربا رياضيا إلى الخلاء فيبرى جسمه أمام الجماهير ، بل سيقنع بغرفة طعام كهذه التى يكتفى بها هذا الغلام ؟ ! أتضحكون لأنى سأتمرن فى الشتاء تحت السقف ، وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ، أم تضحكون لأننى رحت ببطن كبير إلى حد ما ، فأردت أن أرده إلى حجم معقول ؟ » وفى هذا يقول شاعرهم أنا كريون : « عندما يرقص الشيخ لا ترى فيه عجوزا غير شعره ، وأما روحه فلا تزال فتية » .

وفى كل هذا ما لا يدع مجالا للشك فى أن أوليس كما يصوره هوميروس يمثل بمتانة جسمه صفة كان اليونان يحرصون عليها كل الحرص . والكثير من شعوب أوروبا لا يزالون إلى اليوم يرون ما كان يراه اليونان ، من أن قوة الجسم فضيلة لا تقل أهمية عن الفضائل الروحية ، وإنه لمن الحمق أن نحتقرها أو نرى فيها أمرا ثانويا .

ومع ذلك فقوة جسم أوليس لم تعد شيئا إلى جوار قوة إرادته ونفاذ ذكائه .

ولكم من مرة أوشك الموت أن يتلقفه لولا تملكه لنفسه ، ونحن لا نعرف ملاحا سواه مر بمضيق مسينا وسمع من أعلى الصخور نداء السيرين Sirenes الساحرات الصوت ثم صمد لإغرائهن . قالوا إنه أمر رجاله فشدوا وثاقه إلى شراع السفينة على أن يزيدوه شدا كلما طلب إليهم أن يحلوه ، وما الوثاق إلا رمز لسيطرته على أهوائه . وهكذا مرت سفينته دون أن تتحطم بالصخور كما تحطمت من قبلها ومن بعدها سفن أخذ ربانها بعذوبة الصوت فدنوا ليلقوا حتفهم . وبفضل تلك السيطرة أيضا قاوم كالبسو Calibso الإلهية الجمال ، عندما أرادت أن تستبقيه فى كهفها بإحدى الجزر زوجا لها ، كما انتصر على سرسيه Circe وعلى السكلوب المخيف . ثم على بوزيدون نفسه إله البحر القاسى . أوليس أقوى من انصاف الآلهة بل ومن الآلهة ، لأنه قابض على زمام أمره ، وقد انعقد عزمه على أن يعود إلى مملكته حيث زوجته الوفية بنلوب Pénelope التى كانت تنتظره فى صبر منذ سنين ، والتى لم تكن تقل عنه دهاء ، وقد رأت خطابها الكثيرين وخشيت بأسهم فوعدتهم أن تختار لنفسها من بينهم زوجا بعد الفراغ من ثوب كانت تطرزه ، ولكنها أخذت تنقض بالليل ما تعمله فى النهار ، وبذلك لم تنته حتى عاد زوجها فأنقذها .

ثم أية مقدرة على كبت مشاعره وإخفاء ما يثور بنفسه من انفعال ! انظر إليه وقد عاد متنكرا إلى بيته وزوجته تجهل حقيقته ، فتتحدث عن أوليس الغائب أرق الحديث . « وعندما رأى بكاء زوجته المر استشعر بأعماق قلبه رحمة قوية ، ولكن عيناه لم تتحرك منهما حدقة بجفنيه الساكنين كأنهما من صخر أو حديد . ذلك لأنه يحذق فن التصنع إلى حد يستطيع معه أن يحبس دموعه » .

وما هى إلا لحظة حتى أوشك أن ينفجر من جديد إذ رأى نفسه بقصره شحاذا مزدرى يتلقى بقلب جريح من عشاق زوجته كل إهانة ، ويرى ما يلحقونه ببيته من أذى اهتز قلبه بين أضلعه ، وكما ترسل الكلبة الجارحة نباحها القوى وتتحرق للقتال إذا دنا غريب من أبنائها وهى تسير بينهم لحمايتهم ، كذلك زأر قلب البطل وقد أنهكه تحمل ما يرى من هوان . ولكنه لم يلبث أن ضرب على صدره ليلزم الصمت وثبات قلبه الفتى . « هدوءا أيها القلب ! لقد تحملت فوق ما ترى اليوم من محن . لقد رأيت بعينى رأسك ذلك السكلوب الذى لا يقهر يفترس رفاقك الشجعان فثبت حتى استطعت بحكمتك أن تنجو من مغارته حيث كان الهلاك محققا . هكذا زجر قلبه فسكن وكأنه قد أوثق فخمدت فيه كل نأمة » .

وتجلد بطلنا مشركا معه ابنه تليماك ، وقد عاد من رحلة قام بها بحثا عن أبيه ، وأخذ يعد لهؤلاء العشاق الوقحين وسائل الهلاك فى دهاء محكم ، قال لولده : « إننى أرى كل شىء وما يفلت منى شىء » . وتلك هى رؤية الممكن ، وحدوده لا يعدوها عند وضع الخطط . وما إن علم بوفرة أعدائه حتى لزم التنكر . وهو فى ذلك مثل الكثير من قادة اليونان وكلنيا يذكر بلا ريب فيليب المقدونى الذى عرف كيف يكسو الأسد جلد الثعلب .

ولكن دهاء أوليس لم يصبح بعد خسة ، ومصدره فهم لنفوس البشر واستغلال لشهواتهم ، ولئن نصب شراكا فهو لم ينصبها إلا للحمقى . ومن الواضح أن هذا الدهاء هو الصفة التى تعلقت الأودسا بإظهارها . وفى أحد مواضعها تخبرنا هيلانة أصل البلاء إنه قد بلغ بأوليس الدهاء أن دخل طروادة متنكرا فى ثياب شحاذ (شنشنة قديمة ! !) فرأى كل شىء قبل أن يفطن إليه أحد ، ثم قتل نفرا من رؤساء المدينة وولى » . ونحن نعلم من مصدر آخر أن سقوط طروادة كان بحيلة من حيله ، إذ أمر بصنع حصان كبير من الخشب كمن ببطنه هو ونفر من الجند ، ثم تظاهر اليونان

بالانسحاب مخلفين الحصان وراءهم ، فأتى أهل طروادة أنه غنيمة باردة ، ولما كانت أسوار المدينة وأبوابها لا تسمح بدخوله فقد هدموا جانبا منها وأدخلوه . وما إن أحس أوليس وأصحابه أنهم قد صاروا فى قلب المدينة حتى وثبوا من الحصان وقتلوا الحراس ، وكر اليونان ، فاقتحموا على العدو مأواه ، وبذا سقطت طروادة ، وأصبح « حصانها » مضرب الأمثال للخديعة .

وهذا الدهاء هو نفسه الذى مكن لأوليس من رقاب الخطاب ، فإنه لم يزل يعد العدة ويستوثق من الوسائل ، حتى تهيأت له كل ملابسات النجاح ، فأغلق باب القصر وفتك بأعدائه أشد فتك . وما إن تم له النصر حتى ظهرت قسوته كما عهدناها فى الإلياذة . وأوضح ما نلمح من تلك القسوة هو شنقه للقوادات بسقف منزله ، فبذلك منظر شابت لهوله النواصى . قالوا كنت تراهن يومئذ وقد « علقن كالعصافير تهز أرجلها برهة ثم تفارق الحياة » .

ولكننا رغم هذه القسوة ورغم ذلك الدهاء المأكر لا نستطيع أن نرى فى أوليس خلقا ذميما ، فقسوته لها ما يبررها ، ودهاؤه لم يستخدمه إلا فى الحرب أو دفاعا عن شرفه ، وردا لحمق البشر وأذاهم . بل نحن لا نستطيع إلا أن نعجب لرقته فى حديث له بإحدى الجزر التى مر بها حيث لقى نوزيكا Nausica بنت الملك ، وكانت فتاة جميلة وديعة ، فعرف كيف يلاطفها ويحييها ويلين لها القول على نحو أشبه بأخلاق الفروسية التى عرفناها فى القرون الوسطى منها بأخلاق البداوة الإغريقية التى كانت سائدة فى ذلك الحين .

ثم إنه كان يحب وطنه ، وهذا خلق بلا ريب بالغ النبل ، استمع إليه يتحدث وقد سئل عن ذلك الوطن : « بلدى إيتاكا الشهيرة التى تنظر إليها الشمس وقت الغروب ، فيها ترف الأوراق الكثيفة على سطح النويت Neiret عند الظهيرة وأما الفجر

فينثر حولها عددا وفيرا من الجزر الخصبة ، دوليكيم Dulicheum وساميه Same وزاكانت Zacintate الخضراء • بلدى تقع على مقربة من ارض اليونان ، جزيرة تقطعها الصخور ولكنها منبت فتية بواسل • لا ! ليس فى الأرض مكان أحب إلى قلبى منها • عبثا حاولت كالبسو أن تستبقينى بكهفها لتخصنى بشرف الزواج بها • عبثا حاولت سرسيه العالمة بكل ما يعرف السحر من حيل أن تعرض على العرض نفسه فتحتفظ بى موثقا بحبائل الزواج • لقد تبددت جهودهن هباء ، فعجزن عن إمالة قلبى ، وذلك لأن أرض الوطن وما تقل من أهل وهبونا الحياة ، واتصلت قلوبنا بقاوبهم ، قد أوحت إلى بحب رقيق لا يستطيع كل ما فى الأرض من مجد وخيرات أن يصرفنى عنه » •

ونحن نعلم أنه لم يكد يطأ أرض الوطن حتى قبل ترابه ورفع بصره إلى ربات اليم شاكرا أن قدنه إليه •

ذلك هو أوليس الأودسا : بقية من صحة الجسم وشجاعة القلب ، ثم عقل كبير ودهاء خصب ، قسوة حيث تغتفر القسوة ، ولين ورقة قلب حيث تهتز النفس ويثور الفؤاد • ولكنه بلا ريب لم يعد أوليس الإليـاذة ، وأكبر دليل على ذلك أن نراه يوما يستمع إلى شاعر متجول بإحدى الجزر فينصت • وإذا بالشاعر يتغنى بضرب طروادة فيغطى بطلنا المغرار رأسه ويأخذ فى البكاء • ونحن على ثقة من أنه لو رآه زملاؤه أبطال الإليـاذة فى ذلك اليوم لأنكروه •

لا • إن أوليس لم يعد من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفكير يتغلب فى نفسه على خشونة البداوة • أخذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه • أخذ يتحضر • وهذا أمر لا عيب فيه • ولكن طريق الحضارة طريق زلق سوف نراه فى الحديث الآتى ينتهى برجالنا كما انتهى بالشعب اليونانى كله إلى بوادر انحلال خلقى ستكون إحدى

مظاهره ذلك الخبث القبيح الذى يصدر عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctéte مسرحية سوفكليس الروائى العظيم .

(٣)

فى فيلوكتت

تركنا أوليس وقد أصبح فى الأوديسا أقدر على الدهاء ممنا عهدناه من قبل . وها نحن نلقاه اليوم فى فيلوكتت Philôctéte مسرحية سوفوكليس الشاعر العظيم ، فإذا بنا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وإذا بنا فى أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتعدد السوفسطائيون فأخذت بوادر الانحلال تدب فى الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها فى تاريخ كل الشعوب ، فالتفكير ملكة خبيثة كثيرا ما تنتهى بالإنسان إلى تبرير كل الوسائل ، والتماس كافة السبل لما نسعى إليه من أهداف ، يسكت صوت الضمير ، وتختفى من النفس معانى النبل التى تتوافر عادة فى البداوة .

وهذا ما كان من أمر أوليس رمز الشعب اليونانى كله ، فهو لم يعد الداهية الشجاع ، بل الخبيث الجبان الذى لا يتورع عن شىء ، ولا يقيم لمبادىء الخلق أى وزن . ولا أدل على ذلك من أن ننظر فى موقفه من فيلوكتت أحد أبطال تساليا الخالدى الذكر . « فيلوكتت » بطل أبى النفس بعيد الهمة . لاقاه يوما هرقل فاتخذ منه رفيقا ، صاحبه فى كثير من أعمال بطولته التى خلدت ذكره ، إلى أن حم القضاء فمات هرقل برداء مسموم أعطته إياه زوجته « ديجانير » خطأ ، فى قصة مؤثرة . ولما كان هرقل يحب « فيلوكتت » ، فقد أعطاه عند احتضاره قوسه الشهيرة وأسهمه النافذة ، وأوصاه أن يقوم بنفسه على إحراق جثته كما جرت عادة القدماء .

وعندما هم اليونان بالانتقام « لمينيلاس » ، ونادوا بإعداد السفن والرجال للابحار إلى آسيا الصغرى ، لم يتخلف فيلوكتت ،

بل قدم ست سفن كبيرة زودها بالجند ، وأبحر هو على رأسهم ، ولكن محن الأيام شاءت إلا أن تلدغه حية بإحدى الجزر التى رسوا بها أثناء رحلتهم الطويلة . لدغته فى رجله ، فنغر الجرح واشتدت رائحته الكريهة فتشاور الرؤساء فى أمره . ومن عجب أن نرى « أوليس » يدعوهم إلى تركه بجزيرة « لمنوس » تخلصا منه إذ لم يعد صالحا لشئ . وفى هذا ما يحزن . فقد سبق أن رأينا أوليس نفسه فى الإلياذة يحرص على ألا يتخلى عن زميله « ديوميد » عندما جرح فى العزوة التى اشتركا فيها . وقد أحاط بهما العدو والليل حالك الظلام . وهوميروس يحدثنا أنه قد أظهر عندئذ نبلا وشجاعة لا حد لجمالها ، إذ ضمد جراح رفيقه وعاد به سالما . ولكن الزمن كما قلنا لم يعد زمن البطولة الكريمة ، بل النفع المباشر الذى يستطيع كل فرد أن يجنيه من زميله .

ترك اليونان إذن « فيلوكتت » نزولا على إرادة أوليس الذى تولى بنفسه تنفيذ الجريمة ووصلت الحملة إلى طروادة ، وكان ما كان من حصار المدينة عشر سنوات دون التمكن من أخذها ، حتى مل الجند وطلبوا إلى رؤسائهم أن يستشيروا عرافا لعله يدلهم على سر أو بنبئهم بوسيلة . وقال العراف : « إن طروادة لن تسقط إلا على يد من يمتلك قوس هرقل وأسهمه » فسقط فى يد الجميع وحارت الألباب ، إذ من يستطيع أن يعود إلى جزيرة لمنوس بعد عشر سنين ليطلب إلى فيلوكتت أن يعطيهم أسلحته أو أن يخف إلى نجدتهم ؟

* * *

وساءت الأمور ، فأخيل نفسه قد قتل ، وأعجب ما فى الأمر أن تكون وفاته بسهم « باريس » حلس النساء فيصيب كعبه ، ويتساءل الناس جميعا : كيف يموت بطل — لم تر الأرض مثله — بإصابة فى كعبه ، ويستنكرون ميتة كهذه . ولكنهم

يقتنعون بإرادة القضاء ، إذ يبحثون فيعلمون أن أخيل كان منيع الجسم كله ، وأنه لم يكن فيه موضع ضعف غير كعبه ، وذلك لأن « زيس » كان قد أوصى « تيتيس » ربة البحار وأم البطل ، أن تغمس ولدها عند ميلاده فى الماء عدة مرات حتى يبتل جسمه فيصبح فى مناعة تامة . ولكن الأم المسكينة نسيت أن تبلل الكعب أيضا ، إذ كنت يدها تغطيه وهى تنكس ولدها فى البحر . وفى الحق إنها إرادة الآلهة ، فالخلود لم يكتب لأحد . وإلى اليوم لا يزال « كعب أخيل » مضرب الأمثال لموضع الضعف فى كل رجل مهما كانت قوته ومهما علا مجده .

مات إذن أخيل ، ولكنه خلف ولدا لا يقل عن أبيه شجاعة . خلف « نيوبتولم » Neobtoléme أى « القائد الحديث » ، وقد رزقه من إحدى أميرات جزيرة سركوس Syrcos ، حيث قادته إرادة الآلهة قبل نشوب الحرب . وكان أوليس يعلم بوجود هذا الشبل ويؤمن بأنه سيكون خير عوض عن أبيه . وينظر فرأى أنه لن يستطيع أحد أن يقترب من فيلوكتت الثائر المتألم الحامى الحفيظة غير هذا الطفل المقدام ، الساذج الشجاعة . فاقترح أن يسير هو إليه فى جزيرة سركوس ، وأن يخبره بنبأ وفاة أبيه ثم يطلب إليه أن يصاحبه إلى جزيرة « لمنوس » . حيث فيلوكتت الذى لم يكن بد من إحضاره لكى تتحقق نبوءة العراف .

وصل أوليس إلى سركوس ، وهناك وجد نيوبتولم ، فأخذ يصطنع كل الحيل ليقنعه بما يريد . من ذلك أنه أعطاه أسلحة أخيل أبيه . ونحن نذكر أن اليونان كانوا قد آثروا أوليس — لدهائه — بتلك الأسلحة دون « أياس » الذى جن لهذه الإهانة وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، مما زاد فى مصاعب الجيش اليونانى وقد أخذ يفقد خيرة أبطاله الواحد بعد الآخر ، فهون ذلك على أوليس كل تضحية فى سبيل النصر ، بله النجاة .

ومن حيله الأخرى لإغراء نيوبتولم أن حرك فيه كبرياء الطفل ، ولوح له برايات المجد . قال : « إن طروادة ستسقط على يديك إذا استطعت أن تحضر فيلوكتت ومعه أسلحة هرقل التى ورثها عند موت ذلك البطل الشهير ، فيلوكتت الذى قضت إرادة الآلهة أن يكون موت باريس قاتل أبيك على يديه ، وهو الذى سيساعدك على دخول طروادة » .

ولم يزل أوليس بنيوبتولم حتى أقنعه بالسير معه إلى لمنوس . وهنا تبدأ مسرحية سوفوكليس ، فقد وصل هذا الداهية الخبيث إلى الجزيرة ومعه طفلنا الشهم ، وجاء دور العمل ، فرأينا اوليس الماكر الجبان يظل فى الخلف ليدفع نيوبتولم إلى المخاطرة ، وهو يعلم أن فيلوكتت رجل أنزلت به الخيانة اشد المحن ، فعرفت نفسه المرارة ، وقد قضى بتلك الجزيرة — التى يابى الشاعر إلا أن يجعل منها أرضا جدباء موحشة — عشر سنين ودهريات مجده الذى ضاع ، ووطنه الذى حرم منه تلح على قلبه فيثور ويتحرق للانتقام ، ثم إنه يملك قوسا وأسلحة لا تزال حتى اليوم خالدة الشهرة . والذى لا شك فيه أنه كان يحقد على كل اليونان ، وينتظر يوما يستطيع فيه أن يسيل دماءهم جزاء وفاقا لغدرهم به . ومع ذلك فلننظر بأى خبث يدفع أوليس طفلنا إلى الهلاك .

« يجب أن تخلب لب فيلوكتت بقول خادع . عندما يسألك من أنت ومن أين أتيت ، قل له إنك ابن أخيل . وهذا حق لا موارية فيه ! تظاهر أنك عائد إلى وطنك بعد أن تركت أسطول اليونان موضع بغضك العميق ! أنت الذى استدرجوك بأوضع التوسلات عند ما لم يكن فهم غنى عنك لأخذ طروادة ثم لم يروك أهلا لأن ترث أسلحة أخيل فأعطوها لأوليس مع أنك أحق بها من كل إنسان ! وهنا تستطيع أن تشبعنى سباباً . وأنت إذ تفعل ذلك لن تسىء إلى فى شىء ، فى حين أنك لو اتخذت سبيلا آخر لسببت لليونان كافة أقسى المحن . ثم إنك

لن تستطيع هدم سياج طروادة مالم تستول على ما يملك هذا الرجل من قوس واسهم .

« ولو أننى ذهبت بنفسى لحديثه لما كان فى ذلك شىء من الاطمئنان أو ضمان السلامة ، بينما تستطيع أنت ذلك دون أية مجازفة . ولو انه أحس بوجودى وقوسه بيده لضعت ولضعت معى كرفيق سفرى . يجب عليك أن تحتال لسرقة سلاحه » .

ويطرق « نيو بتولم » ، ويحس أوليس بما ثار فى نفسه ، فيبادره بقوله المعسول الذى ينفث السم : « لست أجهل يا ولدى أن طبعك لا يسمح لك بأن تفوه بكلمات خادعة ، أو أن تأتى بأعمال ملتوية ، ومع ذلك ما أحلى أن نفوز بالنصر ! الجرأة إذن الجرأة ! حتى نفوز بما نبغى . وبعد ذلك لدينا متسع لنكون أمناء صادقين . عليك الآن أن تضحى بصدقك وأمانتك مدى جزء صغير من يومنا هذا . وبعد ذلك لك أن تكون أبد السنين أشرف الرجال » .

وهذا موضع الانحلال . داء عضال كم نجر فى عظام الإنسانية منذ أقدم العصور ، إلى أن جاء ميكافلى ، المفكر الإيطالى المعروف ، فأقامه مذهبا معبرا عنه فى كتابه « الأمير » بجملته المسفة : « الغاية تبرر الوسائل » . وتلك نغمات لم نسمعها من أوليس الإلياذة ، بل ولا من اوليس الأودسا . ولكنها بوادر الفساد التى أخذت تنتشر فى القرن الخامس عندما ظهرت الفلسفة وامتدت بسفسطتها إلى الأخلاق التقليدية ، تلقى الشك فى قيمتها ، وتلتمس للخروج عليها تأويل باطلة .

ورفض نيوبتلم عرض أوليس . رفضه لأنه ابن أخيل . ولقد كان أبوه يفضل الموت على أن يفكر فى شىء ويفعل غيره . نيوبتلم شاب كريم الطبع نبيل الخلق ، فكيف يستطيع أن يكذب ويغدر وينافق فى جبن ؟ ! وهل هناك غاية مهما جلت أو نبلت تستطيع أن تبرر العيوب الخلقية ؟ ومع ذلك لا ييأس أو ليس من إغرائه :

« وأنا أيضا — يا ابن البطل المغوار عندما كنت شابا كنت أطول

ذراعا من لسان • وأما اليوم وقد حنكتنى التجارب فقد أصبحت أعتقد أن الأحياء يسيطر عليهم اللسان أكثر مما يسيطر الذراع » •

وهذه سفسطة جورجياس (١) بعينها • ويصبح نيوبتولم مغضبا من دعوة أوليس له إلى الكذب • ولكن هذا الأخير يجيبه فى برودة : « إنه ليس فى الكذب عار ما دام فيه منجاة لنا ، بل ما دام فيه نفع لنا » •

ولا غرابة فى ذلك ، فأوليس لم يعد يدعو « بالاس » الإلهة النبيلة عند ما يحزبه أمر ، بل هرميس إله التجار واللصوص والمنفعة • لقد تنكر أوليس لآلهته القدماء ومعه الشعب اليونانى كله ، وهو طبعا يرفض ما يصفه به أعداؤه من انحطاط ، ويحاول أن يرفع كذبه إلى مستوى الفلسفة فيجعل منه مذهبا نظريا • ألم يقل عندما سمع شباب فيلوكتت له : « باستطاعتى أن أرد عليه ردا طويلا • ولكن الوقت لا يسمح لى بذلك اليوم • وأما الآن فليس لدى إلا شىء واحد أجيب به ، وهو : إننى كما يقتضى كل ظرف • فحيث تطلب الاستقامة والعدل لا ترى أعدل منى ولا أقوم ، ومع ذلك فقد أملت على طبيعتى شهوة الطموح إلى النصر دائما » • وهنا يلحق سوفوكليس بالمؤرخ توسيديد عندما يصف لنا أخلاق اليونان إبان الحرب البليبونيزية •

ولقد كان الأمر يهون لو أن الفساد لم ينته بأن يمتد إلى نيوبتولم نفسه ، فأوليس لم يزل به يغريه بالمجد والنصر حتى سخره لما أراد • وذوو النظر يجمعون على أن الصفة التى وقعت فى نفس الطفل عند تملق أوليس له لم تكن الصفة التقليدية : « أيها الشاب الجميل الخير » بل : « أيها الشاب الحكيم الخير » •

---

(١) كبير السفسطائيين •

وفى استبدال أوليس للفظة « الجميل » بلفظة « الحكيم » ما يلخص تطور الروح اليونانية كلها . فهم لم يعودوا يقدرون جمال الجسم وقوته وشجاعته تقديرهم للذكاء والدهاء والمكر التى أصبحوا يسمونها حكمة .

وهكذا نرى نيوبتولم يسير إلى فيلوكتت ويخدعه بالكذب فيدعى أنه سيعود إلى سيركوس وأنه لا يعرف محدثه ، ولا سبب محنته ، كما يتظاهر بأنه هو الآخر فريسة لظلم اليونان ، وهو يسرف فى ذم أوليس وغيره من الأبطال ويتهمهم بالسرقة والخيانة : سرقة أسلحة أبيه — مع أن أوليس كان قد أعادها إليه — ثم خيانة بعضهم بعضا . وهكذا نرى ابن اخيل نفسه يقلب الحقائق ، ولكنه أحد إغريقى القرن الخامس ، ولكن أستاذه أوليس .

وانتهى به الأمر إلى أخذ الأسلحة من فيلوكتت ، وقاد الرجل المسكين إلى الشاطىء ليبحروا جميعا . وهنا عاودت نيوبتولم بقية من نبل طبعه الأصيل ، فاعترف بالحقيقة ظانا أن فيلوكتت سيعفو عما كان . ولكن فيلوكتت كان على الخلق القديم ، كان لا يزال صلب العناد قوى النفس ، وكأنى به يستشعر الخزى كلما ذكر تلك اللحظة المشئومة التى فتح فيها عينيه وهو ملقى على الشاطىء ، فرأى السفن تختفى فى الأفق بعد أن خلفته منبوذا لجراحه الدامية . نعم لقد مضى على ذلك سنوات ولكن الألم لم يبرح ، والجرح لم يلتئم . فأى غرابة فى أن يثور عندما يخبره نيوبتولم بهذه الخيانة الجديدة ! أى غرابة فى أن يصيح طالبا أسلحته ليقضى على نفسه ويقطع أوصاله غيظا ، إذ عاد فوقع فريسة هينة للغدر والاحتيال ، وقد أصبح لا يريد شفاء ولا مجدا ، بل يرى المجد والشفاء فى أن ينتقم لنفسه ، وأن يرى هلاك اليونان بعد عجزهم عن الاستيلاء على طروادة التى أفنت أبطالهم وأرتهم من المحن ألوانا عشر سنوات .

وحار أوليس ونيوبتولم فى الأمر ، وقد نفذت منهما الحيل ، ولم يبق إلا أن يطلبا عون الآلهة • وهذا ما كان ، فقد ترفق زيس فارسل شبح هرقل إلى فيلوكتت ، يطلب ، إليه أن يسير إلى طروادة حيث يجد الشفاء ويصيب المجد بقتل باريس قاتل أخيل أكبر أبطال اليونان ، ثم بالمساهمة فى أخذ طروادة • وأطاع فيلوكتت وقد هدأت نفسه ، فودع لمنوس مقر محنته ، كما ودع البحر الصاخب من حوله أجمل الوداع ، ووصل إلى طروادة حيث تحققت نبوءات الصراف وإرادة الآلهة • وبعد أن تم له ما أصاب من مجد عاد إلى وطنه فى رحلة لم تستغرق غير سنة واحدة • وأما أوليس فقد ظل يتخبط بالبحار عشر سنوات كما رأينا فى الأودسا • عاد فيلوكتت إلى وطنه قبل أوليس بتسع سنوات ، ولعل فى ذلك بعض العوض عما أنزلت به الأقدار من محن •

أوليس لم يعد إذن كما عهدناه ، ومع ذلك فنحن لا نزال فى عصر سوفوكليس ، فما بالكم عندما يتراخى الزمن قليلا إلى عصر أوربيدس الذى يخيل إلينا أن بينه وبين سوفوكليس قرونا • ولكن الزمن لا يقاس بالسنين بل بما فيه من أحداث • ولقد كانت الحياة الفكرية فى ذلك الحين مستمرة التقدم • ويتقدمها أخذت الأخلاق تنحل ، حتى رأينا رجلا كالسياد الزعيم الشهير لا يتحرج أن ينضم إلى الأعداء ضد وطنه مرة ومرة ، ما دام يرى فى ذلك تحقيقا لمطامعه المسرفة •

أوليس سوفكليس يمثل مرحلة فى تاريخ اليونان • وهو مهما كانت عيوبه لم يصل بعد إلى ما نراه فى تاريخهم المتأخر عندما ينتهى بهم الأمر إلى السقوط فى يد المقدونيين ثم الرومان ومن تبعهم ، إذ ظلوا مستبعدين ولم يستطيعوا استرداد استقلالهم إلا أخيرا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر •

(٤)

فى الآداب الحديثة

لم يمت أوليس بموت الشعب اليونانى وسقوطه فى قبضة الاستعمار قرونا طويلة • فأوليس كما قلنا من خلق العبقرية ، وهذه لا سلطان للبشر عليها بل ولا للزمن ، فقد عادت الانسانية أيام البعث العلمى تنقب عن ذلك التراث الجليل الذى لم يكن من الممكن أن تطمس الأيام معالمه إلى غير رجعة •

عادت الانسانية إلى تراث اليونان تعاود فيه البصر التماسا لوحى جديد ، وكان أوليس ممن استوقف النـاظرين ، وذلك لما اجتمعت إليه من صفات وتركزت فيه من رموز • فهو لم يكن أنموذج الشعب الإغريقى فى مراحله التاريخية المختلفة فحسب ، بل أنموذجا بشريا فيه الكثير من نواحينا الإنسانية التى نمتلكها أو نود أن نمتلكها : فيه الحنين إلى الوطن واللهفة إلى العودة إليه مهما كان فى ذلك من مخاطرات ، فيه روح المغامرة التى تدفعنا إلى الضرب فى الأرض والبحار لنفيد تجارب ونثرى بما نشاهد من صور ، فيه حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة التى لا تعدل بالفهم شيئا ولا يردها عن ذلك شىء • فيه كل هذا وفوق هذا من المعانى التى ما زلنا نحرص عليها أو نقف دونها •

أوليس شخصية غنية • نظر فيها كل شاعر وكاتب فوجد ما يريد • فدانتى يأبى إلا أن يحدثنا عما صار إليه بطلنا من مصير وهو ينبئنا أنه قد لقيه فى « الجحيم » وتسقط حديثه فإذا به يقول : « عند ما غادرت سيرسيه التى احتفظت بى مختبئا أكثر من عام لم تستطع صورة ولدى العزيز ولا برى بوالدى الشيخ بل ولا الحب الذى كان مصدر سعادة لبنلوب • لم يستطع شىء من كل هذا أن يهزم فى نفسى اللهفة إلى معرفة العالم •

لقد رأيت كل الشواطىء ، حتى إسبانيا ومراكش وجزيرة سردينيا وغيرها من الجزر التى يبللها البحر • لقد كنت أنا ورفاقى شيوخا مثقلين عند ما وصلنا إلى ذلك المضيق الضيق الذى وضع هرقل عنده الحدود لينذر الرجال أن لا يعدوه • وكنت قد خلفت أشبيلية عن يمينى وكانت سيتا قد خلفتنى عن اليسار ، عندئذ قلت : أيها الاخوان الذين وصلوا المغرب خلال آلاف المخاطر ! اتبعوا الشمس ولا تحجموا عن النفاذ ، بما بقى لكم من حواس — إلى ذلك العالم الذى لا يسكنه أحد والذى تولى الشمس عنا لتضيئه ، أذكروا من أنتم ، إذكروا أنكم لم تولدوا لتعيشوا كالدواب بل لتبحثوا عن الفضيلة والمعرفة • بهذه الأقوال الموجزة أثرت رفاقى ليستمروا فى طريقهم حتى لقد وجدت بعد ذلك مشقة فى أن أثنيهم • أدرنا مؤخر السفينة نحو الشرق واتخذنا من المجاذيف أجنحة نطير بها فى جنون متجهين باستمرار نحو اليسار ، وصلنا إلى حيث أصبحت أرى فى الليل نجوم القطب الآخر كلها • وأما قطبنا فكان من الهبوط بحيث لا يرتفع فوق أمواج البحر • وأشبل القمر قبسته خمس مرات وأطفأه خمس مرات منذ دخلنا إلى جوف البحر وإذا بجبل يظهر معتما لبعدنا عنه ، وإن لاح لى أعلى من كل ما رأيت من جبال ، ففرحنا ، ولكن فرحنا لم يلبث أن انقلب دموعا ، إذ أنتنا « دوامة » من الأرض الجديدة صدمت مقدم السفينة ودارت بها مع الموج ثلاث دورات وفى الرابعة رفعت مؤخرها إلى أعلا وغرست مقدمها إلى أن ابتلعنا البحر » •

هذا هو المصير الذى تصوره دانتى لأوليس ، ودانتى من رجال البعث الذين لم يكونوا يعدلون بالمعرفة شيئا • قلا غرابة إذن فى أن نراه ينتهى بأوليس إلى هذا الموت المجيد ، وقد هفت نفسه إلى استطلاع ما خلف مغرب الشمس من عوالم ، وعجزت كل روابطه بذويه عن أن تثنيه عن السير للبحث عن تلك المعرفة •

وأما الشاعر الفرنسى الرقيق دى بللى Du Bellay كبار شعراء فرنسا فى القرن السادس عشر فلم ير فى أوليس إلا رمزا لمن يسعده الحظ فيقوم برحلة جميلة يفيد منها تجارب وحكمة ثم يعود إلى أهله فرحا راضيا • أوليس عنده حنين إلى الوطن ، ولقد كان شاعرنا ملحقا بالسلك السياسى بروما ، وهو من مقاطعة « أنجو » الجميلة بفرنسا ، ولهذه المقاطعة شهرة واسعة لا نعرف لها سببا خاصا اللهم إلا أن تكون أشعار دى بللى هى التى خلقت حولها ذلك الجو الشاعرى الجميل • قال الشاعر وقد برحت به الغربة :

« سعيد من يقوم برحلة جميلة كأوليس ، أو كذلك الذى استولى على الجزة الذهبية (يقصد جازون) • ثم يعود ليعيش بين أهله بقية حياته وقد امتلأ خبرة وحكمة •

« وا أسفاه ! متى سأعود إلى رؤية مدفأة قريتنا الصغيرة ترسل دخانها • فى أى فصل سأعود إلى رؤية حديقة منزلنا المسكين الذى يعدل عندى مقاطعة بأكملها بل أكثر من ذلك •

المأوى الذى بناه أجدادى أحلى عندى من قصور الرومان الجسورة الجبناء • اردواز سقوفها المرهف أحلى من الرخام الصلب •

« لوارنا » — نهر الغال — أحلى من « التيبر » اللاتينى •

« الليريه » الصغير أجمل من جبل « البلقان » وعذوبة « ألجو » أرق من هواء البحر » •

وفى انجلترا فى القرن التاسع عشر مثل أوليس عند الشاعر الذائع الصيت الفريد تنيسون روح المغامرة وراء البحار • وتلك صفة يشارك فيها الإنجليز الشعب اليونانى القديم • بأى نغمات يتحدث عن هذا البطل الذى لم يعد يطيق البقاء قابعا بمقر داره وقد ملها بعد العودة إليها •

قال الشاعر فى قصيدته الرائعة « أوليس » :

« فيم البقاء بتلك الديار الهامدة بين عارى الصخور إلى جوار زوج عجوز ، ملك عاطل يقيم عدلا موتورا بين قوم جفاة لا هم لهم إلا حيازة المال وملء البطون والغط فى النوم ، إنى غريب عنهم ولا بد لى من الرحيل .

« لكم أمعنت فى المسرات وأمعنت فى الأحزان ، أنفرد بها حينا وأشرك من أحببت حينا وقد استوى فى ذلك أرض ويم ، ما أرسيت إلى شاطىء أو ثرت زبدا تعطى به عرائس اليم الباكية ظلمة البحار .

لقد أصبحت اسما يذكر ، وجبت الآفاق بقلب نهم ، فرأيت الكثير وفهمت الكثير ، مدنا آهلة وعادات وأجواء ومجالس وحكومات ، رأيت نفسى وفهمت نفسى غير متخلفة وقد انعقد لها احترام الجميع .

لكم جرعت من نشوة المعارك الى جوار أندادى بسهول طروادة ، حيث تقصف الرياح وتتردد الأصداء ، وقد خلفت بعضا من نفسى بكل ما لقيت ، لكنها الحياة : قباب ممتدة نلمح خلالها بقاعا فسيحة لم نجبها ، وآفاقها أبدا مترامية كلما حاولنا منها دنوا . ما أقبح أن نقف ، ما أقبح أن ننتهى والسيف يصدئه الغمد ويجلوه الطعن ، وما الحياة بأنفاس نرددها . ما أقل أن تجتمع حياة الى حياة ، فكيف بى ومالى غير واحدة نفدت فلم يبق لى منها الا القليل . ولكننى استنقذها من الصمت الأبدى ساعة فساعة فأثرى وأفيد جديدا ! ما أقبح أن تحتبس النفس أعواما وقد هرمت تلهبها الرغبة فى التماس المعرفة كما يلتمس نجم يهوى خلف ما تمتد إليه عقول البشر . ها هو ولدى تليماك . سأترك له جزيرتى وصولجانى وقد حببته محبتى ، وعهدى به بصيرا بالحكم ، قادرا على أن يروض بحكمته جماح هذا الشعب العنيف ، وأن يحمله بلا رفق على الفطنة الى ما فيه الخير

والنفع • وما به من عيب ، وأنه لآخذ نفسه بالتزام واجبه ، وأنه لأعف من أن يعق فروض المحبة أو أن يتراخى فى تبجيل آلهتنا عند ما تشتط بنا النوى • ليكن له هذا ، وليكن لى ما خلقت له •

« ها هو المرفأ • هاهى السفن تنشر الرياح قلاعها • هاهى البحار الشاسعة المظلمة يعتم ضياؤها ، وأنتم رفاق أليم ! كم جهدتم وكم فكرتم الى جوارى والابتسامة لاتغادر شفاهكم ثارت عاصفة أو أشرقت شمس ، تلقونها جميعا بقلب طليق • لقد تقدمت بى وبكم السنون ، ولكن للكبر مجده وجده الى أن يختتم الموت الحياة • وما تزال لدينا جلائل من الأمور تليق برجال مثلنا نازلوا الآلهة •

« هاهى الأضواء تتبعث من أعلى الصخور ، وهاهو النهار ينصرم وقد أخذ القمر يسمو بالأفق وأعماق البحار تئن متعددة الأنغام • هيا أيها الرفاق ، فمهما يزال لدينا متسع للبحث عن عوالم جديدة • ادفعوا السفن • استقروا بأمكنتكم والطموا المسابح الصاخبة • ولتكن غايتنا إلى ما خلف مهد الشمس ومسارب نجوم الغرب ، حتى يقضى الله فينا قضاءه ، فاما ابتلعتنا مهاوى اليم ، واما أرسينا بجزر الخيرات حيث نرى بطلنا أخيل كما عهدناه • لئن كان قد فنى منا الكثير فقد بقى الكثير ، وما زلنا كما كنا ، وان لم نعد فى تلك القوة التى اهتزت لها الأرض والسماء • ما زالت قلوبنا عامرة بالبطولة الصادقة المعدن • نعم لقد أضعفنا الزمن وإرادة القضاء ، ولكننا لا نزال أقوياء لنكدح ونجد ونكد ونأبى الخضوع » •

وهذا هو أوليس المكافح الصلب العود • يغامر رغم شيخوخته وكله ثقة وتحرق الى المجهول ، فاما النصر والسطرة على الوجود ، واما الفناء وسط الجهاد • وتلك صفات نجدها عند الانجليز الذين استطاعوا أن يثبتوا لصدمات الدهر •

وكرت السنون وإذا بنا نرى أوليس آخر فى القرن العشرين • هو أوليس الكاتب الانجليزى المعاصر جيمس جويس James joyce

الذى أنفق جانبا كبيرا من حياته بباريس ، تلك المدينة الصاخبة المتعددة مظاهر النشاط الانسانى ، ساميه وحقيره • ولقد نفذ جويس إلى كل ما يجرى فيها من مجد وإسفاف ، وود لو سجل خلاصة تجاربه العديدة فلم يجد غير أوليس رمزا لتلك الحياة الحافلة ، فكتب ما يقرب من ثمانمائة صفحة يقص فيها مغامرات بطله الذى لم يترك شيئا الا غله ولا وسطا الا تخلل فيه ، فهو رمز المعرفة الشاملة • تلك التى لاتعدل بالتجربة شيئا ولا تردها عنها مبادىء خلق أو مواضعات اجتماعية • إن فى أوليس جويس مالا يجرؤ المرء أن يعترف به حتى بينه وبين نفسه ، وتلك بلا ريب مقدرة قد تحمد للكاتب ولكننا فى الحق لا نكاد نطمئن إلى نفع نراه فيها أو ضرورة ملجئة اليها ، فهى لاتزيدنا معرفة الا بالجانب المظلم من نواحى الانسان ونحن فى حاجة الى ضياء •

وفى الحق اننا لاندرى كيف تطور أو ليس حتى انتهى الىجويس ، وان يكن فى عشرات القرون التى عبرها ما قد يعيننا على الفهم وبخاصة اذا ذكرنا ذلك التطور الواضح الذى تطورته الأخلاق فى القرن العشرين •

والذى لا شك فيه هو أن أوليس اليونان لم يعد كما قلنا أنموذجا بشريا بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلو له للعبارة عما فى نفسه من احساس أو فى عقله من فكر ، ونحن مع ذلك ننظر فى كل ما خلق المحدثون فى هذا فلا نجد أن أحدا منهم قد أضاف الى البطل قسمة جديدة ، وانما هى سمات من الصورة التى رسمها له الاغريق القدماء وبخاصة هوميروس فجاءت كاملة منذ أن خلقت •

لقد رأينا أوليس فى الالياذة يمثل الشجاعة والحكمة ، ورأيناه فى الأودسا وقد أخذت الحكمة تسيطر فى نفسه شيئا على الشجاعة ، ورأيناه عند سوفكليس وقد صار خبثا وذكاء مدمرا ، وكان هذا نذيرا بفنائه وفناء الشعب الذى يمثله •

ومرت القرون فعاد أو ليس الى الظهور ، ولذا بملامحه تعـود فتتضح بفضل أقلام جديدة • أهو البعث ؟ أهو خلق جـديد ؟ ذلك ما لا يعنينا الآن ، وإنما أردنا أن نـدل بمثل ناطـق على ما فى تراث اليونان من خصب وقدرة على الايحاء • قدرة لايمكن أن تنفد ، لأنها من قدرة الحياة التى أمسكت بها عبقريتهم فسجنتها فى صور ونماذج لن تفنى • وفى هذا ما يفسر حرص الدول الأوروبية على الثقـافات اليونانية واللاتينية واعتبارها الوسائل الأولى فى تربية الشـباب وذلك على الرغم من أن معظم المؤلفات التى كتبت بهـاتين اللغتين قد ترجمت الى جميع اللغـات الحية أكثر من مرة • ودراسـة تلك اللغات فى ذاتها رياضة عقلية لامثيل لها ، كما أن الـكتب التى ألفت فيها يرجع جانب كبير من قيمتها الى جمال صياغتها ، ومن الثـابت أن أية ترجمة لا يمكن أن تحتفظ بهذا الجمال •

المبيط

(١)

مع مارى والأطفـــال

لقد قص ديستويفسكى الكاتب الروسى الشهير أحداثا كثيرة وقعت لأمير روسى هو موتشكين Miuchkine الذى وصفه الـكاتب لأمر سنراه فيما بعد بالمبط ، وأودع تلك الأحداث رواية تقع فيما يقرب من ألف صفحة بعنوان « المبيط » (١) .

ونحن لانريد اليوم أن نتزلق الى مناقشات فلسفية حول المبط ، فمن الناس من يدعى الحكمة ، وما أكثر الدعاوى ، فيرى فى تصرفات هذا الرجل لا عبطا فحسب ، بل واختلالا فى الادراك ، ومنهم من لم يزل يسلط عقله يتبين حدوده ويناقش مقدرته على الجزم عن يقين ، حتى أصبح يرى فى ضوئه ذاته شيئا من الاضطراب يكاد يحيـــله ضوءا كاذبا ، ان لم يكن ظلمة ، ولهذا يحذر أن يصف غيره بالمبط ، فلربما كان هو المبيط .

الأمير مونتشكين فى السابعة والعشرين من عمـــره الآن ، فهو اذن رجل بحكم سنه ، ولكنه مع ذلك يستريح الى معاشرة الأطفـــال ، ويضيق بالأشخاص الكبار ، لأنه اذا وجد معهم لايدرى ماذا يقول لهم . وهذا أمر غريب يدعونا الى أن نرى فى الرجـــل شـــذوذا ، ونبحث فى نشأته محاولين الكشف عن ذلك الشـــذوذ فلا نهتدى الى شىء كثير ، فالرجل قد مات أبوه وهو فى سن مبكرة ، فتعهده صديق خير من أصدقاء والده . وكل مالاح عليه من أمارات غير عادية لايعدو مرض التشنج العصبى . ونحن لا نستطيع أن نقرر أن هذا المرض يؤدى الى المبط ، فقد كان ديستويفسكى نفسه مريضا به ، ولقـــد

---

(١) L'Idiot : Dostoievsky : 2 vol. traduit Victor Dérely.. plon. paris.

مرض به أيضا فلوبير الكاتب الفرنسى الكبير ، كما مرض به غيرهما ممن لا يجرؤ أحد من عقلائد أن يصفهم بالعبط .

وفى الحق إننـا لا نرى داعيـا للبحث عن تعليل حكم لم نثق بعد من صحته ، فمونتشكين لم يكن عبيطا ؛ بل ربمـا كان فى وصفه بهـذه الصفة أكبر سخرية استطاعهـا ديستويفسكى من عقليـة البشر . يخيل إلينـا أن هـذا الكاتب العبقرى لم يكن يظن العبط بأميره ، بل بنـا نحن .

وها هى قصة هـذا العبيط مع مارى والأطفال توضح سـوء ظن المؤلف بالملايين الذين قرأوا روايتـه . ستقرؤها فـلا تملك إلا أن تدهش لمقـدرة هـذا العبيط على فهم جوانب الضعف فى النفس البشرية ، وإذا بك تثور على ما فى طبـائع النـاس من شر أصيل ، وقـد أخذت بنيل الرجل ونفـاذ حسه .

من المعلوم أنه عنـدما اشتد بمونتشكين المرض أرسله القائم على تربيته إلى طبيب بسويسرا ليعالجه بمصحته ، ولقـد وجـد المريض فى جو سويسرا مسعدا على الشفاء ، فأقام هناك أربع سـنوات ، دفع مربيـه فى السنتين الأولين أجر علاجه وإقامته ، ثم مات هـذا المحسن الكبير فلم يبق للأمير معيل ، ومع ذلك فقـد أمسك الطبيب الكريم سنتين أخريين ولكن العبيط ضاق بالإقامة وقـد انقطع عنـه كل مـدد من روسيا ، فقرر العودة إلى بترسبورج ليلتمس له عملا يعيش به . وتذكر عبيطنا أن أسرته العريقة قـد بقيت منهـا أميرة هى الآن زوجـة لجنرال بالجيش ، فقـرر أن ينزل بدارها ليتعرف إليهـا وإلى زوجهـا ، ثم ينظر ماذا هو فاعل .

نزل العبيط عند الجنرال إيبانتشين Epantchine واستطاع أن يحمل مضيفه على أن يقدمه إلى الأميرة ، وغادر الجنرال المنزل لأمر يشغله ، فلم يتنـاول وجبـة الغـذاء مع أسرته ، وظل الضيف مع الأميرة وبناتهـا الثلاث ، وتناولوا الغـذاء سـويا ، ثم جلسوا للحديث ،

وأبى حب الاستطلاع الأصيل فى النساء إلا أن يسوق الضيف إلى قصص حياته فى الخارج ، وأربعتهن يحسبن به العبط ، إذ كان الجنرال قد بصرهن بهذه الحقيقة قبل أن يغادر المنزل ، وإن يكن حديث الضيف لم يلبث أن زعزع عند بعضهن هذا اليقين ، وقد كان من بينهن من تتمتع بملكه الحكم الشخصى .

قصة العبيط مع مارى والأطفال كانت من بين ما قص بطلنا فى ذلك اليوم ، فقد وقعت له أحداثها بالقرية السويسرية حيث كانت المصلحة التى أقام بها .

قال : « فى أول الأمر لم يكن الأطفال يحبوننى . لقد رأونى كبيرا وقد كنت دائما قليل (اللحلحة) ، ثم إنى أعلم أنى دميم ، وأخيرا باعد بينى وبينهم أننى كنت أجنبيا فى قريتهم . لقد كانوا فى البدء يتضاحكون منى ، بل أخذوا يرموننى بالحجارة عند ما فاجأونى أقبل مارى ، إننى لم أقبلها غير مرة واحدة ، .. لا ، لاتضحكن ، فإن الحب لم يكن له دخل فى الموضوع . ولو أنكن رأيتن هذه المخلوقة البائسة بأنفسكن لأخذتكن بها الشفقة كما أخذتنى . كانت فتاة من القرية تسكن مع أمها كوخا صغيرا تضيئه نافذتان ، وكانت الأم العجوز تبيع أربطة الأحذية والخيط والتبغ والصابون ، وبإذن من السلطات كانت تعرض بضاعتها على لوح من الخشب مثبت أمام إحدى النافذتين ، وكانت هذه التجارة تأتيها بقليل من النقود الصغيرة تعيش بها ، وكانت مريضة متورمة الأرجل مما اضطرها إلى أن تظل جالسة . وكانت مارى فى العشرين من عمرها ، نحيفة ضعيفة البنية ، وإن لم يكن مرض السل قد ظهر عندها . إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تعمل باليومية فى المنازل ، حيث تقوم بالأعمال الخشنة : فتمسح البلاط ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأحواش ، وتقدم للحيوانات علفها .. وفى أحد الأعوام أغواها قومسيونجى فرنسى وأخذها معه ، ولكنه بعد أسبوع واحد غرسها حيث انتهى به المسير ثم ولى ، فوجدت نفسها وحيدة بعرض

الطريق ، فعادت إلى قريتهـا وهى تستجدى طول رحلتها ، ووصلت قـذرة مهلهلة الأسمال ، ممزقة الحـذاء تمزيقا تاما . لقـد سارت ثمانيـة أيام : تنـام فى العراء وتقاسى لذعة البرد ، لقـد دميت قـدماها ، وتخطت يداها بالقشف والشقوق ، وهى حتى قبـل ذلك لم تكن جميـلة ، لم يكن لهـا غير عينين وديعتين تملؤهما الطيبـة والبراءة . لقـد كان صمتهـا خارقا ، فقـد اتفق مرة — قبـل أن تحدث لهـا تلك الحادثة — أن أخذت تغنى فجـأة . وهى تعمل ، فأحدث هـذا الغنـاء فيما أذكر دهشة عامة « لقـد غنت مارى .. آه .. ، مارى تغنى ! » هكذا قـال الناس وهم يضحكون ، وخجلت مارى منذ ذلك الحين ، فانطوت فى صمت عنيـد . وكانوا يعاملونها عنـدئذ بشىء من العطف ، ولكنهـا عندما مرضت وأخذت أطرافها تدمى لم يظهر لهـا أحـد أقل شفقة ، ما أغلظ الناس فى مثل هـذه الحـالة ! بأى قسوة يحكمون على هـذه الأشـياء ؟ ! وكان أولهم فى ذلك الأم العجـوز ، فقـد تلقت بنتهـا فى غضب واحتقـار . « الآن قـد لوثت شرفى » ، هـذا ما قالت ، ثم كانت أسبق الجميع فى تعريض ابنتها لسباب الجمهور ، وعنـدما علموا فى القرية بعودة مارى أسرعوا جميعا شيوخا وأطفالا ونساء وفتيات ليروها . لقـد غزا السكان جميعـا كوخ العجوز ، وهنـاك كانت ترقـد مارى على الأرض عنـد قدمى أمها باكيـة وهى تموت جوعا ولا تغطيهـا غير الأسمال . وبينمـا يتقـاطر الزائرون كانت تحاول أن تختفى عن أبصارهم بأن تتخـذ من شعرها المنتشر نقـابا يغطى وجههـا ، ثم تطأطىء رأسها إلى الأرض . لقـد التف الجمهور حولهـا فى دائرة وأخـذوا ينظرون إليهـا كحشرة . فالشيوخ يعنفونهـا تعنيفـا لا هوادة فيـه ، والشبان يكشرون لهـا عن أنيابهم ، والنساء يكلن لهـا السباب ، وقـد أظهرن من الاشمئزاز مثـل ما يظهرن عنـدما يرين عنكبوتا ، والأم جالسة فى حجرتها تشجعهم بالصوت والإشارة بدلا من أن ترد عن ابنتهـا شيئا من عدوانهم . ولقـد كانت فى ذلك

الحين شديدة المرض ، فى حالة احتضار تقريبا ، وفى الواقع لقيد ماتت بعد ذلك بشهرين ، ومع ذلك فإنها رغم إحساسها بقرب أجلها رفضت إلى آخر لحظة أن تتصالح مع ابنتها ، إنها لم تخاطبها قط بكلمة واحدة وكانت ترسلها إلى الدهليز لتنام به ، بل تركتها بغير غذاء تقريبا ، ولقد كانت مضطرة إلى أن تضع مرارا قدميها المريضتين فى الماء الساخن ، فكانت مارى تغسلهما لها ، وتقدم إليها كل أنواع الرعاية ، فتقبلها العجوز دون أن تقابلها بأية عبارة رقيقة • ولقد كانت الفتاة تتحمل كل ذلك فى استسلام •

وعندما تعرفت إليها فيما بعد ، لاحظت أنها نفسها كانت تبرر كل ما ينزل بها من إهانات إذ كانت تعتبر نفسها أحط كائنات الأرض • ولم تعد العجوز تتناول غير اللبن ، فأخذ نساء القرية يفدن إليها ليتناوبن رعايتها وفقا للعادات المرعية بالريف ، وعندئذ أمسكوا إطلاقا عن إطعام مارى ، فكان كل الريفيين ينحونها عن مداخل منازلهم ، بل إن أحدا منهم لم يقبل أن يعهد إليها بعمل ما كما كانوا يفعلون من قبل • لقد كان كل واحد منهم يلقاها ببصقة تقريبا ، فالرجال لم يعودوا ينظرون إليها كامرأة ، وكانوا يوجهون إليها أقذع الألفاظ ، واحيانا ، وفى النادر الذى لا يذكر ، كانوا إذا أخذهم الخمار يوم الأحد يرمون إليها بقليل من النقود سخرية منها • وكانت مارى تجمعها فى صمت • ثم أخذت منذ ذلك الحين تبصق الدم ، وانتهت أسمالها بأن أصبحت من القذارة بحيث لم تعد تجرؤ ان تظهر بالقرية ، ومنذ عودتها كانت تسير عارية القدمين ، وكان أطفال المدرسة ، وهم أكثر من أربعين ، يحلو لهم بنوع خاص أن يؤذوها ويرموها بالطين • وطلبت إلى أحد الفلاحين أن يسمح لها بحراسة البقر ولكنه رفض ، فألحقت هى نفسها بهذا العمل ، فكانت تصحب المواشى عند خروجها من الحظيرة ولا تتركها طول النهار • ورأى الفلاح أنها تؤدى إليه خدمات عديدة فلم يطردها ، بل كان يعطيها بعضا من فضلات

غـذائه : قليلا من الخبز والجبن • ولقـد رأى فى عمله هـذا طيبة كبيرة منـه • وعنـدما ماتت الأم لم يخبط القسيس أن يلعن مارى على مسمع من الجميع فى وسط الكنيسـة • وأما هى فقـد كانت بأسمالها الفـخرة راكعة الى جوار التابوت وهى تبكى • وكان حب الاستطلاع قـد أتى بكثير من الناس إلى الجنـازة ، كانوا يريدون أن يروا كيف تبكى الفتـاة وكيف تسير خلف التـابوت ، وكان القسيس — الذى لا يزال شابا — لا يطمح إلا إلى أن يكون واعظا كبيرا فتجه إلى الجمهور ، وأشار إلى مارى ثم قال : « ها هى تلك التى سببت موت هـذه السيدة الجليـلة » ، (هـذا غير صحيح ، فقـد كانت العجوز مريضة منـذ سنتين) ، « ها هى أمامكم وهى لا تجسر أن ترفع عينيهـا ، لأنهـا قـد وصمت بأصبع اللـه ••• ها هى عارية القـدمين مغطاة بالأسمال ، مثـلا يتعظ به كل أولئـك اللائى قـد يغريهن سـوء السـلوك ••• ومن هى ؟ ••• إنهـا ابنتهـا ••• الخ » •

ولنتصور أن هـذا الجبن قـد سر جميع الحاضرين ، ولكن ••• حدث عنـدئذ حدث ، فقـد أخـذ الأطفـال جانب البائسة ، وذلك لأنهم كانوا قـد انضموا إلى وابتـدأوا يحبون مارى ، وها هو تفصيل ما حـدث :

لقـد أردت أن أسـدى إلى الفتـاة بعض العون ، فقـد كانت فى حاجـة إلى النقود ، ولكننى طول إقامتى بسويسرا لم أكن أملك درهما واحـدا تحت تصرفى • وكان عندى دبوس من المـاس فبعته لأحـد التجار الذين يذهبون من قرية إلى أخرى للاتجار فى الملابس القديمـة ، ولقـد أعطـانى ثمنـا له ثمانيـة فرنكات ، مع أنه كان يساوى أربعين بلا ريب •• ولزمن طويل لم أستطع أن أصل إلى حديث خاص مع مارى • وفى النهاية تقابلنـا خارج القرية فى إحـدى طرق الجبل خلف شجرة ، وهنالك أعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها أن تحرص عليـها ، لأنى لن أستطع فى المستقبل أن أمدها بعون آخر ،

ثم قبلتها قائلا : لا تظنى بى أى قصد سيىء ، فإذا كنت قد قبلتك فليس ذلك لأنى معجب بك ، ولكن لأنك توحين إلى بشفقة عميقة ، وفى الواقع لقد رأيت فيك دائما ومنذ البدء فتاة بائسة لا فتاة مجرمة .

لقد رأيت فى حرارة أن أغريها وأن أقنعها بأنها كانت على خطأ فى أن تعتبر نفسها دون الآخرين ، ولكنى لم ألبث أن أدركت أنها لا تفهم قولى ، أدركت هذا من موقفها وذلك لأنها لم تفه بكلمة واحدة تقريبا ، بل ظلت طول الوقت واقفة أمامى مسدلة جفونها كشخص يثقله الخزى . وعندما انتهيت قبلت يدى ، فأمسكت توا بيدها ، وأردت أن أقبلها ، ولكنها سحبتها . وفجأة لاحظنا الأطفال وقد اجتمعت هناك جماعتهم . لقد عرفت فيما بعد أنهم كانوا يرصدون حركاتى منذ حين ، وأخذوا يضحكون ويصفرون ويضربون أيديهم يدا على يد ، فأسرعت مارى إلى الهرب ، وفى نفس اليوم علمت القرية كلها بالخبر ، فازداد سوء الظن بمارى ، وتكالب الاعتداء ، بل لقد سمعت أنهم قد فكروا فى عقابها ، ولكن بفضل من الله لم يحدث من ذلك شىء ، ومع هذا فإن الأطفال لم يتركوا لفريستهم راحة ، بل ضاعفوا من عداوتهم لها ، وأخذوا يطاردونها ويقذفونها بالطين . وكانت المسكينة عندما تحس بهم فى أعقابها تجرى وهى المسلولة ، حتى تنقطع أنفاسها ، لكى تفلت من أذاهم ، وهم يعدون من خلفها صائحين بالشتائم . ولقد حدث ذات يوم أن كدت أشتبك معهم . وفيما بعد أخذت أردهم إلى العقل ، فكنت أتحدث إليهم كل يوم كلما استطعت ذلك . ولقد كانوا يقفون أحيانا ويستمعون إلى ولكنهم استمروا رغم ذلك فى إيذائهم لمارى . وشرحت لهم كيف أنها بائسة فانتهوا بأن أمسكوا عن شتمها ، وأخذوا يمرون بها دون أن يقولوا لها شيئا ، وبالتدريج أخذت أتحادث معهم أحاديث طوالا ؛ ولم أكتم عنهم شيئا ، بل قصصت عليهم كل شىء . وكانوا ينصتون إلى

باهتمام ، ولم يلبثوا أن أخذتهم الشفقة على الفتاة ، فأصبح الكثيرون منهم يحيونها تحية عابرة إذا مروا بها .

يخيل إلى أن مارى قد دهشت لهذا التغير فى معاملتهم لها . ولقد حدث مرة أن بنتين صغيرتين حملتا إليها شيئا من طعامهما ثم حضرتا لتخبرانى بما فعلتا ، قالتا : إن مارى قد بكت ، وإنهما قد أصبحتا الآن يحبانها كثيرا . ولم يلبث جميع الأطفال أن أحبوها ، كما شعروا نحوى أيضا بمحبة فجائية ، فكانوا كثيرا ما يأتون إلى ويطلبون دائما أن أقص عليهم شيئا ، ولا بد أننى كنت أجيد القصص لأنهم كانوا يحرصون على حكاياتى . ولقد أخذت نفسى بعد ذلك بالقراءة والدرس لا لشىء غير أن أحفل إليهم ما أجد فى الكتب . ولقد استمررت على هذه الحال طوال الثلاث سنوات التالية . وعندما أخذ الطبيب وغيره من الناس يلوموننى لأننى أتحدث إلى الأطفال كأنهم رجال ناضجون ، ولا أكتم عنهم شيئا ، أجبت بأنه من العار أن نكذبهم ، وأضفت أنهم مهما اتخذوا من احتياطات لن يمنعوا الأطفال من أن يعرفوا دائما ما يريدون هم أن يظلوا جاهلين به ، بل إنهم سيعرفونه على نحو يدنس خيالهم ، بينما هم لن يتعرضوا معى لهذا الخطر ، وما على كل منا إلا أن يعود إلى ذكريات طفولته ليتحقق من صحة ما أقول . ولكن هذا الرأى لم يقنع أحدا ..

لقد كانت قبلتى لمارى قبل وفاة أمها بخمسة عشر يوما ، وعندما ألقى القسيس موعظته كان جميع الأطفال فى جانبى ، فأخبرتهم بالهجوم المخزى الذى سمح القسيس لنفسه به ، ووصفت هذا الهجوم بما يستحق من ألفاظ ، فثاروا جميعا وبلغ الغضب بالكثأين منهم أن حطموا بالحجارة نوافذ القسيس ، ولقد أفهمتهم أنهم مخطئون فى تصرفهم هذا ، ومع ذلك فقد ذاع فى القرية أننى كنت المحرض لهم على هذا العمل . ومنذ ذلك اليوم اتهمنى الجميع بإفساد أخلاق تلاميذ المدارس ، واكتشف الجميع بعد ذلك

أن هؤلاء الأطفال يحبون مارى ، فسبب هذا الاكتشاف قلقا بالغا ، ولكن الفتاة كانت سعيدة • وحاول الآباء عبثا أن يحظروا على أطفالهم مخالطتها ، ولكنهم كانوا يذهبون سرا للقائها ، حيث ترعى البقر فى مكان بعيد بما يقرب من نصف فرسخ عن القرية • وكانوا يحملون لها الهدايا ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يذهبون ليضموها فقط إلى صدورهم ويقبلوها قائلين : مارى ! إنى أحبك ! ثم يعودون مسرعين إلى بيوتهم وهم يعدون ملء أرجلهم • ولا شك أن سعادة كهذه كانت خليقة أن تذهب بصواب مارى ، فهى لم تكن تتصور هذا حتى فى الأحلام • ولقد أحست بمزيج من الفرح والاضطراب • وكان الأطفال وبخاصة البنات يحرصون على الذهاب إليها ليخبروها أنى أحبها ، وأننى أتحدث عنها كثيرا • وقالوا : لقد قص علينا قصتك ، والآن نحن نحبك ونرثى لك ، وسنستمر كذلك دائما • ثم يسرعون إلى بأوجههم الصغيرة المرحة ليخبرونى فى اهتمام شديد أنهم رأوا مارى ، وأنها ترسل إلى تحياتها •

وفى المساء كنت أذهب إلى الشلال ، وهنالك كان يوجد مكان مغلق عن القرية إغلاقا تاما ، وشجر السرو يحيطه من جميع النواحى • فى ذلك المكان كنت أستقبل الأطفال فى المساء ، بل إن الكثيرين منهم كان يأتى سرا - وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا سرورا كبيرا فى حبى لمارى • وهذه هى المسألة الوحيدة التى كذبتهم فيها طول إقامتى بينهم • لقد تركتهم يعتقدون أننى معهم بمارى ، وإن كنت لم أشعر نحوها بغير الشفقة ، ولكننى عندما رأيت أنهم ينسبون إلى إحساسا آخر ، وأن هذه الفكرة تسرهم ، حرصت على ألا أكذب ظنهم ، وتظاهرت بأنهم قد كشفوا دخيلة نفسى ، أى طيبة لطيفة فى هذه القلوب الصغيرة ! ولأكتف فى ذلك بمثل واحد : فقد عز عليهم أن يروا صديقهم ليون يحب مارى ، ومارى رثة الثياب ، بل ويعوزها الحذاء ، تصورن أنهم حصلوا لها على حذاء وجورب وملابس داخلية ، بل وبعض الثياب • كيف ؟ وبأى حيل عبقرية

نجحوا فى الحصول على كل هـذا ؟ ذلك ما لا أفهمه ! ولكن المدرسة كلهـا قـد اشتركت فى هـذا العمل • وعندما سألتهم عن الموضوع كان الجواب الوحيـد ضحكة مرجة ، وقـد أخذت البنات الصغيرات يضربن أيديهن يـدا فوق يـد ويقبلننى • وأحيانا كنت أذهب لرؤية مارى خفيـة •

ثم اشتد بهـا المرض ، فأصبحت تقريبا عاجزة عن المشى ، وأخيرا انقطعت عن العمـل بالمزرعة انقطاعا تاما ، ولكنهـا استمرت تقـود المواشى إلى الحقل كل صباح • هنالك كانت تستند إلى صخرة عمودية على الأرض • وتظل كذلك بلا حراك حتى يحين موعد العودة بالبقـر إلى الحظيرة • وأنهكهـا السل ، وانقبضت أنفاسها ، فكانت تظـل يومها كله فى حالة تشـبه النوم ، مغلقة العينين ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، وكان وجهها شاحبا كالجثـة الميتـة ، والعرق يبلل جبينها وعارضيهـا • كنت أجدها دائمـا فى هـذه الحـالة ، ولم أكن آتى إلا لبرهة قصيرة ، لأننى أيضا لم أكن أريد أن أرى • وبمجرد ظهورى كانت مارى تنتفض فتفتح عينيهـا وتسرع إلى تقبيل يـدى ، وكنت أتركهـا تفعل ذلك لأنهـا كانت تجـد فيـه سعادتها • وطول مدة زيارتى كانت ترتعـد وتسكب الدموع ، وأحيـانا كانت تتكلم ، ولكن حديثهـا كان فى الحقيقـة من الصعب فهمـه • لقـد كانت تشبه المجنونة بشدة انفعالهـا ولهفتهـا ، وأحيـانا كان الأطفال يقبلون معى ، وفى مثل هـذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ، ليلاحظوا الطريق ، حتى لا يفـاجئنى أحـد وأنا أتحـدث مع مارى • وكان « دور الحراس » هـذا يسرهم كثيرا • وبعد عودتنـا كانت مارى تعود إلى وحدتهـا ، فتظل من جـديد بلا حراك ، مغمضة عينيهـا ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، ربمـا كانت تحلم بشىء •

وفى ذات صباح لم تستطع الخروج كالعـادة لتقود القطيع إلى المرعى ، وبقيت فى منزلهـا الصغير الخالى ، ولم يلبث الأطفـال أن علموا بذلك ، فأتوا كلهم تقريبيـا لزيارتها عـدة مرات فى ذلك اليوم

وهى طريحة الفراش لا يقوم بخدمتها أحد • ولمدة يومين كان الأطفال وحدهم هم الذين يقومون بأمرها ، وقد أخذوا يتناوبون مهمة تمريضها ، ولكنه عندما علم أهل القرية بعد ذلك أن مارى تحتضر أتت الفلاحات العجائز كل واحدة بدورها للقيام بجوارها ، وقد لاح فى القرية أنهم أخذوا يشفقون على الفتاة • فهم على الأقل قد ابتدأوا يتركون للأطفال حريتهم فى أن يدنوا منها ، ولم يعودوا ينهرونهم عن ذلك كما كانوا يفعلون من قبل • وكانت المريضة دائما فى حالة حشرجة ، فنومها مضطرب ، وسعالها مخيف ، وكانت النساء العجائز يمنعن الأطفال من الدخول إلى الغرفة ، ولكنهم كانوا يسرعون إلى النافذة ، وأحيانا لا يبقون هناك إلا لحظة واحدة ليقولوا : صباح الخير مارى العزيزة ! وأما هى فبمجرد رؤيتها لهم أو سماعها لصوتهم كانت تنتعش ، وللحظتها كانت تصم أذنيها عن ملاحظات ممرضاتها ، فترفع نفسها فى مشقة فوق الفراش لترسل برأسها إشارة إلى أصدقائها الصغار شكرا لهم • واستمر الأطفال على حمل الهدايا إليها ، ولكنها لم تعد تأكل شيئا ، وبفضلهم — أؤكد لكن — ماتت سعيدة تقريبا ، بفضلهم نسيت محنتها وقد تلقت منهم الصفح على نحو ما ، وذلك لأنها حتى النهاية كانت تعتبر نفسها عاصية • لقد كانوا كالطير يضربون كل صباح نافذتها بأجنحتهم ويصيحون : مارى إننا نحبك !

لقد ماتت بسرعة ، وكنت أعتقد أنها ستعيش طويلا ، ففى اليوم السابق لموتها ذهبت أراها قبل غروب الشمس ، فلاح لى أنها تعرفنى ، ولقد صافحتها للمرة الأخيرة • كم كانت تلك اليد عارية عن كل لحم ! وفى الصباح المبكر أتوا فجأة ليخبرونى أن مارى قد ماتت ، وفى هذه المرة خرج الأطفال على كافة الأوامر ، فدخلوا المنزل وغطوا الميتة بالزهور ، ووضعوا على رأسها تاجا منها ، وفى الكنيسة احترم القسيس على الأقل ذكرى تلك التى سبها وهى حية ، ثم إن الحضور لم يكونوا غير قليل ممن أتى بهم

حب الاستطلاع • وعنـد رفع الجسد أراد جميع الأطفال أن يحملوا التابوت ، ولكنه لمـا كانت قوتهم لا تكفى لذلك فإن رغبتهم لم تجب • وساروا جميعـا فى الجنازة باكين • ومنـذ ذلك الحين وهم يجلون قبر مارى ، ففى كل عام يزينونه بالأزهار ، كمـا أنهم زرعوا حوله أشـجار الورد ••

(٢)

العبيط فى الحيـاة الإجتماعيـة

رأينـا الأمير مونتشكين — عبيط ديستوفسكى — يصاحب الأطفال ويفضلهم على الكبار ، ولم نستطع إلا أن نقره على سلوكه • فقـد تضافر مع أصدقائه على رحمة فتـاة بائسة • نعم إن الفتـاة كانت قـد سقطت سقطة أخلاقيـة لم يكن بـد للهيئـة الاجتماعية من أن تثور لهـا • ونحن ندع جانبـا منبع تلك الثورة • هبهـا غريزة تناهض ما فى ملكة التفكير من تدمير لحيـاة الفرد وتقويض لحيـاة الجمـاعة إذا أطلقنـا لتلك الملكة عنـان التبرير المضلل ، ثم انظر ألم تفكر الفتاة عن إثمها آثم التكفير ؟ ألم تقبل كـل ما أنزلنا بهـا من تنكيل بنفس صاغرة باخعـة ؟ وعندما ينزل القضاء أوَ ما ترى رحمة اللـه لا بـد مرسلة هديهـا إلى من تختـار من أرواح تحمل إلى البائسين نسمة من تلك الرحمـة ؟ ومن يدرينـا لعل الأطفـال والعبطاء هم تلك الأرواح المختـارة •

نستطيع إذن أن نتردد فى الحكم على مونتشكين بالعبط لمصادقتـه الأطفـال ومسحه دموع مارى ، بل قـد نجـرؤ فنرى أن الهيئـة الاجتماعيـة التى تصف الأمير بهـذه الصفة هى على الأقل العبيطة إن لم تكن الغليظـة الحمقـاء • وما الهيئـة الاجتماعيـة إلا نحن — العـاديون من النـاس — الذين تتحكم فيهم المواضعات فتجعل منهم أحيـانا وحوشا لا تعى ما تفعل •

وها نحن اليوم نواجه العبيط فى الحيـاة الاجتماعيـة ، ها نحن

نغادر أدب النفس إلى أدب الجماعة • نغادر وحى الضمير إلى عادات المجتمع • ولا تحسبن أننا ننتقل بذلك من مجال صارم إلى مجال هين ، فنحن فى الحق أكثر استعبادا للعرف منا للخلق • وذلك لأمر بيّن هو أننا جميعا — إلا من عصم ربى — أشد حرصا على حركاتنا الظاهره منا على حقائق نفوسنا • وإذ تعارض ظاهر لنا بباطن كم ممن ترى حولك يستجيبون لنداء الضمير ؟

عاد الأمير موتشكين من سويسرا حيث كان يستطب من التشنج العصبى إلى بترسبورج ولما كان يعلم أن أسرته العريقة قد انقرضت ولم يبق منها غير سيدة واحدة زوجة لجنرال كبير بالجيش ، فقد رأى أن يذهب إلى تلك السيدة ليتعرف إليها ويستشيرها فيما يفعل وهو الوحيد المنقطع •

« كانت الساعة غير بعيدة من الحادية عشرة صباحا عندما دق الأمير الجرس ببيت الجنرال ، وهو فى الدور الثانى • مسكن فى حدود البساطة التى تسمح بها مكانة صاحبه الاجتماعية • وفتح الباب خادم فى بذلة الحشم • وكانت مناقشات طويلة بين الأمير وذلك الرجل الذى نظر إليه هو وحقيبة ملابسه الصغيرة نظرة ملؤها الريبة • وفى النهاية ، وبعد أن أعلن إليه عدة مرات أنه حقيقة الأمير موتشكين وأنه فى حاجة ماسة إلى رؤية الجنرال لأمر هام ، أدخله الخادم إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفة الانتظار ، ثم انسحب تاركا الضيف بين يدى خادم آخر : رجل فى الأربعين من عمره يرتدى بذلة رسمية وعمله إخبار صاحب السعادة بأسماء الزائرين • وكان فى ملامحه المهمومة ما يدل على مبلغ شعوره بأهمية وظيفته •

قال للضيف : تفضل • « ادخل الصالون برهة ودع حقيبتك هنا » • قال هذا وهو يجلس فى مقعد ضخم برزانة مصطنعة ونظرته المدهوشة القاسية تفحص الأمير الذى لم يتخل عن متاعه

المتواضع ، وأخذ كرسيا وجلس إلى جواره قائلا : سأنتظر هنا — إذا سمحت — فى صحبتك . ماذا أفعل هنالك وحيدا ؟

— « ولكنك ، مادمت قد أتيت لزيارة ، لا تستطيع أن تبقى فى هذه الغرفة . إنك تريد أن تحادث الجنرال نفسه أليس كذلك ؟ » . وفى الواقع إن الخادم لم يكن يخطر ببباله أن يدخل زائرا كهذا على الجنرال ، ولذلك كرر سؤاله الأخير . فأجاب الأمير : « نعم إن لدى مسألة ... » — « أنا لا أسألك عن شىء . فعملى هو أن أعلن قدومك فقط ، ولكننى كما أخبرتك مضطر إلى أن أرى السكرتير أولا » .

لقد أخذ الخادم يزداد ريبة . فالأمير كان شديد الاختلاف عن الزائرين العاديين . والجنرال — لا ريب — لم تكن مقابلاته قاصرة على الوجهاء ، بل كان يأتيه أيضا أفراد من كافة الطبقات لمصالح مختلفة ، وكان الخادم يعرف ذلك جيدا ولديه أوامر بأن لا يتشدد مع الزائرين ، ومع ذلك فإنه فى هذه الحالة بالذات لم يجرؤ أن يتحمل المسئولية ورأى أن خير حل هو أن يستعين بالسكرتير .

وأخيرا سأل الأمير وكأنه يوجه سؤاله مكررا : « أحقا انك ... أتيت من الخارج ؟ » ولقد أعوزته الشجاعة فلم يستطع أن يوجه السؤال الحقيقى ، وهو . « أحقا أنك الأمير مونتشكين ؟ » وأجاب الأمير : « نعم ، إننى قادم من المحطة مباشرة ولقد أردت فيما أعتقد أن تسألنى هل أنا حقيقة الأمير مونتشكين ، ولكن اللياقة منعتك من توجيه هذا السؤال » . « هه ! ... » هكذا تمتم الخادم مدهوشا .

— أؤكد لك أننى لا أكذبك ، وأنك لن تتحمل بسببى أية مسئولية . وإذا كنت ترانى فى هذا الزى حاملا هذه الحقيبة الصغيرة فليس ذلك ما يدعو إلى الدهشة . فحالتى الآن ليست على ما يرام .

— هـه ؟ ... فى الحقيقـة ليس هـذا ما يخيفنى . إننى هنـا لكى أعلن الزائرين . وبعد هنيهة سيخرج السكرتير . وإذا كنت ... هـل لى أن أعرف أنك لم تأت إلى الجنرال كرجل محتـاج لتطلب مساعدة ؟

— آه ! لا . من هـذه الناحية كن مطمئنا كل الاطمئنان . إننى لم آت من أجل هـذا .

— معذرة . لقـد خطرت لى هـذه الفكرة وأنا أتأمل ملابسك . انتظر السكرتير . فالجنرال مشغول الآن مع أحـد الضباط ، ولكنك سترى السكرتير قادما .. سكرتير الشركة .

— إذا كنت سأنتظر زمنـا طويلا ، فإنى أسألك أن تسـمح لى بالتدخين فى جهة ما ، فلدى البيبـة والدخان .

فصاح الخادم فى استنكار وهو لا يصدق أذنيه : بالتدخين ! ؟ .. بالتدخين ! ؟ .. أبدا . إنك لا تستطيع أن تدخن هنـا ، بل وما كان يجوز أن يخطر هـذا ببـالك . آه ! هـذا شىء عجيب !

— أوه ! إننى لم أقصـد التدخين فى هـذه الغرفة ، فأنا أعلم جيـدا أنه غير مسموح به ، وإنمـا أردت أن أرجوك لتـدلنى على مكان أشعل فيـه بيبتى . وذلك لأننى معتـاد التدخين ، وها قـد مضت على ثلاث ساعات دون أن أدخن . ومع ذلك فليكن ما تريد . وأنت تعلم أن هنـاك مثلا يقول : فى الدير الأجنبى ..

وغمغم الخادم مكررا : « ولكن كيف أعلن قدومك وأنت فى هـذه الحالة ؟ مكانك كزائر ليس هنـا ، بل فى الصالون وبيقائك فى الغرفة ستعرضنى للتقريع » ، ثـم أضاف ، وهو يلقى بنظرة جانبية إلى الحقيبـة الصغيرة التى كانت لا تزال بيـد الأمير ، وقـد شـغلت الخادم طول الوقت ... ولكنك تنوى أن تقيم عنـدنا أليس كذلك ؟

— لا . هـذا لم يخطر ببـالى . وحتى لو اقترحوا على ذلك

فلن أقبل ابقـاء • وغايتى الوحيدة من هـذه الزيارة هى أن أتعرف إلى أصحاب المنزل • ولا شىء أكثر من ذلك •

ولاح هـذا الجواب للخادم الظنين داعيـا إلى الريبـة فصـاح مندهشا : « إيه !! أن تتعرف إليهم ؟ ! ولكنك ابتدأت بأن أخبرتنى أنك أتيت لمسألة ما » •

ـ ربما أكون قـد بالغت عندما تحدثت عن « مسألة » • ومع ذلك فليكن مجيئى إلى هنـا ، إذا أردت ، لمسـألة ، بمعنى أننى أريد أن آخـذ نصيحة • وإن كنت أود قبل كل شىء أن أتقدم إلى الجنرال ايبنتشين ، وذلك لأن زوجتـه من أسرة مونتشـكين ، أسرتى • وهى وانا آخر عضوين فيهـا •

ولقـد بالغت الكلمات الأخيرة من قلق الخـادم فصاح ذاهلا : « وإذن فأنت من الأقرباء ايضا !! » •

ـ تقريبـا • لا شك ان هـذه القرابة قائمة ، ولكنهـا بعيـدة إلى حـد ان تستطيع اعتبارها منعـدمة • وعنـدما كنت فى الخارج كتبت مرة إلى زوجـة الجنرال ، ولـكنها لم ترد • ومع ذلك فقـد رأيت عنـد عودتى أن من الواجب تذكيرها بى • ولقـد اسـتطردت إلى كل هـذه التفاصيل لكى أبدد شكوكك ، وذلك لأننى أراك دائم القلق • أظن قـدوم الأمير مونتشكين وبمجرد أن يسمعوا إسـمى سـيعرفون سبب زيارتى • وعنـدئذ سيستقبلوننى أو يرفضـون استقبالى • فإن فعـلوا كان خيرا وإن رفضـوا ربمـا كان أخير • وإن كنت أعتقـد أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ، فالسيدة لا شك تود أن ترى المثل الوحيـد الباقى من أسرتهـا • وأنا أعلم أنهـا تعتز بأصلهـا اعتزازا كبيرا •

وكان الأمير كلما ازداد تبسطا فى حديثـه واسترسالا بريئا ازداد إساءة إلى نفسـه فى نظر الخادم • فهـذا الحديث الذى لا غبـار عليـه إذا جرى بين أناس من طبقـة اجتماعيـة واحـدة ، لم يكن

الخـــادم ليستطيع أن يفهم إلا أنه ناب عن موضعه نبوا شـــديدا عنـــدما يدور بين زائر وخادم • ولمـــا كان الخدم أقل غباوة ممـــا يظن أسيادهم عادة ، فإن خادمنا قـــد افترض أحـــد أمرين : إما أن يكون الأمير شحاذا أتى يستجدى الجنرال صدقـــة ، وإما أن يكون بكل بساطة رجلا مخبولا • وذلك لأن أميرا « نبيهـــا » لا يمكن أن يبقى فى هـــذه الغرفة الجانبيـــة ولا أن يقص أموره على خـــادم • وفى كلتا الحالتين هل كان يستطيع أن يعلن قدوم شخص كهذا ؟ » •

وأنا أعفى القـــارىء من بقيـــة الحوار وأطمئنـــه إلى أن الأمير مونتشكين قـــد انتهى بالدخـــول والتعرف إلى الجنرال وزوجتـــه وأبنائهمـــا ، بل كانت له حادثة غرام مع إحـــدى بنـــات الجنرال ، والسكرتير طبعـــا هو الذى أدخله •

والآن ماذا يرى القـــارىء ؟ أهو عبيط حقـــا ؟ ولك أن تراجع كل أقواله فلن ترى فيهـــا غير الصـــدق • قـــد تقول : ولكن الرجل عبيط عبيط ما فى ذلك ريب • فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقـــدر نفسية من يخاطبـــه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحـــة متصاعدة ، وهو أخيرا لا يعرف أن ما كل حق يقـــال ، وإذا قيـــل فمـــا ينبغى أن يقال لكل إنسان وما إلى ذلك من حكمنـــا الثمينـــة ! قـــد تقول هـــذا وخيرا من كل هـــذا • وأما أنا فأعتقـــد أن عقولنا نحن هى الفاسدة وأن حياتنـــا الاجتماعيـــة قـــد خربت نفوسنا • لقـــد كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيـــد وأرواح سادة • وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنـــا كلهـــا نفـــاقا متصـــلا واتخذت من هـــذا النفـــاق قانونا صارما يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى ، فأصبحنـــا جميعـــا نتبـــاءل عن سر عبط هـــذا الأمير العجيب ، بدلا من أن نتساءل عن سر فسادنا نحن خـــدما وسادة •

(٣)

العبيط والاعـدام

من المعـلوم أن ديستوفسكى خالق « العبيط » قـد حكم عليـه بالإعـدام هو وعشرة من رفاقـه الذين كانوا يميلون إلى الحـرية المدنيـة والعدل الاجتماعى فى عهـد القيصر نيقولا الأول • وبينما هم فى السجن أيقظهم الحراس فى الصباح المبـكر وقادتهم العربات إلى حيث لا يعلمون ، وإذا بهم فى ساحة الإعـدام حيث يتلى عليهم الحكم • ويشد ثلاثة منهم إلى أعمدة الموت معصوبى الأعين وفصائل الجنـد من أمامهم لإطـلاق الرصاص وديستوفسكى ذاهـل ينتظر دوره • ومرت بالرجل دقائق ستقرأ أصداءها عما قريب • وفى اللحظة الأخيرة لم تطلق النيران إذ عفـا القيصر عن المتهمين واستبدل بالحكم السجن أربعـة أعوام فى سيبيريا ثم النفى أعواما أخرى بنفس تلك البلاد السحيقة المهلكة •

وإذا ذكرنا طبيعة ديستوفسكى المريضة وشدة إحساسه استطعنا أن ندرك كيف أن هـذه المحنـة الخاطفـة قـد تركت فى نفسـه أعمق الاثار • ولقـد خلفت بها مثل وقع السيف المسموم ما إن تتكاءه حتى ينزف •

ومن عجب أن يجـرى الكاتب على لسان العبيط أنفـذ ما أوحت إليـه تلك اللحظات من إحساس • ولكن ألم نقل من قبل إن الأمير موتشكين لم يكن من العبط بحيث نظن ؟ لا • موتشكين ليس بعبيط • ولديستوفسكى أن يسخر من العقول كما يشاء • استمع إلى عبيطنـا يحلل ما فى الحكم بالإعـدام من فظاعة « تصور مثلا رجلا يعذب ، جسـمه منطى بالجراح • إن الألم الجسمى لن يلبث ان يذهله عن الألم النفسى حتى إن جراحه لتصبح إلى ان يموت عذابه الوحيد • ولكن أقسى انواع العـذاب وأعظمها ليس ما تولده الجراح وإنمـا هو اليقين من انك بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة

ثم بعد برهة واحدة ستطير روحك من جسدك وانك لن تعود إنسانا وأن كل هذا شيء مؤكد • هذا اليقين هو أشنع العذاب •• ليس هناك اى تناسب بين الإعدام وبين القتل الذى تكفر عنه تلك العقوبة • فأحدهما أفظع من الآخر فظاعة لا نهاية لها • فالرجل الذى يذبحه اللصوص أو يخنقونه بالليل ، فى غابة ، أو على أى نحو كان ، يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بالأمل فى أن ينجو بالحياة • ولقد رأينا أناسا ، بنحورهم السكين ، ومع ذلك يأملون ويعدون ويتضرعون • وأما هنا فهذه البقية من الأمل التى تلطف من الموت عشرات المرات ، تراهم يحرمونك منها حرمانا تاما • هناك حكم ، واليقين من أنك لن تفلت هو فى ذاته العذاب الذى ليس فى العالم ما هو أفظع منه • ضع جنديا أمام فوهة مدفع فى معركة وأطلق المدفع تر أنه لا يزال يأمل ، ولكن اقرأ على نفس الجندى الحكم عليه بالإعدام تراه إما أن يصيبه الجنون وإما أن يأخذ فى البكاء • من قال إن الطبيعة البشرية تحتمل هذا دون أن تضر فى الجنون ؟ لم هذه القسوة التى لا فائدة فيها ؟ ربما كان هناك إنسان قرىء عليه الحكم بإعدامه ثم ترك برهة فريسة للرعب ليقال له بعد ذلك : إذهب ! فقد عفى عنك • آه ! هذا الرجل يستطيع أن يقص أحاسيسه • لقد تحدث المسيح نفسه عن هذا العذاب الأليم • لا • إنه لا يجوز أن نسمح بأن يؤخذ كائن بشرى بعذاب كهذا ! » •

يحدثنا السبيط عن رجل مرت به تلك المحنة فاستطاع أن يقص أحاسيسه • ولكن ديستوفسكى كان أبعد خيالا وأغنى نفسا من أن يقف عندما ابتلى به • لقد عاد فى موضع آخر فحدثنا بلسان السبيط أيضا عن تنفيذ الحكم بالإعدام فعلا وسار به إلى آخر مراحله على نحو لا نظن أن أحدا قد داناه فيه •

« كان السجين يقدر أن الإجراءات العادية ستراعى ، ولذلك اعتقد أن أمامه على الأقل ثمانية أيام • ولكن لأمر ما اختصرت

المـدة • فى الساعة الخامسة صباحا كان نائمـا وكنـا فى أواخـر أكتوبر ، ولذلك فقـد كان الجو فى تلك الساعة لا يزال باردا والنهار لم يشرق بعـد • دخل مدير السجن ومعه أحـد الحراس ، فى غير جلبـة ، ووضع يده على كتف السجين فنهض جالسا ، وسأل وقـد رأى الضوء : ماذا حـدث ؟

— اليوم بين التاسعة والعـاشرة ستنفذ العقوبة •

ولم يستطع السجين الذى كان النوم لا يزال بعينيـه أن يصـدق هـذا الخبر ، فقـد كان يزعم أن أمر التنفيـذ لن يصل إلا بعـد ثمانيـة أيام ، ولكنـه عندما كمل صحوه أمسك عن المناقشـة ولزم الصمت • هـذه هى التفاصيل التى ذكروها • ثم قال بعـد ذلك : فليكن ! بغتـة ••• على هـذا النحو ؟ ! إنه لأمر مؤلم ! • ثم لزم الصمت من جـديد ولم يرد أن يفوه بكلمة ، ونحن نطم كيف تمـر الثلاث أو الأربع ساعات التاليات : زيارة القسيس ، الفطور : لحم ونبيـذ وقهوة (آه يا لهـا من سخرية قاسية ! ولكن هؤلاء الناس لا يقصدون إلى شر ، فهم يعتقدون فى سذاجة أنهم بتصرفهم هـذا يأتون عمـلا إنسانيا) ، ثم عطيـة الغسيل والتجميل (وأنت تعلم ما هى هـذه العمليـة بالنسبة للمحكوم عليـه بالإعدام) • وأخيرا يحملونه فى عربة ويقودونه إلى المقصـلة • ولا شـك أنه — فيمـا أعتقـد — كان يتخيل أثنـاء نقـله أنه لا يزال أمامه فى الحيـاة وقت لا نهـاية له « لا تزال أمامى ثلاثة شوارع أعيشها • إنه زمن طويل ! عنـدما أصل إلى نهاية هـذا الشارع ، سيظل أمامى شارع آخـر أتابعـه ، ثـم ثالث حيث يوجد إلى اليمين مخبز — وسيمر وقت اخر قبل ان نصل إلى هـذا المخبز • وحول العربة جمهـور صاخب • عشرة آلاف راس • عشرة آلاف زوج من الأعين ، وعليـه أن يحتمـل كل هـذا ، وبنوع خاص هـذه الفـكرة : ها هم اولاء عشرة آلاف ، ولكنهم لم يعدموا احدا منهم ، بل انا الذى سأموت » • هـذا عن المقـدمات ، سلم يقود إلى المقصلة ، امام هـذا السـلم

أخذ الرجل فى البكاء ، وكان رجلا قويا ذا خلق شديد • قالوا إنه كان مجرما كبيرا ، والقسيس الذى ركب إلى جواره فى العربة لم يتركه برهة واحدة ، وكان يحادثه باستمرار ، ولكنى أظن أن المسكين لم يكن يستمع إليه ، ربما يكون قد حاول أن يصغى ولكنه بعد الكلمة الثالثة لم يعد يفهم شيئا • وفى النهاية أخذ يصعد السلم والقيود التى تغل قدميه تضطره أن يخطو خطوات صغيرة ، وأمسك القسيس — الذى كان بلا ريب رجلا ذكيا — عن عظاته مكتفيا بأن يقدم إليه باستمرار الصليب ليقبله •

لقد كان المجرم شاحبا عند أسفل السلم ، وأما الآن وقد وصل إلى المقصلة فإن وجهه صار أبيض كالصحيفة ، لا شك أن أرجله أخذت تتداعى تحته وأن قلبه أخذ فى الخفيان • وكأن شيئا قد خنقه فانتشر فى جسمه إحساس بالخدر • هذه ظاهرة يولدها الرعب فى تلك اللحظات المروعة التى يظل فيها العقل كاملا ولكنه يفقد كل ما له من سيطرة • إذا كان هلاكك مثلا محققا وكنت فى منزل سينهار فوقك فإنك تشعر فجاة بزغبة لا تقهر فى أن تجلس وتغمض عينيك وتنتظر • ليكن ما يكون ••• ورآه القسيس فى هذه الحالة من الضعف فأدنى من شفتيه — فى صمت وحركة سريعة — الصليب ، صليب لاتينى من الفضة • وكرر ذلك عدة مرات وعندما أحس به الرجل لاح أنه قد عاد إلى نفسه لعدة ثوان ففتح عينيه ومشى • لقد كان يقبل الصليب بنهم وهو فى لهفة قلقة كالمسافر الذى يخشى أن ينسى شيئا سيحتاج إليه فى رحلته وإن يكن من الراجح أن كل عاطفة دينية كانت بعيدة عن ضميره • تلك كانت حاله إلى أن شد على اللوح ••• وإنه لمن الغريب أن الإغماء لا يحدث فى هذه الثوانى الأخيرة إلا نادرا • وعلى العكس من ذلك تحتفظ الرأس بحياة غزيرة وتعمل بلا ريب بقوة كبيرة وكأنها آلة تسير • يخيل إلى أن أليوانا من الأفكار تطن يومئذ فى الجمجمة • أشباح من الأفكار قد تكون مضحكة وهى لا شك فى غير موضعها مثل : آه ! هذا المتفرج بجبهته « حسنة » • الجلاد

ببـذلته زرار صـدىء . ومع ذلك تعرف كل شيء وتذكر كل شيء ، وهنـاك مسألة لا يمكن أن ننساها وهي أنك لا تستطيع الإغمـاء . وحول هـذه المسألة يدور كل شيء . ولنتصور أن هـذه الحـالة تستمر حتى آخر ربع ثانية . وعندما تمر الرأس من الطوق وتنتظر وتعلم ، ثم فجـأة تسمع السكين تنزلق فوقهـا ؟؟ ! لا شك أنهـا تسمع . واو أنني كنت شخصيا ممـددا على الخشبة لأرهفت أذني ولسمعت الصوت ! وهو ربما لا يصدر إلا لعشر من البرهة ولكننـا لا يمكن ألا نسـمعه . ولنتصوروا أننـا لا نزال إلى اليوم نود أن نعرف : هـل الرأس لا تدرك — في الثانيـة الأولى بعد قطعهـا — أنهـا قـد انفصلت عن الجسم ؟ » .

لست أدري أصـدق العبيط في قصصـه أم لم يصـدق ، فنحن لا نعلم — كما قال شكسبير — أن ميتـا قـد عاد ليخبرنا بما رأى ، ولا أن محكوما عليـه بالإعدام قـد وصف لحظاته الأخيرة ، بمـا في ذلك برهـة قطع الرأس والثانيـة التي تليهـا ، ولكني أستطيع أن أتخيل أوضـح التخيل ما يحدثني بـه هـذا الرجل العجيب . تأمل قليـلا تلك الرأس التي تحتفظ بحيـاة غزيرة ومع ذلك لا تفكر إلا في « حسنة » بجبهة متفرج ، أو زرار ببذلة الجلاد . أو ما تحس أنهـا قـد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيهـا إلا ما يخلف هـذا الجهـد من حرارة تشـبه الحيـاة وهي بحمى اليأس أشـبه . إن في تفـاهة ما يدور بهـا لوحيا برعب الخيال . ثم أي مهارة في فن هـذا العبيط ، كم من تفاصيل صغيرة تغزو النفس في تدرج ماكر ، وكم من حيل يصطنعها ليبلغ منـا ما يريد . وحيـله بعد من صميم حياتنـا القريبـة . لهفتـه في تقبيل الصليب هي لهفتنـا جميعـا عنـدما نخشى أن ننسى شيئا سنحتاج إليـه في سـفر ، وشعوره شعور رجل حم به القضاء وأخـذ البيت ينهـار فوقه فلم يستطع إلا أن يجلس ويغمض عينيـه وينتظر إرادة اللـه . ثم صوت السكين . بأي حـرص يريد الكاتب أن نقف عنـد هـذه البرهة

أو عشر البرهة لنحققها بخيالنا • لقد خشى أن نمر بها سراعا ، فأوقفنا لنناقشها • هل سيسمع انزلاقها ، وهل المسكين سيصغى لصوتها • وبأى دهاء وضع الكاتب نفسه فى هذا الموضع ليخبرنا أنه لا بد منصت عندئذ لذلك الصوت المروع ولا بد مدركه • وما فعله الكاتب هناك أمل ضمنى فى أن يفعله غيره • وهذه هى سذاجة أهل الفن الماكرة الساحرة • وأخيرا هل أنا بحاجة إلى أن أدل القارىء على ما فى السؤال الأخير (إدراك الرأس فى الثانية التى تلى قطعها أنها انفصلت عن الجسم) من رهبة تقشعر لها الجلود •

وبعد فقد اقتتل علماء القانون حول عقوبة الإعدام ، وكتبوا فى ذلك المجلدات الضخام ، فمنهم المؤيد ، ومنهم المناهض ، ولكنى لا أذكر أن أحدا منهم قد فطن إلى معنى العدالة النفسية التى صورها ديستوفسكى هذا التصوير الرائع • إن فى تحليله لعدم التناسب بين القتل والإعدام لحقا لا يدفع ، فهذا اليقين الذى يلقى الموت بالنفس وهى حية عذاب لا مثيل لفظاعته • ثم تلك اللهفة الحائرة التى أخذ عليها اليأس كل مسلك ، فتراها تعد ما بقى لها فى الحياة بالشوارع التى ستعبرها ، ومع ذلك يستقر فى ضميرها يقين بالفناء ، أو ما ترى فيها أشنع العذاب ؟ ! وإذا صدق ما يقول هذا الكاتب العظيم أو ما يكون من العدل أن نقدر هذه العقوبة بوقعها النفسى وتكافؤ هذا الواقع ما ارتكب من جرم ، وألا نكتفى فى مناقشتها بما نتوقع من صونها لحياة الجماعة ؟

(٤)

العبيط والنســـاء

رأينـــا العبيط فى عـــدة مواقف : رأينـــاه مع مارى والأطفـــال ، ورأينـــاه مع خادم وسط الحياة الاجتماعية ، واستمعنا إليه يتحدث عن عقوبة الإعـــدام ويصف تنفيـــذ تلك العقوبة الشنيعة ، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك أنه كان رجلا عاطفيـــا تقوده مشاعره أكثر ممـــا يقوده عقله ، فهو يحنو على مارى ويصادق الأطفال لا حرصا على مبـــادىء أخلاق يؤمن بهـــا بل مجـــاراة لدافع قلبى ، ودوافع القلب قل أن تتفق مع مواضعات الحيـــاة الاجتماعيـــة • وهو رجل ذو فلسفة خاصة فى الحيـــاة ، فلسفة شعورية أيضا لأنهـــا لا تتلقى شيئا من الخارج ومن ثم لا تنصت إلى عرف ولا تفطن إلى لبـــاقة ، ولهـــذا نراه لا يرى عيبـــا فى أن يجالس الخادم وأن يعترف إليـــه بأموره الخاصه إيمانا منـــه بأن الناس سواء وأنه لن يضيره فى شىء أن يقص على ذلك الخـــادم ما يريد • وهو لا يعتقـــد أن هنـــاك ما يستحق الكتمان ولا يقيس الأمور بنتائجهـــا الخارجية ولا يدرك النفس البشرية كما صاغتهـــا أوضاع الحيـــاة بل يراها دائمـــا فى طبيعتها الفطرية ، حتى لنحسبه عاجزا عن أن يقدر ما قد يصيبه من ضرر عندما يأخـــذ النـــاس بهـــذا النوع من المعاملة ، وإن كان من الذكاء بحيث يدرك الحقيقـــة النفسية لمن يخاطبه ويفض غلافها دون أن يأبه لهـــذه الحقيقة أو يقيم وزنا لمـــا قـــد يصدر عنهـــا من نتـــائج ضارة به ، وهو أخيرا حار الخيال واسعه حتى لنراه يتصور من التفاصيل المروعة ما نعجب كيف يخطر لخيال بشرى ، وفى وصفه للإعـــدام وإبرازه لهواجس من نفـــذ فيـــه ذلك الحكم من الدقـــة والاستقصاء ما يشهد بأنه قـــد بلغ من الحساسية حـــدا يقرب من المرض •

كل هـذه مواقف تساعدنا على تخطيط صورة العبيط كما تصوره صورة ديستوفسكى ، ولكن الصورة لا يمكن أن تكمـل ما لم نعرض لعلاقته بالنساء ، وموقفه منهن ، فذلك محك عظيم الخطر فى حيـاه الرجـال .

ولقـد أحب العبيط فتاتين ، أحبهما معـا ، وكان حبـه عفيفـا متقدا ، أشبه ما يكون بحب الفروسية ، ولقـد لعبت طبيعة الفتاتين فى هـذا الحب الدور الحاسم ، كانت إحداهما : نستازيا امرأة عنيفه عنيـدة مجروحة الكبرياء ثائرة على أخلاق الرجال ، وكانت الأخرى أجلابيه بنت الجنرال ابنتشين فتـاة مترفعة فى غطرسة ، شـديدة الثقة بنفسها واحتقار من عـداها .

ولقـد بلغ من سذاجة هـذا العبيط أن ظن أن فى استطاعته ان يوفق بين الفتاتين وأن يحمل كلا منهما على محبة الأخرى أو مصافاتها على الأقل . ولقـد جرى بينـه وبين إحدى الشخصيات الثـانويه فى الرواية حوار يكشف عن تفكيره أوضح الكشف :

سأله محدثه وقـد هم بالزواج من نستازيا : تريد أن تتزوج من نستـازيا مع أنـك تؤكد لأجلابيـه أنك تحبهـا ؟ — آه ! نعـم نعم أحبهـا — آه ، إذن انت تحب الاثنتين معا ؟ — نعم أحبهما — يا لله ! فكر قليلا أيها الأمير ، فكر فيما تقول — آه بدون أجلابيه ، إننى .. إننى .. سأموت نائما ! لقـد خيل إلى وأنا نائم فى الليلـه الماضية أننى أحتضر . آه ، ليت أجلابيـه تعـلم كل شىء . آه لو علمت .. يجب أن تعلم كل شىء هـذا هو المهم . ولمـاذا لا نعلم كل شىء عن الغير عنـدما يكون ذلك الغير جانيـا ، هنـا شىء لا أستطيع تفسيره . إننى لا أجـد اللفظ المعبر .. ولكن أجلابيـه ستفهمنى ، آه ! لقـد آمنت دائمـا بأن أجلابيـه ستفهمنى ! — أيهـا الأمير إنهـا لن تفهم شيئا . لقد أحبتك أجلابيه كما تحب المرأة الرجل لا الفكرة المجردة ، أو ما تظن أيهـا الأمير المسكين أنك على الأرجح لا تحب هـذه ولا تلك ؟

لقد كانت نستازيا يتيمة تلقاها أحد الأثرياء ، وهى فى الخامسة من عمرها ونشأها بضياعه حتى إذا بلغت الثانية عشرة وبدت عليها ملامح الخفة والذكاء والجمال تعهد الرجل تربيتها بدور العلم ، وبعد أن أتمت دراستها اتخذ منها عشيقة له ، ولكن العشق لم يدم طويلا إذ فكر فى الزواج من غيرها ، وعندئذ أظهرت الفتاة من الحزم وقوة العزم ما حير العقول ، إذ أتت إلى بطرسبرج حيث أخبرت عشيقها أنها تمانع فى زواجه وإن لم تشعر نحوه بغير التقزز والاحتقار . ولم ير العشيق مخرجا غير أن يحتال فيزوجها من سكرتير صديقه الجنرال إيفانتشين ، ونستازيا تسخر من محاولته ، وهى موضع رغبة الكثيرين من الأثرياء ، حتى لقد أتاها ليله أحد هؤلاء المترفين العربيدين حاملا آلاف الجنيهات ، وكان العبيط حاضرا ، وعرض العربيد ماله ولكن العبيط حرص أن يتلف عليه أمره فعرض على نستازيا الزواج منه . ولكن نستازيا أخذت المال وألقت به إلى نار المدفأة والتفتت إلى سكرتير الأمير خطيبها المزعوم ، وقد كان حاضرا هو أيضا ، وطلبت إليه أن يستنقذ المال من النار ، وهو لا ريب لم يدفعه إليها غير ما وعد به مربيها وعشيقها من ثراء ، ولكن الخطيب يرفض أن يمد يده إلى هذا المال ، وإن انتهى به الأمر ففطن إلى ما فى موقف نستازيا منه من سخرية فعدل عن خطبته . وتطلقت الفتاة بالعبيط لسذاجته وشذوذ أطواره ، تلك السذاجة وذلك الشذوذ اللذين لا يخلوان من شهامة حقيقية ، وكان شعورها نحوه مركبا عجيبا من دوافع القلب وغرائز الحياة . لقد وجدت فيه شيئا جديدا فى الوسط الذى تعيش بينه — تصرفاته تلقائية ، وحركات نفسه لا يدخلها تقدير ولا حساب ، وفى سذاجته من السحر ما يغرى نفسا يقظة كثيرة الخبايا كنفسها المرة العميقة ، لقد كان بينهما من التجاذب مثل ما بين الضياء والظلمة .

وأما أجلايه بنت الجنرال فقد تغير موقفها منه ، فبعد أن كانت لا تستمع إليه إلا ساخرة متعالية ، لم تلبث صراحته وبساطه

نفسه أن حطمت فى نفسها الكبرياء ، فإذا بها تتعلق به وترى سعادتها فى أن تقوم على رعايته . ولعلها وجدت فى تلك الرعاية ما يشبع الكبرياء القديم . وهذه حقيقة قد تفسرها غريزة الأمومة فى النساء من جهة ، ونزعة الكبرياء من جهة أخرى . وبقدر مافى نفس تلك الفتاة من تعال كان ألمها من أن تتنافسها نستازيا . واكتوى موتشكين بنار الاثنتين يعذبنه مر العذاب ، وهو المؤمن بأنه لا محل لهذه العداوة . وكان يوم التقت فيه الفتاتان بحضوره ، وإذا بالبغض الذى طال كبتهما له ينفجر . وأخذ الرجل ما يشبه الذهول ، فضرع إلى إجلابيه أن تصافى نستازيا : « هذا لا يمكن .. أو لاترين إلى أى حد بلغ بها الشقاء ؟ » ولكنه لم يكد يلفظ تلك الكلمات حتى أنزمته الصمت نظرات اجلابيه المروعة . لقد رأى فى عينيها ألما وبغضا لا حد لهما ، وكان الوقت قد فات ، فأجلابيه لم تحتمل برهة التردد التى مرت به فصاحت صيحة غيظ ثم اتجهت إلى الباب مسرعة .

وعدا العبيط من خلفها ، ولكن نستازيا أمسكته محدقة فيه بوجهها المقطب الشاحب وانفجرت شفتاها الزرقاوان بقولها « أتريد إذن أن تتبعها » ثم سقطت بين ذراعيه مغشيا عليها . فحملها إلى غرفتها ووضعها فى مقعد ووقف أمامها كالمتحجر . وخف أحد من فى البيت يبلل وجهها بالماء . وبعد هنيهه فتحت عينيها ولكنها لم تدرك شيئا إلى أن أفاقت ، فنظرت حولها ثم أرسلت صرخة وعدت نحو موتشكين وهى تصيح : « أنت لى ! أنت لى ! لقد ولت تلك الفتاة المتكبرة ، ها ها ها . عجبا أنا التى كنت سأتركك لها ، لماذا ؟ لأى سبب ؟ إننى مجنونة . مجنونة » ولكى تنتقم نستازيا من منافستها استبقت الأمير بمنزلها واعتزمت الزواج منه ، ولكنها فى يوم الزواج هربت مع ذلك الثرى الذى أحرقت ماله . وتنتهى المأساة بما يفزع ، فقد قتل ثرينا الفتاة ، واستفحل بموتشكين مرضه فأصيب بالعبط المسرف . ولقد كان فى المنظر الأخير من هذه المأساة ما يرعب الخيال ويلازمه فقد أمضى العبيط ومنافسه الثرى الليل قائمين على جثة القتيلة

مضرجة بالدماء ، وكان بينهما حوار شاق طويل اجتمع فيه الحب إلى البغض فى مزيج مركب من الشعور الانسانى الذى لن نسير غوره .

هذا هو موقف العبيط من الفتاتين . وموضع النظر هو إيمانه إيمانا ساذجا مؤثرا بأنه يستطيع أن يحب الفتاتين وأن يحملهما على التصاق إن لم يستطيع حملهما على المحبة ، وفى هذا الايمان ما يماشى فلسفته العامة التى تسلم بأن ما تستشعره النفس يجب أن يكون حقيقة واقعه وأن يقبله الجميع ما دام صادقا تلقائيا . وهو لايدرك ما فى نفوس الغير من صعوبات يجب أن يحسب لها حسابها . ولعله كان أصدق حسا من الفتاتين ، فأجلابيه لم يحتمل كبرياؤها ما لمحته من تردده بينها وبين منافستها فضحت بالحب فى سبيل الكبرياء . ونستازيا نفس غامضة لم تثبث بعد أن تحقق لها النصر ووجدت الرضى — إذ هزمت بنت الجنرال — أن عادت إلى صوحها فهربت فى يوم الزواج ، ونحن فى الحق لا نستطيع إلا أن نفضل الشعور المباشر على الشعور الملتوى . لقد أحب العبيط الفتاتين لنفسهما ، وإذا كانت مشاعر أخرى قد اختلطت بذلك الحب ومهدت له فهى أقرب للإيثار والشهامة منها للأثرة المتنكرة . فنستازيا كان يريد ان يستخلصها من مخالب السوء ، وأجلابيه كان فيها من توثب الذكاء ، وقوة الشخصية وجمال الروح ما يغرى بالحب . ومن هنا ترانا نتساءل كما تساءلنا من قبل : أحقا كان موتشكين من الغفلة بحيث يستحق أن يوصف بالعبط أم هى الحياة الاجتماعية لم تكتف بأن أفسدت بمواضعاتها معاملاتنا الخارجية بل امتدت إلى داخل النفوس حيث ألبسوا مشاعرنا الطبيعية أثوابا من التنكر لا تلبث أن تتبدد فتكون خيبة الآمال .

ترتران الترسكونى !

لا نظن أن اسم (ترتران) مجهول من أحد المثقفين وذلك للنجاح المنقطع النظير الذى لاقته شخصيته منذ أن خلقها الكاتب الفرنسى الشهير « الفونس دوديه » فى أواخر القرن التاسع عشر وجعل منها محورا لقصص ثلاث هى (ترتران الترسكونى) و (ترتران فى جبال الالب) و « عيناء ترسكون » فخلق منه أنموذجا حيا لذلك النوع من الناس الذين لايعرفون غير الثرثرة والزهو وادعاء البطولة والبأس والقدرة على عظائم الأمور بينما هم قوم مساكين يسخر منهم الناس ويستخفون بأحلامهم كما يستخفون ويسخرون ممن نسميهم فى لغتنا المصرية العامية المعبرة (الفشارين) أو (النتاشين) .

لقد أراد «الفونس دوديه» أن يصور فى شخصية ترتران جانبا من أخلاق سكان جنوب فرنسا وعلى وجه التحديد سكان مقاطعه « البروفانس » التى تقع غرب الجزء الجنوبى من نهر « الرون » ولذلك اختار بطله من مدينة « ترسكون » الواقعة فى تلك المقاطعة ، ومن هنا أتى اسم « ترتران الترسكونى » .

ولقد أغضب بذلك « الفونس دوديه » أهل هذه المقاطعة كلها وهم أهله وعشيرته ، ولكنه حاول الاعتذار بقوله إن أخلاق ترتران لاتنفى ما يتمتع به أهل البروفانس من خصائص روحية وشعرية .

وفى الحق أن « ترتران » لفهقهه فى فم الزمن ، وقصته إن هى إلا قصة فشار يعتقد أنه من قتلة الأسود فيبحر ذات صباح إلى الجزائر بشمال إفريقيا ليصطاد عددا منها ثم يعود فخورا مزهوا مع أنه لا يحمل غير جلد أسد واحد أعمى أصيب بكساح من النقرس ومات فى إحدى الحظائر ! ولقد أغراه هذا الانتصار المضحك بأن يرحل مرة أخرى لينافس السويسريين فى تسلق الجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج فكانت له مغامرات تضحك الثكلى فوق « اليونج فراو » و « الجبل الأبيض » . وقد أودع دوديه هذه المغامرة قصته « ترتران فى جبال الألب » . وعاد ترتران من جبال

الألب ولكنه لم يمكث طويلا ببلدته حتى وقع فريسة لرجل واسع القدرة فى النصب والاحتيال فأوهمه بوجود جزيرة غنية بثرواتها فى « البولينيزيا » ودعاه إلى أن يصطحب معه جميع سكان تراسكون ليحتلوا تلك الجزيرة • وأودع (دوديه) قصة هذه المغامرة المحزنة روايته الثالثة المسماه (ميناء تراسكون) • وبانتهاء هذه المغامره تنتهى حياة ترتران بعد أن خلدت صورته فى خيال البشر إلى يومنا هذا ••

لقد صور المولف بطله منذ البدء على نحو ينطق بخصائصه النفسية • وما نكاد ندخل بيته ، وبخاصة حجرة جلوسه — حتى نرى العجب ، نرى الجدران مغطاة بأسلحة من كافة بلاد العالم ولكنها رتبت ونظفت على أكمل نحو ووضع على كل نوع منها اسمه ومصدره حتى لكأننا فى صالة عرض لا فى حجرة بطل مغوار وصائد متمهك فى الصيد • وبالرغم من أن هذه الحجرة كانت لـ (ترتران) فإنه قد احتاط للأمر وحرص على أن يدرأ عن نفسه (الجسوره) كل خطر ، فألصق ببعض تلك الأسلحة تعليمات هامة مثل (احذر اللمس !! سهام مسمومة) أو « بنادق معبأة ••• ابتعد عنها » وفى وسط هذه الحجرة كنت ترى كافة معدات الراحة ، بل الرخاوة التى لا يدرى أحد كيف تتفق مع بطولة « ترتران » المزعومة ، وخشونته المدعاة ، وتعلقه بشظف الفتك والقتل والصيد واقتناص الأسود • على أنه لا غرابة فى شىء من كل هذا فقد جمع ترتران بين تكلما الشخصيتين الخالدتين اللتين صورهما « سيرفانتيس » وهما شخصية « دون كيشوت » وشخصيه تابعه (سانكوبانزا) ففيه من (دون كيشوت) نزعة البطولة الوهميه وفيه من (سانكوبانزا) جنوحه إلى السلامة وإيثاره الدعة حتى ليجرى فى نفسه الدفينة حوار بين الشخصيتين فتدفعه إحداهما إلى أن يغطى نفسه بالمجد بينما تدفعه الأخرى إلى أن يغطيها بالصوف للتماسا للدفء !

ومع ذلك فقد انتصرت شخصية « دون كيشوت » على شخصية (سانكوبانزا) فانتصر الزهو والغرور على الدعة وإيثار السلامة .

لقد اتفق لبطلنا الهمام أن أخذته نشوة التهليل وهو عائد من صيد يوم أحد من تلك الأيام الخالدة فوعد بأن يغادر فرنسا كلها إلى الجزائر فى شمال أفريقيا ليصيد الأسود ، وسجل أهل القرية عليه وعده وأخذوا يستنجزونه الوفاء به حتى انتهى بهم الأمر إلى التندر والسخرية ، فجرت الأغانى فى الشوارع وهى تردد « هل سيسافر ترتران أم لا . » ! ولم يجد ترتران مناصا من السفر لأنه فى الواقع كان رجلا مخلصا وإن لم يخل من بله وغفلة ، وقد جسم خياله مغامرات البطولة التى تنتظره حتى لكأن الخيال قد استحال حقيقة ، ولم يعد ترتران نفسه غير حلم يدب فى الحياة — حلم رائع مشرق . وحدثته تلك الأحلام بأن الجزائر فى أفريقيا وأفريقيا موطن الأسود وإذن فلن يكون عليه إلا أن يتربص لتلك الأسود بمدخل مدينة الجزائر نفسها .. ولقد كان له ما أراد فسافر وتربص لها بالفعل وكان على الأسود أن تأتى ! وأنفق ليله فى الانتظار حتى إذا سمع حفيف أوراق أطلق الرصاص وقتل الفريسة ، وإذا بها حمار مسكين كان يستنشق نسيم الليل ويلتمس فى الأرض اليابسة عودا رطبا . وحدث ترتران خياله بأن الحمار أسد ما دام ذكرا لا أنثى وأخذ ينتظر أنثاه بأقدام ثابتة !

ولو أننا تركنا ترتران بالجزائر حيث تنتهى رحلته بجلد الأسد الأعمى الذى مات فى الحظيرة ، لننظر إليه وهو يتسلق جبال الألب لرأيناه يربط نفسه بالحبال .. إلى زميله فى التسلق « بونبار » حتى يعيشا أو يموتا معا ! وقد اتفق لسوء حظ البطلين أن تعلق الحبل الذى يربطهما بصخرة بارزة ، تعلق على أحد جانبيها (ترتران) وعلى الجانب الآخر — بونبار — وأخذ كل منهما يحدث نفسه بقطع الحبل لينجو بحياته حتى

انتهى بهما الأمر إلى قطعه فى وقت واحد ، وإذا بأحدهما يتدحرج فى أرض فرنسا والآخر فى أرض إيطاليا ! وبالرغم من كل هذا لم يكد ترتران ينجو من الهلاك ويعود إلى ترسكون حتى أخذ يقص على أهل بلدته من قصص الخيال كل مثير وكانه يحكى واقعا ويقص حقائق ، وقد استقرت بأعماق نفسه مشاعر تحدثه بصوتها الخفى بأن الكذب لا ضير فيه ما دام لا يلحق أذى بأحد .

وانتهى الأمر بـ « ترتران » بأن وقع فريسة لرجل خطير هو — دوق مون — البلجيكى الذى استطاع ببروده وإيجاز لفظه واتساع حيلته أن يطوى ترتران فى راحة يده وأن يوهمه أنه قد اشترى جزيرة فى البولونيزياوان هذه الجزيرة جنة الله فى أرضه وأن بطلنا المغوار باستطاعته أن يصبح ملكا لها وما عليه إلا أن يحمل إليها أهل ترسكون ليستعمروها ويشيدوا فيها المدن ويؤسسوا امبراطورية . ولقد تم للدوق المحتال ما أراد ، ولكن الترسكونيين لم يكادوا يلقون مرساهم على الجزيرة الموعودة وعلى رأسهم زعيمهم النابه حتى هالهم ما رأوا .. جزيرة جرداء لا يسكنها غير نفر من الوحشين آكلى لحوم البشر .

ولم يشأ ترتران أن يترك اليأس يتطرق إلى نفسه الباسلة فاشترى هو الجزيرة — التى لم يكن — دوق مون — قد اشتراها كما زعم — ببرميل من الروم قدمه إلى ملكها المتوحش ثم احتل الجزيرة ونصب نفسه ملكا وتزوج من بنت الملك المتوحش الشديدة الشبه بالقردة حتى فى اتخاذها أغصان الأشجار مأوى لها ... ولكن ترتران مع ذلك راض مغتبط فها هو ملك وزوج لبنت ملك !

ومع ذلك فان هذا الحلم ذاته لم يلبث أن تبدد فقد ظهر أن الجزيرة ملك للانجليز . واتفق أن مرت بشاطئها طراده انجليزية لمحت علم ترترتران يرفرف فوق دار ملكه فدهمت

الجزيرة ومن فيهـا وقادت الجميع أسرى • وتذكر بطلنـا قصـة نابليون ووقوعه أسيرا بيـد الانجليز وحركت تلك القصـة خيـاله فتصور أنه نابليون واتخـذ له سكرتيرا يملى عليـه ذكرياته كمـا فعل نابليون فى منفـاه وطابت لذلك نفسه •

إلا أن القضـاء القـاسى لم يترك ترتران إلى حلمـه الأخـير وذلك لأن أسطـولا فرنسيـا لاقى الطـرادة الانجليزية وتسلم منهـا بطلنا ومن معه لتتولى فرنسا محاكمتهم على جرمهم • وسرعان ما تنصـل الترسكونيـون من الجريمة واتهمـوا ترتران بالنصب والاحتيـال اللذين وقعـوا فريسـة لهمـا فأودع ترتران سـجن ترسكون نفسها •

بذلك أصـبح ترتران فى حـكم المنتهى ولقـد رمـز « دوديه » لهـذه النهـاية بأن حمله على أن يعبر الرون بعـد أن برىء وأن يغـادر البروفانس — يغـادر بلاد الأحلام — إلى بلاد الواقع • وكان ذلك بمثابة مـوته الأدبى • وفى أرض الواقع أخـذ ترتران يحلل نفسه ، فإذا به لم يعـد ترتران المغامر الحالى بل أصبح رجلا واقعيـا مسـكينا يدرك أنه دون مستوى أحلامه وأضعف عـزما من خيـاله •

ولم يطل بترتران المقـام فى أرض الواقع فقـد عاجله المـوت بمعناه المـادى وشيكا وكان موته فى يوم خسـوف الشمس وكأنه قـد تخير هـذا اليوم ، أو كأن الشمس قد قصدت فى ذلك اليوم إلى الاحتجاب •

الملك لير

لا نظن أن عقلا بشريا قد استطاع أن يشترى الحمق بالألم ، والجنون بالحكمة ، والفتور بالعطف مثلما استطاع « وليم شكسبير » فى مسرحيته الفذة عن الملك لير .

ووليم شكسبير لم يخلق من العدم قصة ذلك الملك البائس الذى جرد نفسه من كل ما يملك بعد أن أثقلته الشيخوخه ليعطيه لبنتين متملقتين منافقتين شريرتين ويحرم البنت الثالثة الوفية المخلصة الحبيبة ، كما لم يخلق من العدم قصة دوق جلوستر الذى استطاع ابنه غير الشرعى أن يسلبه ما يملك وأن يحرم أخاه الشرعى من ذلك الميراث العريض — نعم لم يخلق وليم شكسبير من العدم هاتين القصتين اللتين جمع بينهما على نحو رائع فى مسرحية لير الخالدة .

فقد كانت القصة الأولى من بين الأساطير الشعبية التى تناقلتها الأغانى بل وذكرها المؤرخون عند الحديث عن تاريخ إنجلترا القديم . كما وردت القصة الثانية فى اركاديا « السير فيليب سدنى » حيث طالعها بلا ريب شاعرنا العبقرى .

ثم يخلق إدن وليم شكسبير هاتين القصتين ولكنه خلق ما هو أروع منهما ، ونعنى به تلك الشخصيات الخالدة التى صورها فى مسرحيته وبخاصة شخصية الملك لير بملامحها النفسية وقسماتها الأخلاقية وما تنشره من حكم عميقة تبدو جنونا لانفصام الرابطة بينها ، ولكنها منفردة كنوز من العقل لا يخبو لهما ضوء .

ونحن لا نكاد نلمح الملك لير فى مطلع المسرحية حتى تأخذنا الدهشة من غفلة هذا الرجل المسكين بل وغباوته إذ نراه فريسة لنفق مفضوح وملق ظاهر لا ندرى كيف يقع فى حبائلهما كالطفل الصغير . فابنتاه « جونريل » و « ريجان » لا يكاد يسألهما عن مبلغ حبهما له وتعلقهما به ويستمع إلى جوابهما الواضح الكذب بحكم ما فيه من إسراف مرذول حتى تترنح

أعطافه ويرى فى جـواب ابنتـه الثالثـة « كورديليا » التى أبت أن تجارى أختيهـا فى نفاقهمـا — جفـوة بل عقـوقا • مـع أن « كورديليـا » لم تقـل غير الحق وقـد عقـد الحياء لسانها وحد الاخلاص من لفظها فقـالت أنهـا تحبه كمـا تحب البنت أباها . وعندما تتزوج سيكون لزوجها — بحكم الطبيعة ذاتها — هو الآخـر نصيب من حبها — نعم رأى لير فى هـذه الاجابة جفاء بل عقوقا ، وما نحن بحاجة إلى أن نظهـر ما فى هـذا الرأى من غبـاوة بعـد أن قال شـكسبير نفسـه أن (لـير) قـد كـان من الغفلة بحيث لم يفطن إلى أن عـدم إسراف الاناء فى الرنين ليس معناه الخلو ، أى أن اقتصـاد (كورديليا) فى الألفـاظ وعـدم طنطنتها بحبهـا لأبيهـا لا يفيـد انهـا كانت أقل حبـا له من أختيها بل إن العكس هـو الصحيـح فالقلب المليء لا يسرف فى الرنـين كمـا يسرف القلب الخالى •

ومنـذ تلك اللحظة أخـذنا ننتظـر فى لهفـة ما سـينتهى إليـه مصير هـذا الرجل ذى الغفلة • ولم يطل بنـا الانتظار فان ابنتيه اللتـين ذهبت كـل منهما بنصف ملـكه على أن تستضيفه شهـرا بالتناوب هو وحاشيته المؤلفـة من مائة فارس لم تلبثا أن تنـكرتا له وأذاقتـاه مر الهـوان حتى انتهى به الأمر — بعـد أن أيقن أن كلتيهما فى الشر سـواء — إلى هجرهما معـا والانطلاق وسط الطبيعة التى ثارت بهـا تلك الليلة عواصف قلمـا رؤى لهـا مثيل ومعـه مضحكة الذى يرسل صـوت العقل الهـادىء وسط صخب الزوابـع ، ثـم رجل منقطـع النظـير فى التضحية والوفاء هـو (ايـرل كنت) الـذى تنـكر فى ثـوب خادم لـكى يستطيـع مصاحبة الملك المسكين فى رحلة بلواه •• وآوى الجميـع إلى كوخ يتقون به شر الأعاصير • ولكن كيف السبيل إلى انقاذها وهى تحت جمجمة (لـير) أشـد صخبا منهـا فى فجاج الأرض وبين أدواح الغابات !

هـذه العـواصف الهوجاء التى أحاطت بلير وصحبه لم تـكن فيما يبـدو — غير أصداء لمـا أثرنا إليـه من اضطرابات فى عقل لـير المسكين وكان الغيظ والألم قـد بـددا من عقله ضبابا كثيفا فاخـذ يتشر الحـكم العميقـة غـير مرتبطة فيما بينهـا برباط . ولا مايبسه فى ظاهرها لموقف ، حتى ليخيل للناظر السطحى أنهـا ليست حكما بل هذيان مجنون طارت المحن برشـده .

ورأى الرجـل الوفى (ايرل كنت) أن ينجـو بالملك المسـكين إلى أرض أمينـة فاحتـال حتى نقله إلى ميـنـاء دوفـر ليـكون على مقـربة من فرنسا التى كانت كورديليـا المخلصـة الصـادقة قـد تزوجت من ملـكها . ومن دوفر سافر إيرل كنت إلى فرنسا حيث اخبر كورديليـا بمـا قاسـاه أبوها من محن . واستطاعت هـذه البنت الخيرة أن تقنـع زوجها بأن يسير معهـا جيشا يرد إلى أبيهـا كرامتـه ويثأر بانتيـه الخائنتـين ما تسـتحقانه من عقـاب . ولـكن القضـاء الذى لا يريـد — لحكمة نجهلهـا — أن ينتصر الخير دائمـا على الشر لم يمـكن كورديليا مما أرادت ، فانهـزمت جيوشهـا ووقعت هى نفسها أسيرة . وظلت فى السجن حتى أسلمت روحهـا الطاهرة .

ومـع ذلك فان نفس القضاء العـادل يطلق للبنتين حبل الاثم : فانهما لم تلبثا أن تنكرتا لزوجيهما كمـا تنكرتا من قبـل لأبيهما ، وقـد وقعتـا معـا فريسـة لذلك الشيطان المـارد (ادموند) ابن جلوستر غـير الشرعى الذى أغراهما بحبـه فسقطتا فى غوايته وما أن مات زوج — ريجان — وأرادت هـذه المـرأة الشريرة أن تتزوج من أدموند حتى عصفت الغـيرة بأختهـا — جـونريل — فاغتالتها بالسم ظانة أنهـا ستنفرد بادموند ، ولكن القضاء لم يقف عن ملاحقتها هى الأخرى فقـد اكتشف زوجهـا خيانتهـا وألقى بهـا فى السجن حيث لقيت حتفهـا ، بل لقـد لقى ادموند نفسـه مثـل هـذا المصـير بعـد أن ظن أنه قـد وصـل إلى عـرش انجلترا . وشـاء القضـاء أن يكون هـذا العـرش نصيب دوق

ألبانى زوج جونريل الذى كان أقل الجميع إسرافا فى الاثم واقربهم إلى سلامة الضمير خلال تلك المحنة الطويلة التى قاساها لير — والتى لم يخلصه منها غير الموت الرحيم .

لقد كفر الاثم فى هذه المسرحية الخالدة عن سيئاته . فلقيت جونريل وريجان وادموند حتفهم ، ولم يدهشنا من ذلك شىء فهو من مألوف الامور ، وإنما الذى يدهشنا هو كيف استطاع شكسبير العبقرى أن يحملنا على أن ناسو لالام لير المسكين ومحنته الخاويه بعد أن جابهنا به فى مطلع المسرحية رجلا غافلا أحمق سىء التقدير ضعيف البصر ، وتلك هى المعجزة وإن يكن سرها غير بعيد المنال .

لقد أوضح الناقد النافذ الادراك (هالاك) هذا السر بقوله — إنه وإن تكن أصالة الابتكار من الوضوح فى كافة مسرحيات شكسبير بحيث يبدو تخصيص واحدة منها بالذكر إساءة إلى مسرحياته الأخرى — إلا أننا مع ذلك نستطيع ان نقول إن هذه الأصالة قد بلغت الذروة فى الملك لير . وربما كانت شخصية لير نفسها أروع شخصية عرضت على المسرح . وهى إذا كانت تروق أكبر خيال مغرق فى الرومانتيكية إلا انها قد انتزعت من حقيقة الطبيعة . أنها شخصية رجل عنيد ضعيف محب لنفسه يلوح لنا فى الفصل الأول انه لا يمكن أن تغتفر غفلته ، ومع ذلك فقد استطاعت الآلام أن تصل إلى هذا الغفران ثم يأتى ذلك الجنون الخارق الذى لا يطرأ فجأة كما يحدث فى بعض المسرحيات ، بل تنقطع لدى الرجل خيوط العقل بالتدريج خيطا بعد خيط وسط جنون الغيظ والألم ، وعندئذ نرى قواه العقلية تنطلق — كما يحدث فى الحياة — أشد — ما تكون فصاحة وسط المحن وذكريات الأخطاء السابقة . وللآلام فصاحة يزيدها قوة عدم استحقاقنا لها . وتتدفق تلك الفصاحة فى جمل تحمل كل منهما حكمة خالصة ولكنها فى مجموعها تبدو جنونا لانفصام الروابط بينها — أنها صوت العقل تحت جمجمة لم تعد تعقل .

روبنصون كروزو ...

يقـول المؤرخون أن الكاتب الانجليزى دانيـل فو قـد استقى موضوع قصته الخالدة التى عـرض فيها شخصية روبنصن كروزو من حادثة تاريخيـة وقعت بالفعل ، وهى حادثة البحـار الأيقوسى (سالـكرك) الذى قـاسى الربان (سترلنـج) فى جزيرة جـوان فرنانديز المقفرة المهجورة فى عام ١٧٠٥ حيث عاش البحار المسكين أربعـة أعوام فى عزلة تامة .

وروبنصن يرمز لغـريزة إنسانيـة عميقـة فى الطبيعة البشرية ونعنى بهـا غريزة الرحيل هروبا من الهيئة الاجتماعية .

وروبنصن يعـرض أمام أبصارنا نشأة الحضارة واختراعاتهـا المختلفة ، وصراع الانسـان الخامى الوطيس ضـد قوى الطبيعة وسيطرته عليها خطوة خطوة ثـم الدور الذى تلعبه إرادة القـدر فى حيـاة الفـرد .

ابتـدأ روبنصن مغـامراته الشهـيرة بالهـرب من أهله حيث قام بعـدة رحـلات على ظهـر السفن ، ولاقى فى تلك الرحـلات أهـوالا كثـيرة ولـكنه أصر على عنـاده إلى أن انتهى به الأمـر بالنزول فى البرازيل حيث اشـتغل بالزراعة ، وجمـع ثروة ليست بالقليلة ، ولـكنه بالرغم من ذلك تعـاوده نزعة الرحيـل فيستقل سفينة متجهة إلى غيـانا ، وإذا بالعاصفة تهب فتلقى بالسفينة إلى مصب نهـر الأورنو وتبـدد ركابهـا الذين لم ينـج منهـم غـير روبنصن إذ القته الأمـواج على شـواطىء جـزيرة . وفى هـذه الجـزيرة عاش روبنصن ثمانيـة وعشرين عاما أعاد فيهـا تاريخ الحضارة بمخترعاتها وكفاحهـا ، وانتصاراتها على قـوى الطبيعة ووسائل الحيـاة .

لقـد أحس روبنصن فى اللحظات الأولى بعـد نجاته من الغرق بنشوة الخلاص من الهلاك ولكن هـذه النشوة لم تلبث أن تبددت

وأخذ يتراءى لبصيرته حرج تلك الحالة التى وجد نفسه فيها وحيدا وسط جزيرة لا يسكنها أحد .

ونظر روبنصن فوجد أنه لا يحمل معه غير سكين وغليون وقليل من التبغ ، وتلك معدات لا تغنى ، وانتهى به الأمر إلى تسلق شجرة تمدد فوق أغصانها فى انتظار الموت .

ولكن دانيل فو لم يترك بطله فى مثل هذه الحالة التى لم يكن منها مخرج ، وذلك لأنه أعاد إلى ذاكرته المضناة ، أن السفينة التى تحطمت قد ألقتها الأمواج على الشاطىء وألقت ما بها من أدوات وعدد ومعدات ، وخف روبنصن عند الصباح إلى حطام السفينة وقد أرهف الخوف واللهفة من حواسه فأخذ يتفقد ما على الشاطىء المهجور من عدد وأدوات ويتخير من بينها ما هو أكثر نفعا له وعونا على الخلاص ، وكان فى مقدمة ما حرص عليه الزاد العاجل ثم الآلات الميكانيكية وأخصها صندوق النجار . وكم كان لاذعا أن نراه يتناول فى احتقار ما عثر عليه من نقود ذهبية وفضية ملقاه مع حطام السفينة ! وماذا يفعل بمثل تلك النقود التى كان يحرص عليها بالأمس ، وأصبحت اليوم لا تجدى فتيلا وإنما يجدى التفكير والاختراع والعمل والتنظيم فى مصارعة الطبيعة وتسخيرها لحياته المعلقة بكف القضاء .

وأعمل روبنصن فكره وأخذ يقلب أوجه النظر ليختار محل إقامته ومأواه كأول مرحلة لاستقرار الحياة وسلامتها . وانتهى به الأمر إلى حفر الصخر وإقامة خيمة بداخله ، وأحاط الخيمة بسياج هى قطع الخشب الذى صفه فى ثلاثة صفوف ولم يجعل لهذا السياج بابا حتى لا يقتحمه عليه شىء ولا أحد بل اتخذ لتسلقه سلما صغيرا يدليه ويرفعه بحبل وينقله من واجهة إلى أخرى .

ولم يكد ينقضى عام حتى كان روبنصن قد نظم حياته وأصبح يمتلك كلبا وقطتين ونسخة من الكتاب المقدس واتخذ

من هـذه المجموعة الثلاثيـة رفاقه الدائمـين ، وعاتـاد صـيد العنز ، واصطنع قلمـا ومحبرة لتـدوين خـواطره . وتطـورت خواطره ، فأصبحت يوميـات لم يـدر هـو نفسه ان كان يكتبهـا وقـد انقطعت صلته بالبشر .

يوميـات روبنصن كنز لا يفنى . فقـد قص فيهـا مشاغل يومه وما كان يلاقى من صـعوبات ، ووسائل تغلبـه عليهـا . ومن تلك اليوميات نستطيع أن نستنتج مـدى الجهد الذى بذلته الانسانية الأولى فى اختراع أو صـنع ما يبـدو لنـا الآن تافها من الأشياء التى نستخدمها كل يوم .

وحـدث فى حيـاة روبنصن حادث خطير هـو إصابته فى أحـد الأيام بالحمى وشـعوره بالألم وخـوفه من الموت ، وكانت تلك الحادثة سببا فى استيقاظ روحه النـائمة وكأنما قـدر على البشر أن لا يفـكروا فى مشـاكل الخلق والفنـاء والحيـاة والعـدم ، واللـه والقـدر إلا بحافز من الألم . فمنذ ذلك اليوم أخذ روبنصن يفـكر فى الأرض التى تحـوطه ، بـل وفى نفسـه وسر وجـوده وسرعان ما قاده هـذا التفـكير إلى وجـود اللـه خالق كـل شىء والمسيطر على كل شىء ، وعنـدئذ انبعث إلى نفسـه ذلك السؤال المخيف وهو لمـاذا شاءت إرادة اللـه أن تلقى به فى هـذه الجزيره الموحشة وأى ذنب جنـاه ليتحمل مشقات هـذه الوحشـة . وإذا بصـوت عميـق يصيح به ، وهـو صـوت الضمير يدعوه إلى أن يتساءل ولمـاذا لم يهلك مـع الهـالكين منـذ زمن بعيـد ولمـاذا كان نصيبه هـو دون غـيره النجاة ، ولم يستطع بطلنـا عنـدئذ إلا أن يخر على ركبتيه ليشكر اللـه على السراء والضراء .

وفى الصباح البـاكر أخـذ روبنصن الكتاب المقـدس وابتـدأ فى قراءته قـراءة دقيقـة منظمـة ، وكلما أمعن فى القراءة تسللت الطمأنينة إلى قلبـه وانتشرت روح الرضـا فى جوانحه . واستمر

روبنصن شهرين على هـذا المنوال وإذا به يسمو فوق الحياة ويجد فى اللـه سندا لا يركن إليـه إلا وجـده إلى جواره •

واشـتد ساعد روبنصن باهتـدائه إلى اللـه وتفتحت نفسـه فأخـذ يضـع الخطط الواسـعة لاستكشاف الجزيرة واستعمارها حتى أصبح وكأنه ملك عليهـا •

ومـع ذلك فاننـا نراه يفـزع من مجرد التفكير فى الانسـان ولحتمال لقياه •

ومن غـريب المصـادفات أن يلمح روبنصن فى صـباح أحـد الأيام على الشاطىء خمس زوارق فيقترب منهـا وإذا بهـا قـد أفرغت حمولتها وإذا بهـذه الحمولة جموع من المتوحشين اجتمعوا حول النـار ليشووا لحما بشريا أخذوا فى إعداده لطعامهم • وإذا بعبد معـد للشىء يفلت منهم ويعـدو ملء رجليـه فأخذ روبنصن يلاحقه فى العـدو حتى استطاع أن يلحق به وأن يستأنسه وإذا به عبـد لطيف وديع ليس فيـه ما يدعو إلى النفرة غـير ما اعتـاده من أكل لحم البشر • ودرب روبنصن عبـده على كافـة الأعمـال واتخذ منـه رفيقا سماه جمعه وجعـل منـه تلميذا يطبق عليـه كل ما هـدته إليـه عبقـريته من منـاهج التـدريس حتى لقـد وصل به إلى إدراك وجـود اللـه وإيقاظ الضمير المستقر فى أعماقه وسرعان ما ارتفع جمعه إلى مستوى روبنصن نفسه فأصبح ندا له ورفيقا بل أخا ، وهنـا أحس روبنصن بأنه قـد وصل إلى قمـة السعادة •

ولكن السعادة بطبيعتهـا قصـيرة العمـر ولذلك لا نبت أن نرى سفينة إنجليزية تمر بالشاطىء ونشاهد بحارتها يثـورون على الربان فيتبدخل روبنصن فى الأمر وينجـو بحياة الربان ،

ثم يصعد معه إلى الباخرة هو وجمعه وتعود بهم الباخرة إلى إنجلترا بعد أن خلفوا فى الجزيرة نفرا من البحارة استعمروها والحقوها منذ ذلك التاريخ بممتلكات التاج البريطانى .

وهكذا غادر روبنصن جزيرته . وكأنه قد غادر فيها بهجة الحياة ، ولكنه حمل معه ذكراها — حمل قبعته ومظلته الشهيرة وأنفق ما تبقى له من أيام فى انجلترا وكأنه غريب ، وكأن ما يحوطه من بشر وما يغمره من مجتمع لم يزده إلا وحشة على نحو ما يزداد إحساسنا بالصمت كلما اشتد من حولنا صخب بحر هائج .

محتويات الكتاب

	صفحة
الإهـداء	٣
مقـدمة للسيدة ملك عبد العـزيز	٥
جفـروش	٢١
فيجـارو	٢٨
دون كيشـوت	٣٥
فاوست (١)	٤٤
فاوست (٢)	٥٣
فاوست (٣)	٦٢
هاملت (١)	٦٨
هاملت (٢)	٧٦
ألست	٨٤
بيتريس : (١) فى عهـد الشـباب	٩٣
بيتريس : (٢) فى الكوميديا الإلهية	١٠٣
جوليان سـوريل	١١١
إبراهيم الـكاتب	١٢١
فيليسيتيه	١٢٨
الأستاذ بتلان	١٣٥
راستنياك	١٤٣
أوليس : (١) فى الإلياذة	١٥٧
أوليس : (٢) فى الأوديسا	١٦٥
أوليس : (٣) فى فيلوكتيت	١٧٣

صفحة

أوليس : (٤) فى الآداب الحديثـة ١٨١
العبيط : (١) العبيط مع مارى والأطفال ١٨٨
العبيط : (٢) العبيط فى الحياة الاجتماعيـة ١٩٩
العبيط : (٣) العبيط والإعـدام ٢٠٥
العبيط : (٤) العبيط والنسـاء ٢١١
ترتران الترسكونى ٢١٦
الملك لـير ٢٢١
روبندن كـروزو ٢٢٥

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٧٧

مطبعة نهضـــة مصر
الفجالة ـــ القـــاهرة

مطبعة نهضـــة مصر
الفجالة ــ القـــاهرة

Bibliotheca Alexandrina
0351853

الثمن ٧٥ قرشـــا